

التاريخ الأندلسي من خلال النصوص

د . محمد المنوني
د . امحمد بن عبود
د . السعدية فاغية
د . محمد رزوق
د . ابراهيم القادري بوتشيش
د . احمد الطاهري

شركة النشر والتوزيع المدارس
12 شارع الحسن الثاني ــ الدار البيضاء



التاريخ الأندلسي من خلال النصوص

د . محمد المنوني
د . امحمد بن عبود
د . السعدية فاغية
د . محمد رزوق
د . ابراهيم القادري بوتشيش
د . احمد الطاهري



شركة النشر والتوزيع المدارس
12 شارع الحسن الثاني — الدار البيضاء



الطبعة الأولى 1412-1991

الإيداع القانوني رقم 1991/801

تـــقــــديــــم

يسعدنا أن نقدم لجمهور القراء والمهتمين بالتاريخ الاندلسي هذه المجموعة من النصوص التي تعكس جوانب وقضايا ترتبط بمختلف المراحل التاريخية التي مرت بها الاندلس ، ابتداء من الفتح الاسلامي الى غاية الهجرة الكبرى خلال القرن الحادي عشر الهجري ، شارك في اعدادها مجموعة من الاساتذة الجامعيين المغاربة المتخصصين في تاريخ الأندلس أو في جوانب من تاريخ المغرب ذات الارتباط بالتاريخ الاندلسي . ولقد ساهم كل باحث بنصوص تهم المرحلة التاريخية المرتبطة بمجال اهتماماته كالتالي :

أولا : عصر الولاة والإمارة : ابراهيم القادري بوتشيش : استاذ التاريخ بكلية الآداب بمكناس.

ثانيا : عصر الخلافة : أحمد الطاهري : استاذ التاريخ بكلية الاداب بالمحمدية .

ثالثا : عصر الطوائف : الدكتور امحمد بن عبود استاذ التاريخ بكلية الآداب بتطوان.

رابعا : عصر المرابطين والموحدين : الاستاذ العلامة محمد المنوني استاذ التاريخ بكلية الاداب بالرباط

خامسا : عصر بني نصر : الدكتورة السعدية فاغية استاذة الادب العربي بالمدرسة العليا للاساتذة بمراكش .

سادسا : العصر الموريسكي الى غاية الهجرة الكبرى : الدكتور محمد رزوق استاذ التاريخ بكلية الآداب – عين الشق بالدار البيضاء – .

وأفرد كل عصر بتقديم يبرز الخصائص والملامح الاساسية التي تميزه ، قصد تمكين القارئ من تكوين تصور عام عن المجال التاريخي الذي ترتبط به النصوص المنتقاة . كما حدد مجال الاختيار في ابراز البعد السياسي ثم البعد الاقتصادي الاجتماعي . واقتصرت المساهمات على اختيار النصوص وتقديمها دون شرحها وتحليلها و ذلك للأسباب التالية :

أ- تقديم أكبر عدد من النصوص في حدود كتاب في متناول الجميع .

ب- التعريف بهذه النصوص قصد انعاش اهتمام القراء والباحثين بالمصادر التاريخية الاندلسية ، خصوصا المنشورة منها .

ج- تقديم مادة يمكن استغلالها في اطار عمليات تحليلية مختلفة وفي مجال واسع .

ونعتقد أنه بقدر ما تساهم شمولية هذه النصوص لكل مراحل التاريخ الاندلسي في ابراز تكاملها وتطور حلقاتها على المستوى السياسي من جهة ، ثم الاجتماعي والاقتصادي من جهة اخرى ، بقدر ما تبين الاختلاف والتنوع الذي يطبعها ، فضلا عن الخصوصيات التي تميزها .

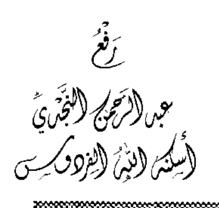
ويمكن الاعتماد على هذه المجموعة مرجعا جامعيا أساسيا لدراسة النصوص التاريخية الاندلسية ، كما يمكن الاعتماد عليها من طرف عموم القراء المهمتين بالدراسات الاندلسية ، واتخاذها مدخلا لدراسة وتحليل النصوص ، ومقدمة لتناول اشكالية التوثيق في مجال التاريخ الاندلسي .

والله ولي التوفيق

القسم الأول

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

عصر الولاة والإمارة



عصر الولاة والإمارة

يجمع المؤرخون على أن بداية تاريخ عصري الولاة والإمارة تقترن باللحظة التي أصبحت فيها الأندلس خاضعة لسلطة «دار الاسلام» بعد إتمام عمليات الفتح ، وتعيين أول والٍ عليها سنة 95 هـ وتنتهي بإعلان الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر قيام الخلافة سنة 316 هـ .

ومع اقتناعنا بأن تقسيم هذه العصور ذو بعد تقني يستهدف تبسيط الدراسات المرحلية أكثر من كونه مؤسسا على قواعد موضوعية ، فإننا تمشيا مع ماهو متعارف عليه ، سنحاول تحليل معطيات كل عصر على حدة .

I- عصر الولاة

يبتدئ هذا العصر زمنيا منذ أن غادر موسى بن نصير الاندلس متوجها إلى المشرق لمواجهة محنته تاركا ابنه عبد العزيز بن موسى واليا عليها سنة 95 هـ ، وينتهي بوصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتأسيس إمارة بها سنة 138 هـ . وقد تعاقب عليها خلال هذه الحقبة 22 واليا كان آخرهم هو الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري .

تميز عصر الولاة بعدة خصائص بعضها مرتبط بطبيعة التأسيس وبداية التواجد الإسلامي في هذا البلد ، والبعض الآخر يرجع إلى التطور الحاصل في مسار القوى المتواجدة على الساحة نتيجة تناقض أو تقارب المصالح والأهداف .

لقد كان عصر الولاة نقطة انطلاق وبداية تأسيس الكيان الاسلامي في الجزيرة الاندلسية ولذلك كان من الطبيعي أن تطفو على المجتمع الاسلامي في هذه البقعة كثير من الصعوبات ، فهي تعد أقصى نقطة تبعد عن مركز الخلافة في الشرق ، مما عمق صعوبة التواصل لحل المعضلات المطروحة . وكانت الوضعية تحتم تغييرا جذريا في البنى السياسية

والإدارية والتنظيمية في بلد أصبح يشكل قطيعة مع ماضيه وإرثه الحضاري ، فضلا عن الضعف الذي كان قد خلخل بنياته العتيقة وأصبح يشكل عبئا ثقيلا ورثه المسلمون عن الحكم القوطي .

ومع ذلك سجل عصر الولاة إنجازات تعد ضخمة إذا ماقيست بظرفية المرحلة حيث تم إقرار الأوضاع ، وبدأت التنظيمات الإدارية وإصلاح أحوال البلاد تأخذ مجراها كما بدأ المجتمع الأندلسي في هذه الفترة ينمو بطبقاته وطوائفه الاجتماعية . ولعل أبرز ماميز المجتمع في هذه الحقبة دخول عدد كبير من الإسبان في الديانة الاسلامية التي اجتذبتهم بشوريتها ، وماتحمله للإنسان من قيم كانت تفتقر إليها في مجتمعها القوطي القديم وتحتفظ لنا المصادر بأسماء كثير من الأسر التي اعتنقت الإسلام بعد أن عانت من مظاهر الجور ماجعلها ترحب بالفاتحين الجدد فكان عصر الولاة إذن عصر تحرير الإنسان المقيم في شبه الجزيرة الإيبيرية .

والملاحظ أن الأندلس في هذا العصر كانت تتبع إداريا خلافة دمشق أو الشمال الافريقي حيث كان الوالي يعين إما مباشرة من طرف الخلافة أو بواسطة وليها في المغرب الاسلامي .

ورغم أن العصر كان في بدايته ، فإنه لم يخل من منجزات اجتماعية وعمرانية تجلت في بناء القناطر وشبكات الري ، فضلا عن المساجد بغية تقوية الروح الإسلامية .

ولا جدال في أن عصر الولاة كان عصر جهاد واستمرار للفتوحات الإسلامية في البلاد الأوربية وخاصة بلاد الغال (فرنسا) ، فعبر بذلك عن قوة الدفع الإسلامي الذي لم يوقفه سوى معركة بلاط الشهداء (114 هـ / 732 م) التي انحسر فيها المد العربي أمام تكتل صليبي متعصب ومع ذلك فإن مثل هذا التقدم العسكري إلى أعماق فرنسا الحالية يعد انجازا رائعا ونقطة هامة وصل إليها تاريخ الجهاد العربي .

ونحن في غنى عن القول أن هذا العصر يعتبر كذلك عهد تجذُّر الإسلام وتفقيه الشرائح

الاجتماعية سواء تلك التي كانت حديثة العهد بالإسلام أو تلك التي سارعت إلى اعتناقه من أبناء الإسبان ، فقد دخل عدد من التابعين بمعية جملة من الفقهاء لتبصير الجمهور بأحكام الدين وشرائعه . أما العلوم فمن إنصاف القول أنها ظلت في طورها الجنيني ، ولم تظهر ثمارها إلا في فترات لاحقة في حين ظل مذهب الإمام الأوزاعي هو السائد في الأندلس خلال الحقبة ذاتها .

غير أن هذا الوجه المشرق يجب ألا يحجب عنا بعض الصور السلبية التي عرفتها الأندلس خلال عصر الولاة . ذلك أن هذا الأخير تميز بعدم الاستقرار السياسي والفوضى التي استشرت في طول بلاد الأندلس وعرضها . مصداق ذلك تغير الولاة بين الفينة والأخرى حتى أن متوسط المدة التي قضاها كل وال في الحكم لم تتجاوز السنتين .

وبالإضافة إلى ذلك ، استعرت النعرات القبلية التي لم تكن سوى انعكاس طبيعي لما كان يجري في المشرق الإسلامي : فخلافة دمشق تلوثت بسياسة التعصب القبلي ، وغرقت فيها بكل مؤسساتها وأجهزتها ، فكان بديهيا أن يترك ذلك أثره على المناخ السياسي في الأندلس حيث وجدت التناقضات القبلية والعنصرية طريقها إلى الانفجار ، وتشكلت أحزاب و «محاور» متعددة الانتماءات لايجمع بينها سوى الصراع على السلطة : فالعرب البلديون وهو بواكير الشرائح التي جاءت مع الفتح أو بعده مباشرة كانت قد ضربت في سهول الأندلس الخضراء ، وعاشت في ترف إلى أن جاء العرب الشاميون ففرضوا أنفسهم عليهم بعدما ساعدوهم في سحق ثورة البربر . وامتد الصراع ليشمل هؤلاء كذلك إذ أرادوا تأكيد دورهم في فتح الأندلس والحوار من موقع الطرف القوي ، وليس من موقع التبعية للعرب .

وبكلمة مختصرة يمكن القول أن عصر الولاة كان بداية تثبيت الوجود الإسلامي في الأندلس وإرساء دعائم المجتمع عن طريق سن التنظيمات والتوسع على حساب «دار الحرب» غير أنه عرف في نفس الوقت جوا من التشاحن والاضطرابات السياسية والتوترات الاجتماعية

وهي مسألة طبيعية لمجتمع لازال في طور المخاض ولعل هذه المظاهر ستبدو بوضوح من خلال النصوص التي سنعرضها .

هذا عن عصر الولاة فماذا عن عصر الإمارة ؟

II- عـصـر الإمـارة

يمتد عصر الإمارة من سنة 138 هـ (755 م) وهي السنة التي تمكن فيها الأمير الأموي عبد الرحمن المعروف بالداخل من تحقيق مشروعه السياسي الطموح والاستيلاء على السلطة في الأندلس بعد أن أفلت بنجاح من مذابح العباسيين ، إلى سنة 316 هـ ، وهي السنة التي أعلن فيها عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر نفسه خليفة في الأندلس وتسمى بأمير المؤمنين .

وتستلزم قراءة أحداث هذا العصر استحضار مجموعة من المعطيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية البارزة بغية تأطير النصوص الواردة بعد في إطارها الصحيح .

غير أنه من الضروري التمييز داخل عصر الإمارة هذا بين مرحلتين تختلفان حسب معطياتها التاريخية .

1- فترة الإمارة الأولى :

من أبرز مميزات هذه المرحلة دخول الأندلس في قطيعة سياسية مع خلافة الشرق وإن لم تتجسد هذه القطيعة على المستوى الروحي والحضاري ، فبعد أن كان الولاة مرتبطين بالخلافة الأموية ثم العباسية بعدها ، قام عبد الرحمن الداخل (138 - 172 هـ) بجرأة قل نظيرها بإعلان إمارة أموية مستقلة في الأندلس تناصب العداء للعباسيين ، بل وتحالف خصومهم من الأفرنجة نكاية فيهم ، وبالمثل حاول العباسيون زرع البلبلة والاضطراب وتأييد الحركات الموالية لهم في الأندلس ولولا بعد المسافة لتحولت هذه المناوشات إلى حرب ضروس قد تغير مسار التاريخ الإسلامي .

ومع ذلك فإن العلاقات الحضارية استمرت على قدم وساق ، بل إن «التقليد الشامي» وجد تربة خصبة في الأندلس ، فتأثرت مظاهر الحياة الاجتماعية بحضارة الشرق خاصة بعد وفود جماعات شامية في عصر عبد الرحمن الأوسط الذي أصبحت قرطبة في عهده مشرعة الأبواب في وجه التيارات المشرقية وحسبنا دليلا على ذلك وفود المغني زرياب الذي مثل شخصية طريفة جاءت بمادة جديدة من الترف الاجتماعي فأثرت في المجتمع الأندلسي برمته .

وتميزت الفترة الأولى من عصر الإمارة كذلك بنوع من الاستقرار السياسي خاصة في البداية حيث اختفت الصراعات الحزبية وخفت النعرات العصبية . ومع مواجهة الاستقرار أخذت العلوم تأخذ مكانها داخل الأندلس التي أصبحت وعاء اختصرت فيه الثقافات المتنوعة ، فتفجرت العطاءات ، وأزهر حقل العلوم وغدت قرطبة مركز اشعاع علمي واسع . وسطع نجم بعض الشخصيات العلمية كعباس بن فرناس الذي كان أول من استنبط بالأندلس صناعةالزجاج من الحجارة .

وعرفت النظم الإدارية بدورها تقدما هاما في هذه المرحلة إذ وجد منصب الوزارة والحجابة كما عرف صاحب المدينة وصاحب الشرطة وغيرها من الخطط .

وصاحب هذا التقدم العلمي والإداري نهضة عمرانية ملحوظة قائمة على رقة الذوق والأناقة التي شملت المنشآت العامة من مساجد وقناطر وأسوار .

ومن المعلوم أن عناصر المجتمع الأندلسي تعددت في هذه المرحلة ، فإلى جانب العرب والبربر والمستعربين والمولدين انضافت أفواج أخرى من الصقالبة المجلوبين من بلاد البلغار ، فضلا عن بيوتات أموية وردت على الأندلس بعد أن تمت الغلبة لبني جلدتهم .

وتمتعت جل هذه العناصر إلى حد ما بسياسة الانصاف والتسامح بما في ذلك طائفة المستعربين الذين بهرتهم الثقافة العربية ، وتمكن بعضهم من الوصول إلى المناصب القيادية وإذا كان ثمة تمردات بين صفوفهم فهي تمرات غير مسؤولة .

وعلى المستوى المذهبي يعد عصر الإمارة انعطافة هامة في التاريخ المذهبي للأندلس فبعد أن كان مذهب الأوزاعي هو السائد في عصر الولاة كما سبق الذكر ، دخل المذهب المالكي الأندلس بفضل جهود مجموعة من الفقهاء من أمثال زياد بن عبد الرحمان ويحيى بن يحيى الليثي.

أما من النواحي الاقتصادية فقد عرفت الزراعة في هذه المرحلة الأولى تقدما ملموسا إذ تعددت وسائل الري ، وجلبت أشجار الفواكه من الشرق وعرفت حركة البستنة نموا كبيرا وبدأ الاعتناء بالضيعات . والشيء نفسه يقال عن الصناعة خاصة صناعتي السفن والبناء وكذلك التجارة وإن كان المجال لايسمح بتتبعها .

كذلك تميز هذا العصر بربط علاقات ديبلوماسية ودية مع بعض الأمم المجاورة حيث تذكر المصادر سفارة يحيى الغزال من قبل عبد الرحمن الأوسط إلى مملكة النورمان كما تذكر زيارة سفير الامبراطور البزنطي "تيوفيل" إلى قرطبة سنة 225 هـ/ 839 م . إلا أن سياسية الانفتاح هذه لم تَحُلْ دون تحرشات بعض القوى المسيحية الواقعة في الشمال وكذلك هجوم النورمان.

تلك هي الخصائص الإيجابية التي ميزت عصر الإمارة في طوره الأول الذي استمر إلى غاية منتصف القرن الثالث الهجري غير أن هذه الصورة المشرقة سرعان ماعرفت تقلبا كبيرا في عصر الإمارة الثاني .

2- فترة الإمارة الثانية :

على الساحة السياسية ، تميزت هذه الفترة بمجموعة من الضوابط التي تختلف مع الفترة الأولى ، إذ فقدت السلطة المركزية هيبتها ، فانفجر الوضع السياسي ، وظهرت كيانات قزمية انفصالية في غمار الفوضى السياسية السائدة ، فأصبح كل زعيم من قادة العسكر الذين أقطعهم الأمير مناطق معينة ، يستقلون بها ، ويجبون ضرائبها ، ويؤسسون إمارات على

النمط الاقطاعي ، وبذلك انقرضت وحدة الأندلس السياسية .

وعلى المستوى الاقتصادي أصبح الإقطاع هو نمط الإنتاج السائد اذ ظلت الأرض محور العلاقات الاجتماعية ، تفوت عن طريق الإقطاع إما للأمراء أو لقادة الجند والفقهاء وكذا بيوتات الأعيان . وقد أثرت عملية إقطاع الأراضي في مظاهر النشاط الاقتصادي حيث ظلت الزراعة قوة الإنتاج الرئيسية إلا أنها عانت من التدهور ، بينما ظلت الصناعة منحطة وتابعة للعمل الزراعي ، ولم يجر تطويرها ، في الوقت الذي تدهورت طرق التجارة نتيجة الحروب الاقطاعية التي استعرت بين زعماء الإمارات المستقلة ، كما تدهورت التجارة الخارجية نتيجة ضعف الإمارة والبحرية الأندلسية .

وانعكست هذه الوضعية الاقتصادية التمردية على الفئات الاجتماعية غير أن أكثر من تضرر هي فئة التجار الذين عانوا من انعدام الأمن كما انحطت وضعية الحرفيين نتيجة كساد الاقتصاد المحلي وارتفاع تكاليف المعيشة . كما شهدت الفترة كثرة المجاعات والأوبئة . وباختصار فد كانت الفترة الثانية من عصر الإمارة فترة أزمة متعددة الجوانب .

تلك إذن – في عجالة– أهم ما ميز عصري الولاة والإمارة بشقيها وهي ميزات كان الهدف من إبرازها تكوين الإطار العام الذي تندرج فيه النصوص التي سنوردها .

نصوص حول عصر الولاة

I- نصوص سياسية

نص رقم 1 : فتح الأندلس

قال الواقدي : غزا طارق بن زياد عامل موسى بن نصير وهو أول من غزاها وذلك في سنة اثنتين وتسعين ، فلقيه أليان وهو والٍ على مجاز الأندلس فآمنه طارق على حمله وأصحابه إلى الأندلس في السفن ، فلما صار إليها حاربه أهلها ففتحها وذلك في سنة اثنتين وتسعين ، وكان ملكها فيما يزعمون من الأشبان وأصلهم من أصبهان . ثم إن موسى بن نصير كتب إلى طارق كتابا غليظا لتغريره بالمسلمين وافتنانه عليه بالرأي في غزوه وأمر أن لا يجاوز قرطبة وسار موسى إلى قرطبة من الأندلس فترضاه طارق فرضي عنه فافتتح طارق مدينة طليطلة وهي مدينة مملكة الأندلس وهي مما يلي فرنجة وأصاب بها مائدة عظيمة أهداها موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك بدمشق حيث قفل سنة ست وتسعين والوليد مريض . فلما ولي سليمان بن عبد الملك أخذ موسى بن نصير بمائة ألف دينار فكلمه فيه يزيد بن المهلب فأمسك عنه . ثم لما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ولى المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ، فسار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الاسلام وكتب عمر بن عبد العزيز كتبا يدعوهم بعد إلى ذلك فقرأها إسماعيل عليهم في النواحي فغلب الإسلام على المغرب .

(البلاذري : فتوح البلدان. بيروت 1978 ، ص 232 - 233).

نص رقم : 2 خطبة طارق بن زياد أمام الجيوش الاسلامية يحثهم على الجهاد

لما بلغ طارق اقتراب لذريق بجيشه القوطي الكثيف «قام في أصحابه ، فحمد الله سبحانه وتعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم في الشهادة ثم قال : أيها الناس ، أين المفرّ ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لاوَزَرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رُعبها منكم الجرأة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خدلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ولاحملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسي .

واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفة الألذ طويلا فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي فما حظكم فيه بأوفى من خطي وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرّ والمرجان والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذي التيجان وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المومنين سواكم والله تعالى ولي إنجادكم على مايكون لكم ذكرا في الدارين .

واعلموا أنني أول مجيب إلى مادعوتكم إليه وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي

على طاغية القوم لُذْريق فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون» .

(المقري : نفح الطيب بيروت 1968ج 1 ص 240 - 241)

نص رقم : 3 الجهاد في بلاد الغال

في هذه السنة وهي سنة ثلاث عشرة ومائة غزا عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أمير الأندلس من قبل عبيدة بن عبد الرحمن السلمي وكان هشام بن عبد الملك قد استعمل عبيدة على افريقية والأندلس سنة ست عشر ومائة . فلما قدم افريقية رأى المستنير بن الحرث الحريشي غازيا بصقلية وأقام هناك حتى هجم عليه الشتاء ثم قفل راجعا ففرق من معه وسلم المستنير في مركبه فحبسه عبيدة عقوبة له وجلده وشهره بالقيروان . ثم إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله فغزا افرنجة وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة ، وكان فيما أصاب رجل من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمرد فكسرها وقسمها في الناس فبلغ ذلك عبيدة فغضب غضبا شديدا فكتب إليه يتهدده فأجابه عبد الرحمن وكان رجلا صالحا . أما بعد فإن السموات والأرض لو كانتا رتقا لجعل الله منها للمتقين مخرجا ثم خرج غازيا ببلاد الفرنج هذه السنة وقيل سنة أربع عشرة وهو الصحيح فقتل هو ومن معه شهداء ثم إن عبيدة سار من افريقية إلى الشام ومعه من الهدايا والإماء والعبيد والدواب وغير ذلك كثير واستعفى هشاما فأجابه إلى ذلك وعزله وكان قد استعمل على الأندلس بعد قتل عبد الرحمن عبد الملك بن قطن ثم إن هشاما استعمل على افريقية بعد عبيدة عبد الله بن الحبحاب وكان على مصر فسار عبيد الله الى افريقية سنة ست عشرة ومائة فأخرج المستنير من الحبس وولاه تونس ثم إن عبيد

الله جهز جيشا مع حبيب بن أبي عبيدة وسيرهم إلى أرض السودان فظفر بهم ظفرا لم يظفر أحد مثله وأصاب ماشاء ثم غزا البحر ثم انصرف» .

(ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت 1978 ، ج 4 ص 214 - 215)

نص رقم 4 : الصراعات السياسية بين الولاة

«وكان كلثوم قد كتب إلى أهل الأندلس وعليها عبد الملك بن قطن الفهري يأمرهم بإمداده والخروج إليه ، فوافاهم بلج وقد وقعوا إلى مجاز الخضراء . وتقدم عبد الرحمن بن حبيب أمام بلج إلى الأندلس ، فقدمها وأمر عبد الملك بن قطن ألا يسمع لبلج ولايطيعه ثم قدم بلج فأقام بالجزيرة وكتب إلى عبد الملك بن قطن يعلله أنه خليفة كلثوم وشهد له بذلك ثعلبة الجذامي وأصحابه وكان الرسول فيما بينهما قاضي الأندلس فسلم عبد الملك بن قطن الولاية لبلج على كره من عبد الرحمن بن حبيب ، فخرج عبد الرحمن من قرطبة كازها لولاية بلج ثم إن بلجا لما قدم قرطبة حبس عبد الملك بن قطن في السجن وثار عبد الرحمن بن حبيب ومعه أمية بن عبد الملك بن قطن فجمعا لقتال بلج فأخرج بلج بن عبد الملك من السجن وقال له : «قم في المسجد فأخبر الناس أن كلثوما كتب إليك أني خليفته» فقال عبد الملك : «أيها الناس إني والي كلثوم وإني محبوس بغير حق» فضرب بلج عنقه ثم قدم عبد الرحمن بن حبيب بجموع فخرج إليه بلج ومن معه من أهل الشام وكان بينهم نهر فلما كان الليل عبر عبد الرحمن إلى قرطبة وخليفة بلج بها القاضي وقد كان القاضي اتهم بدم عبد الملك بن قطن ، فأخذه عبد الرحمن بن حبيب فسمل عينه وقطع يديه ورجليه وضرب عنقه وصلبه على شجرة وجعل على جثته رأس خنزير وبلج لايشعر ثم خرج من قرطبة فقاتله بلج فانهزم عبد الرحمن بن حبيب ، ثم جمع جمعا آخر فقتل بلج ومن معه ويقال إن بلجا لم يقتل وإنما مات موتا. حدثنا يحيى بن بكير عن الليث بن سعد قال : «مات بلج سنة خمس وعشرين ومائة بعد قتله ابن قطن بشهر» .

ثم افترق أهل الأندلس على أربعة أمراء حتى أرسل حنظلة بن صفوان الكلبي بأبي الخطار الكلبي فجمعهم وسأذكر ذلك في موضعه إن شاء الله .

(ابن عبد الحكم : فتوح افريقية والأندلس . بيروت 1964 ص 99 - 101)

II- نصوص اقتصادية – اجتماعية

نص رقم : 5 فتوى الفقيه الداودي حول عدم شرعية ملكية الأرض في الأندلس في عصر الولاة

"وأما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة وأنها لم تخمس ولم تقسم ، غير أن كل قوم وثبوا على طائفة منها بغير إقطاع من الإمام ولم تترك لمن يأتي من المسلمين فإن كان الأمر على هذا ، فالواجب على من بيده شيء من ذلك أن يتبرأ منه فيكون في مصالح المسلمين وله أن يؤدي كراءه إلى المساكين فيستعملها إذا لم يكن ممن يجري في ذلك على وجهه . وقيل إن قوما من البربر من الجيش الذين افتتحوا البلد ، عمدوا إلى موضع من الأرض التي فتحوا فسألوا فيه واليهم على أن يسلموا له نصيبهم من الغنيمة فأعطاهم إياه ، فاقتطعوه فأقاموا الزمان الطويل ، ثم طولبوا بعد ذلك مع سلطان آخر فامتنعوا وحاربوا عليها حتى جلوا منها هل يحل سكناها أو شراء مارفع من طعامها قال إن كان صاحب الجيش قسم باقي ما افتتح على سائر أهل الجيش وكان أعطاها ولاقدر حقوقهم أو أقل أو كثيرا بما يتغلب الناس بمثله ".

(الداودي : كتاب الأموال (مخطوط) ص 17)

نص رقم : 6 استغلال القوة والنفوذ في امتلاك الأراضي

«هذا ولم نزل نسمع سماع استفاضة توجب العلم الضروري أن أرض الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله ، ولا استطيب أنفس ا لفاتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح لكن نفذ الحكم فيها بأن لكل يد ما أخذت ، ووقعت فيها غلبة ، ثم دخل البربر الأفارقة فغلبوا على كثير من القوى دون قسمة ، ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض فأخرجوا أكثر العرب المعروفين بالبلدين كلما كان بأيديهم» .

(ابن حزم : الرد على ابن النغريلة اليهودي . طبعة 1960 ص 176)

نص رقم : 7 زواج المسلمين بالأهالي الإسبانيين

«فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية ، وولد منها ولدان : ابراهيم وإسحاق ، ثم توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية ، فتنافسها حيوة بن ملامس المذحجي وعمير بن سعيد اللخمي ، فعني ثعلبة بن عبيد الجذامي بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها ، وولدت له حبيب ابن عمير جد بن سيد و بني حجاج وبني مسلمة وبني حجز الجرز وهؤلاء أشراف ولد عمير بإشبيلية إذ كان له أولاد من غيرها ، ولم يشرفوا شرف هؤلاء وهذا الخبر في كتاب عبد الملك بن حبيب في فتح الأندلس في أرجوزة تمام بن علقمة الوزير أو أكثره» .

(ابن القوطبة : تاريخ افتتاح الأندلس طبعة ص 6)

نص رقم : 8 الأجناس والطوائف التي سكنت الأندلس منذ الفتح والحرف التي امتهنتها

«ولما فتحت جزيرة الأندلس ، صرف أهل الإسلام وغيرهم من اليهود همهم الى الحلول بها ، فنزل بها من سادات الناس وجراثيمهم الجم الغفير ، وأورثوها أعقابهم الى أن كان من أمرهم ماكان ، وأهلها على أربعة أجناس ، الجنس الأول بنو هاشم دخل اليها منهم الجم الغفير من الحجاز واليمن والعراق والشام ومصر وبرقة وافريقية والمغرب الأقصى ، الجنس الثاني دخل اليها من سادات العرب وجراثيمهم ومواليهم الجم الغفير من جميع البلاد التي ذكرنا ، الجنس الثالث دخل اليها من برابر المغرب وافريقية الجم الغفير ، الجنس الرابع أهلها الذين دخل عليهم المسلمون ، منهم من أسلم واستقر بموضعه ومنهم من سبي عند الفتح واستقر بها وبها بقية عقبه ومنهم من أسلم بعد الفتح أو سبي بعد الفتح واستقر بها عقبهما ، وهاذا الصنف على أجناس ، منهم الروم ، والجلالقة ، وقشتالة ، وراغون البرمدي والغريقين واليبنير ، والطوطين ، من الأهم القديمة ، ومنهم أهل باريس مدينة مستقر طاغية افرانصيص المنسوب الى فرنصية، ومنهم عجم رومية ، ومنهم من كان من اليهود مستقرا بها قبل الفتح وأسلم عند الفتح أو بعده أو دخل اليها بعد الفتح وأسلم .

ثم ان أوصاف أحوال أهلها في استقرارهم بها ، أما بنو هاشم وقريش وبنو اسماعيل وبنو قحطان فانهم احترفوا في الحلول بها الحرف التي ليست بخاملة نحو تدريس العلم والتوريق على الكراسي وتحمل الشهادة والنساخة للكتب وتعليم الصبيان وامامة المساجد والوقوف عليها من نحو اصلاح وقبض كراء وولاية نظارة وحسبة وكتابة عند الملوك ووزارة وولاية الأمور الصالحة ، ومن احترف منهم فاحترف الفلاحة وخدمة أجنات غلة وغرس ونسج حرير وبيعه غير منسوج وطيه وبيع بز ، وتسبب بجلبه ، وبيع عطر ، وسبك شمع ، ونسج غزل الكتان ، وبيع لبن البقر لمن يمخضه ، ومن تدقع منهم ببيع الفاكهة والخبز والخضر ، وهذا

يخص منهم أهل الحسب والحياء ، وأما أهل التصرف والشورا فانهم يدخلون في عداد الجيوش من أهل الحل والعقد .

وأما البربر فإنهم احترفوا بجلب البقر والقمح والسمن والزيت والعسل والصوف والدجاج والفواكه والملح والأعواد وخدمة الفحم والخشب ونحو ذلك ، وأهل الحاضرة منهم احترفوا ضفر الحلفة ، وخدمة الأوعية أي السلل للزرع ، وفتل القنب والمحاريث والبراذع للبهائم والحبال والشطاطيب لكنس الديار وصيادة الطيور للأكل ، والحملان في الأسواق ، وحملان الزرع الى الديار وبيعه في الأسواق ، وخرز الدلاء وجلب الماء والبناء وطبخ الجير والجبص ونحو ذلك .

وأما من أسلم من أهلها فمن كان منهم في البادية فاكتسبوا البقر والغنم والحرث والعسل ، وأهل الجبال منهم كانوا يغرسون الأجنات والفواكه وقطع الخشب وطبخ الفحم ، ومن ولي البحر منهم كان يجلبون الحوت والسردين ويصنعون السفن وآلاتها الى غير ذلك .

وأما الموالي فأما من كان بالحاضرة منهم فكانوا يحترفون بالدباغة والحياكة والخرازة وبيع النعال المخروزة وبيع الحياك والجلاليب ونسجها والضرب بالطبول والبنود والحجامة وحمل الموتا وحفر قبورهم ودواء المرضا وعلاج الجرح والمرض وطحن برحا وخرط عود والقيام بالمساجد والأذان بها ورصد وقت ، وبيع لحم ، ونجارة خشب وعظم سرج ، وصنع كسوة جياد ، وسرير مكحلة ، وخدمة فخار وغيره ، وسبك حديد وآلة الحرب ، وصنعة نحاس ، ومبيت بالأسواق بالليل ، وحرس الفنادق ، وتسمير البهائم ، وحمل السلوع من بلد الى بلد .

وأما من أسلم من اليهود فاحترف بخياطة الملف والثياب وضفر القيطان الذي يخاط مع الثياب ، ونسج العقد ونسج قلنسوة وتبطينها وصبغها وتصفيفها ، وحجامة ، وبلاجة ، ودلالة بالأسواق وبيع لبن مخوض وبيع واصلاح نعل مخروز .

وأما الموالي منهم فاحترفوا طبخ الخبز والسفنج والشواء وصنعة القدور للطبخ وبيعها

وعصر الزيت وحمله ، والصابون ، وبيع ملح وحوت وشحم ، وصناعة فانيذ ، وبيع أدوية وعشب وتسفير كتب ، وتجبيص الرباع وتزويق الخشب وتزليج الرباع وصناعة منسج للحياكة ، وصناعة الصفر ، وصياغة ، وخدمة حمام ، وسقي ماء ، وسبك فداويش وشعرية وثريد ومقروط ورغائف بقصد البيع ، وبيع صوف وكتان والات الطرب والتغني بها ، والضرب للدنانير والدراهم وحلي النساء . وخرط مرجان وبيعه ، وكراء أواني البنائين وحفر بير وتصفية معدن ، وخدمة الرخام .

والعرب الذين دخلوا اليها استقر أكثرهم بالحواضر ، وأما البربر فمن كان من أهل الحاضرة استقر في المدن ، ومن كان من البادية استقر في القرى ، وأكثر جيوشها كانوا من العرب الذين دخلوا اليها الى أن رجع أمرهم الى أمراء المغرب فأقرهم يوسف بن تاشفين اللمتوني الصنهاجي على ما كانوا عليه وأيدهم بجيوش الشورا فكانوا مددا لأهل الثغور الى أن غلب الموحدون على اللمتوني فردوا أهلها نائبة لأهل المغرب ، فضعف أهل الاندلس بسبب ذلك ، وكان عمر بن عبد العزيز نفذ فيها جباياتها لانقطاع أهلها عن أرض المسلمين وجوارهم لأهل الكفر خوفا على أهلها أن يضعفوا عن مقاومة الكفار .

(ابن الأحمر. بيوتات فاس الكبرى . الرباط 1972 ص 22 - 25)

نصوص حول عصر الإمارة

I- نصوص سياسية

نص رقم 9 دخول عبد الرحمن الداخل الأندلس وقيام الإمارة الأموية بها

«لما نزل ببني أمية بالمشرق وغلبهم بنو العباس على الخلافة ، وأزالوهم عن كرسيها وقتل عبد الله بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفائهم سنة ثنتين وثلاثين ومائة وتتبع بنو مروان بالقتل فطلبوا من بعدها ببطن الأرض وكان ممن أفلت منهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وكان قومه يتحينون له ملكا بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يؤثرونها عن مسلمة بن عبد الملك وكان هو قد سمعها منه مشافهة فكان يحدث نفسه بذلك فخلص الى المغرب ونزل على أخواله نفرة من برابرة طرابلس وشعر به عبد الرحمن بن حبيب وكان قتل ابني الوليد بن عبد الملك لما دخلا افريقية من قبله فلحق عبد الرحمن بمغيلة ويقال بمكناسة ويقال نزل على قوم من زناتة فاحسنوا قبوله واطمأن فيهم ثم لحق بمليلية وبعث بدرا . مولاه إلى من بالأندلس من موالي المروانيين وأتباعهم فاجتمع بهم وبثوا له بالأندلس دعوة ونشروا له ذكرا ووافق ذلك ماقدمناه من الفتنة بين اليمنية والمضرية فاجتمعت اليمنية عل أمره ورجع اليه بدر مولاه بالخبر فأجاز البحر سنة ثمان وثلاثين في خلافة أبي جعفر المنصور ونزل بساحل السند وأتاه قوم من أهل اشبيلية فبايعوه ثم انتقل الى كورة رحب فبايعه عاملها عيسى بن مسور ثم رجع الى شدونة فبايعه عتاب بن علقمة اللخمي ثم أتى مورور فبايعه ابن الصباح و نهز الى قرطبة واجتمعت عليه اليمنية ونمى خبره الى والي الاندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازيا بجليقة فانفض عسكره وسار الى قرطبة وأشار عليه وزيره الصميل بن حاتم بالتلطف له

والمكر به فلم يتم له مراده وارتحل عبد الرحمن من المنكب فاحتل بمالقة فبايعه جندها ثم برندة فبايعه جندها ثم بشريش كذلك ثم باشبيلية فتوافت عليه الامداد والامصار وتسايلت المضرية اليه حتى اذا لم يبق مع يوسف ابن عبد الرحمن غير الفهرية والقيسية لمكان الصميل منه زحف اليه حينئذ عبد الرحمن بن معاوية وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة فانكشف ورجع الى غرناطة فتحصن بها وأتبعه الأمير عبد الرحمن فنازله ثم رغب اليه يوسف في الصلح فعقد له على أن يسكن قرطبة وأقفله معه ثم نقض يوسف عهده وخرج سنة احدى وأربعين ولحق بطليطلة واجتمع إليه زهاء عشرين ألفا من البربر وقدم الأمير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المرواني كان وفد عليه من المشرق وكان أبوه عمر بن مروان بن الحكم في كفالة أخيه عبد العزيز بمصر فلما هلك سنة خمس عشرة بقي عبد الملك بمصر فلما دخلت المسودة أرض مصر خرج عبد الملك يؤم الاندلس في عشرة رجال من بيته مشهورين بالبأس والنجدة حتى نزل على عبد الرحمن سنة احدى واربعين فعقد له على اشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مرور وسار يوسف اليهما وخرجا اليه فلقياه وتناجز الفريقان فكانت الدبرة على يوسف وأبعد الفز واغتاله بعض أصحابه بناحية طليطلة واحتز رأسه وتقدم به الى الأمير عبد الرحمن فاستقام أمره واستقر بقرطبة وبنى القصر والمسجد الجامع أنفق ثمانين ألف دنار ومات قبل تمامه وبنى مساجد ووفد عليه جماعة من أهل بيته من المشرق وكان يدعو للمنصور ، ثم قطعها لما تم له الملك بالأندلس ومهد أمرها وخلد لبني مروان السلطان بها ، وجدد ماطمس لهم بالمشرق من معالم الخلاقة وآثارها ، واستلحم الثوار في نواحيها ، وقطع دعوة العباسيين من منابرها وسد المذاهب منهم دونها وهلك سنة اثنتين وسبعين ومائة وكان يعرف بعبد الرحمن الداخل لأن أول داخل من ملوك بني مروان هو وكان أبو جعفر المنصور يسميه صقر بني أمية لما رأى ما فعل بالأندلس وماركب إليها من الأخطار وأنه صمد إليها من أنأى ديار المشرق من غير عصابه ولاقوة ولا أنصار فغلب على أهلها وعلى أميرهم وتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة وإمضاء عزم ثم تحلى وأطبع وأوثه عقبه. وكان عبد الرحمن هذا يلقب بالأمير ، وعليه جرى بنوه من بعده فلم يُدْعَ أحد منهم بأمير المؤمنين إذ بايع الخلافة بمقر الإسلام ومبتدأ العرب . . . » .

(ابن خلدون : كتاب العبر . طبعة بيروت 1979 ج 4 ص 120 - 122)

نص رقم : 10 ثــورة الـربــض

«ثم ولي بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة يكني أبا العاص ، أمه أم ولد اسمها زخرف ، وكان طاغيا مسرفا وله آثار سوء قبيحة ، وهو الذي أوقع بأهل الربض الوقعة المشهورة فقتلهم ، وهدم ديارهم ومساجدهم . وكان الربض محلة متصلة بقصره فاتهمهم في بعض أمره ففعل بهم ذلك فسمي الحكم الربضي لذلك .

وفي أيامه أحدث الفقهاء إنشاء أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع أعني صوامع المسجد وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئا من التعريض به مثل أن يقولوا : «يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك ...» وما نحا هذا النحو فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم ، وكان أشد الناس عليه في أمر هذه الفتنة الفقهاء ، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم إلى أن كان من أمرهم ماكان .

وحكى أبو مروان بن حيان صاحب أخبار الأندلس أنه لما تُسور عليه القصر وأحس بالشر ، قال لأخص غلمانه اذهب إلى فلانة إحدى كرائمه ، وقل لها تعطيك قارورة الغالية. فأبطأ الغلام وتلكأ ، فأعاد ذلك عليه فقال : يامولاي ، هذا وقت الغالية ؟ فقال له : ويلك يا ابن الفاعلة ، بِمَ يعرف رأسي إذا قطع من رؤوس العامة إن لم يكن مضمخا بالغالية ؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصر وعامة الحشم والجند يشغلونهم إلى أن دهمتهم الخيل من ورائهم ، فانهزموا وقتلوا قتلا قبيحا ، وأمر بديارهم ومساجدهم فهدمت وحرقت ، وأمر بنفي من بقي منهم عن البلاد ، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبر برقة أول المغرب ، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا ، فرجع بعضهم إلى الأندلس ، واختار بعضهم سكنى صقلية ، وانتقل بعضهم إلى الاسكندرية» .

(المعجب في تلخيص أخبار المغرب. طبعة البيضاء 1978 ص 33 - 35)

نص رقم : 11 — الموقف السياسي للفقهاء : يحيى بن يحي الليثي

«أما بعد ، فقد بلغني كتابك عما سألت من أمانك ورجائك ، وقد بعثنا إليك بأمانك ، وأمرنا برد مالك عليك ، وتقدمنا إلى أصبغ إلحاق صاحبيك بك إذا وافق ذلك حسن عائدة عليك والله المستعين»

(الخشني : أخبار الفقهاء والمحدثين (مخطوط) ورقة 38 وجه)

نص رقم : 12 — الموقف السياسي للفقهاء : عيسى بن دينار

«كتاب من الحكم بن هشام لعيسى بن دينار أني أمنته على دمه وماله وشعره وبشره ، وأذنت له في اللحاق ببلده أوجبت أحب المقام من جميع كورنا وجعلت له بذلك عهد الله جل وعز ، وذمته وذمة النبيئين وذمة محمد صلى الله عليه وسلم وذمة الخلفاء رضي الله عنهم الا أتعقبه بمكروه ، ولاأقدم له في سوء ولا أوخر ما وفى واستقام وناصح ولم يحدث حدثا ينقص مافعلت له والله عز وجل على ذلك شهيد وبه وكيل» .

(الخشني : نفس المصدر ورقة 162 وجه)

نص رقم : 13 — دخول المجوس إشبيلية في سنة 220

فخرج المجوس في نحو ثمانين مركبا ، كأنما ملأت البحر طيرا جونا ، كما ملأت القلوب شجوا وشجونا . فحلوا بأشبونة ، ثم أقبلوا الى قادس ، الى شذونة ، ثم قدموا على إشبيلية ، فاحتلوا بها احتلالا ، ونازلوها نزالا ، الى أن دخلوها قسرا ، واستأصلوا أهلها قتلا وأسرا . فبقوا بها سبعة أيام ، يسقون أهلها كأس الحمام . واتصل الخبر بالأمير عبد الرحمن ؛ فقدم على الخيل عيسى بن شهيد الحاجب واتصل المسلمون به اتصال العين بالحاجب . وتوجه بالخيل عبد الله ابن كليب وابن رستم وغيرهما من القواد واحتل بالشرف . وكتب الى

عمال الكور في استنفار الناس فحلوا بقرطبة ، ونفر بهم نصر الفتى . وتوافت للمجوس مراكب على مراكب ، وجعلوا يقتلون الرجال ، ويسبون النساء ، ويأخذون الصبيان ، وذلك بطول ثلاثة عشر يوما . ذكر ذلك في «بهجة النفس» وفي كتاب «دور القلائد» سبعة أيام ، كما تقدم . وكانت بينهم وبين المسلمين ملاحم ثم نهضوا الى قبطيل ، فأقاموا بها ثلاثة أيام ، ودخلوا قورة على اثني عشر ميلا من اشبيلية ، فقتلوا من المسلمين عددا كثيرا ، ثم دخلوا الى طلياطة ، على ميلين من اشبيلية ، فنزلوها ليلا ، وظهرا بالغداة بموضع بالفخارين ، ثم مضوا بمراكبهم ، واعتركوا مع المسلمين ، فانهزم المسلمون وقتل منهم ما لايحصى ثم عادوا الى مراكبهم . ثم نهضوا الى شذونة ، ومنها الى قادس ، وذلك بعد أن وجه الأمير عبد الرحمن قواده ، فدافعهم ودافعوه ، ونصبت المجانيق عليهم ، وتوافت الأمداد من قرطبة اليهم . فانهزم المجوس وقتل منهم نحو من خمسمائة علج ، وأصيبت لهم أربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابن رستم بإحراقها وبيع ما فيها من الفيء . ثم كانت الوقعة عليهم بقرية طلياطة يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر من السنة ، قتل فيها منهم خلق كثير ، وأحرق من مراكبهم ثلاثون مركبا . وعلق من المجوس بإشبيلية عدد كثير ، ورفع منهم في جذوع النخل التي كانت بها ، وركب سائرهم مراكبهم ، وساروا الى ليلة ؛ ثم توجهوا منها الى الأشبونة فانقطع خبرهم .

وكان احتلالهم بإشبلية يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم من سنة 220 وكان بين دخولهم الى اشبيلية وخروج من بقي منهم وانقطاعهم اثنان وأربعون يوما ، فقتلهم الله وأبادهم ، وبدد عددهم وأعدادهم ، وقتل أميرهم نقمة من الله وعذابا ، وجزاء بما كسبوا وعقابا . ولما قتل الله أميرهم ، وأفنى عبيدهم ، وفتح فيهم ، خرجت الكتب الى الآفاق بخبرهم . وكتب الأمير عبد الرحمن الى من بطنجة من صنهاجة ، يعلمهم بما كان صنع الله في المجوس ، وبما أنزل فيهم من النقمة والهلكة ، وبعث اليهم برأس أميرهم وبمائتي رأس من أنجادهم.

(ابن عذاري :البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب .طبعة بيروت 1980 ص87-88)

II- نصوص اقتصادية - اجتماعية

نص رقم : 14 الملكية العقارية لبعض الفقهاء في مجريط

«قال أحمد : ففعلت ذلك ، فلما نزل بمجريط لحقته بها ، فاجتمع الناس عليه لقراءة العلم حتى شكى إلي ذلك . وقال : كنت خرجت وأنا أرجو أن أخلو في هذا الموضع للقرآن بأمر من هؤلاء فقلت له هذا أمر يأجرك الله فيه قال أحمد وكان مبتذلا متواضعا يحرث بيده ويحصد وينقل الزبل ويخدم في خدمته كلها . وكنا نقرأ عليه في فدادينه وأندره . وكان من أحفظ الناس للمدونة وأضبطهم لها .

(مؤلف مجهول : كتاب طبقات المالكية (مخطوط) ص 97)

نص رقم : 15 التملص من كتابة عقود ملكية الأرض

« . . . وظن [1] أن الوصية إليه خرجت فدخل عليه ، فلما جلس قال له بحدة أنني ابتعت جنانا من هذا وأحببت أن تعقد لي الوثيقة ، فقال له قاسم فأنت بعثت في لهذا . قال نعم فقال قاسم إنا لله وإنا إليه راجعون على مارجعنا إليه بالله الذي لا إله إلا هو وعلى المشي إلى مكة أو كيف حلف متى كتبت لك وثيقة أو لأحد من خلق الله حتى أموت ثم خرج فترك كتابة الوثائق فأخذته بإثر ذلك علة» .

(مؤلف مجهول : نفس المصدر : ص 103)

1- الإشارة هنا إلى الفقيه قاسم بن محمد بن قاسم الذي عاش في أواخر عصر الإمارة .

نص رقم : 16 — اقتصاد اشبيلية

«اشبيلية : بالكسر ثم السكون ، وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة : مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها تسمى حمص أيضا ، وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره ، وبها كان بنو عباد ، ولمقامهم بها خربت قرطبة وعملها متصل بعمل لبلة وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا . وكانت قديما فيمايزعم بعضهم قاعدة ملك الروم وبها كان كرسيهم الأعظم وأما الآن فهو بطليطلة واشبيلية قريبة من البحر يطل عليها جبل الشرف وهو جبل كثير الشجر والزيتون وسائر الفواكه ومما فاقت به على غيرها من نواحي الأندلس زراعة القطن فإنه يحمل منها إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب ، وهي على شاطئ نهر عظيم قريب في العظم من دجلة أو النيل ، تسير فيه المراكب المثقلة يقال له وادي الكبير ، وفي كورتها مدن وأقاليم تذكر في مواضعها ، ينسب إليها خلق كثير من أهل العلم منهم عبد الله ابن عمر بن الخطاب الإشبيلي وهو قاضيها . مات سنة 267 هـ» .

(ياقوت : معجم البلدان . طبعة بيروت (دون تاريخ) ج 1 ص :195)

نص رقم : 17 — اقتصاد طليطلة

«ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها ، وأنهار جارية مخترقة ، ودواليب دائرة ، وجنات يانعة وفواكه عديمة المثال ، لايحيط بها تكييف ولاتحصيل ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة تكتنفها وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل العظيم المعروف بالشارات وهو يأخذ من ظهر مدينة سالم إلى أن يأتي قرب مدينة قلمرية في آخر المغرب وفي هذا الجبل من البقر والغنم الشيء الكثير الذي يتجهز به الجلابون إلى سائر البلاد ولايوجد شيء من أغنامه وأبقاره مهزولا ، بل في نهاية من السمن ويضرب بها في ذلك المثل في جميع أقطار الأندلس

الإدريسي : القارة الافريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق. طبعة الجزائر 1983 ص 276 » .

نص رقم : 18 الصراع بين العرب والمولدين من خلال نازلة فقهية

«قال أحمد بن خالد دخلت عليه أعوده وهو مريض إذ أتاه رسول الوزراء فذكر علته وماهو فيه فعادت الرسل وقيل له لابد من المسير إلى الوزراء ولو حملت على الأعناق فمضى إليهم عن الأمير عبد الله بالخروج إلى جيان فاعتذر بعلته فلم يعذر وكان أهل جيان قد أخرجوا وقتلوا منهم فأمر بالخروج لامتحان خبرهم وسماع حججهم فخرج وهو بتلك الحال من العلة فأتى جيان فناظر القوم لما أخرجوا العرب وسفكوا دماءهم فلم تكن عندهم حجة غير أن قالوا إنهم كانوا يسعون بنا إلى العمال فانصرف إلى الوزراء وأعملهم أنهم لاحجة لهم فقالوا له قد حلت لنا أبا محمد حربهم فما تقول في ذلك فقال لهم قاسم ياهؤلاء إن كنتم تحاربون من خرج عنكم برأي أهل العلم أعلمناكم بما يجب وإن كنتم تحاربون على تدبير ملككم وإقامة سلطانكم فلا معنى لسؤالنا نحن عن هذا فأما رأينا نحن ومذهب العلماء وإجماعهم أن من حورب فمن وجبت حربه لشقه العصا وخروجه أن لايجهز على جريح ولايتبع مدبر ولايأخذ مال مسلم فإن حاربتموهم على هذه الشروط فذاك» .

(مجهول : كتاب طبقات المالكية (مخطوط) ص 104)

نص رقم : 19 ثورة عمر بن حفصون

«ثم ولي المنذر بن محمد يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين ومات يوم السبت في غزاة له على ببشتر لثلاث عشر بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين وهو ابن ست وأربعين سنة وكان أشد الناس شكيمة وأمضاهم عزيمة . ولما ولي

الملك بعث إليه أهل طليطلة بجبايتهم كاملة فردها عليهم وقال : استعينوا بها في حربكم فأنا سائر إليكم إن شاء الله . ثم غزا المارق المرتد عمر بن حفصون وهو بحصن قامرة فأحدق به وبخيله ورجله فلم يجد الفاسق منفذا ولا متنفسا فأعمل الحيلة ولاذ بالمكر والخديعة ، وأظهر الإنابة والإجابة وأن يكون من مستوطني قرطبة بأهله وولده ، وسأل إلحاق أولاده في الموالي فأجابه الأمير إلى كل ماسأل وكتب لهم الأمانات ، وقطعت لأولاده الثياب ، وخرزت لهم الخفاف ، ثم سأل مائة بغل يحمل عليها ماله ومتاعه إلى قرطبة ، فأمر الأمير بها وطلبت البغال ومضت إلى ببشتر وعليها عشرة من العرفاء ، وانحل العسكر عن الحصن بعض الانحلال وعكف القاضي وجماعة من الفقهاء على تمام الصلح فيما جسبوا فلما رأى الفاسق الفرصة انتهزها ففسق ليلا وخرج فلقي العرفاء بالبغال فقتلهم وأخذ البغال وعاد إلى سيرته الأولى . فعقد المنذر على نفسه عقدا أن لا أعطاه صلحا ولا عهدا إلا أن يلقي بيده وينزل على عهده وحكمه ثم غزاه الغزاة التي توفي فيها ، فأمر بالبنيان والسكنى عليه وأن يرد سوق قرطبة عليه فعاجله أجله عن ذلك» .

(ابن عبد ربه : كتاب العقد الفريد. طبعة القاهرة 1962 ج 4 ص 496 - 497)

نص رقم : 20 — حركة ابن القط

«أحمد بن معاوية بن محمد بن هشام بن معاوية بن الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية ، أبو القاسم المعروف بابن القط . ومحمد بن هشام جده هو المنبز بذلك وكان جميل الوجه فيه يقول ابن أيوب القرشي :

أعجـــوبة ماسـمعت قط * قالـوا : رشـأ والده قـط

قد قلدوك السيف ياسيدي * والقرط أولى بك والمرط

وكان أحمد هذا من أهل العناية بالعلم والصناعة والنجامة ومعرفة الهيئة . وكانت له حركة وفيه شراسة . وخرج في أيام الزمير عبد الله بن محمد أوان ارتجاج الفتنة بطلب الدولة ويظهر الحسبة والرغبة في الجهاد . إلا أنه كان يتكهن ويموّل .

واجتمع إليه خلق عظيم - يقال إنهم بلغوا بين خيل ورجل ستين ألفا أكثرهم من برابر الجوف والغرب ومن أهل طليطلة وطلبيرة ، قصد بهم سمورة وكتب إلى الطاغية ملك جليقية ومن معه كتابا مغلظا يدعوهم فيه إلى الإسلام وينذرهم بالصاعقة وأمر رسوله أن يستعجل منهم الجواب ، ولايتوقف عندهم ، وإن هم أبوا من محاربته أن يعود بالخبر إليه ونسخة كتابه ذلك مشهورة عند أهل الثغر لبلاغته فحمي الطاغية عند ذلك ونشب القتال فخذله رؤساء البربر ، وثبت هو فيمن بقي معه من أهل البصائر حتى قتل في اليوم الرابع واستؤصل أصحابه إلا قليلا ، وحز رأسه وجيئ به إلى الملك فنصبه على باب سمورة ، وعظمت المصيبة بكثرة من قتل من المسلمين وهذه الوقيعة تعرف عند أهل الثغر بيوم سمورة . وكانت سنة ثمان وثمانين ومائتين» .

(ابن الأبار : الحلة السراء . القاهرة 1963 ج 2 ص 368 - 370)

نص رقم : 21 الخطط الإدارية وأهمية العنصر الصقلبي

«عيسى بن شهيد ، مولى معاوية بن مروان بن الحكم . قال : كان عيسى هذا منقطعا إلى الأمير عبد الرحمن بعهد والده الأمير الحكم مؤملا له ، فلما أفضى الأمر إليه أزلفه به ، وقدمه في علِيّة خاصته ، وصرفه في عَلي مراتبها ، فولاه خطة الخيل ، ثم استوزره ، وولاه النظر في المظالم وتنفيذ الأحكام على طبقات أهل المملكة ، ثم استحجبه مكان سفيان بن عبد ربه ، واستحضه دون أصحابه . وكان أهلا لإيثاره إذ كان من أعيان رجال الموالي في الدولة ، وهم متوافرون ، ومن أشهرهم بالحلم والوقار والحصافة والعلم والمعرفة والحزم والجزالة وقد قاد

بالصوائف ، فأحمدت سياسته وكانت له في التدبير آراء صائبة ، وفي الحروب مقاوم كريمة و تهيأت له على العدو وقائع مثخنة .

وكان نصر الخصي خليفة الأمير عبد الرحمن الغالب عليه من بين سائر أكابر خدمه المظاهر لحظيته طروب الغالبة عليه من بين نسائه قد اشتمل على قصر الأمير عبد الرحمن ومن فيه ، وشرك في تدبير سلطانه وهو شاحن لحاجبه عيسى عامل في إقصائه ، فتسنى له ذلك عندما اعتل الأمير علته الطويلة التي حجبه فيها نصر ، وأنفذ عليه أمورا منكرة منها صرفه لعيسى هذا عن الحجابة ، وذلك بأن أخرج الأمر عن مولاه بصرف عيسى عن الحجابة وإقراره على خطة الوزارة وتقليد عبد الرحمن بن رستم الحجابة مكانة» .

(ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل الأندلس. طبعة القاهرة 1971 . القطعة الخاصة بعبد الرحمن الأوسط ص 166)

نص رقم : 22 مظاهر من خطة القضاء والحياة الاجتماعية (ملابس، أطعمة ...)

«وأما سعيد بن سليمان الأندلسي فإنه ولاه قضاء قرطبة أمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم ، أحسبه في سنة أربع وثلاثين ومائتين - والشك مني - فلم يزل قاضيه إلى أن مات الأمير عبد الرحمن سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وولى الأمر بعده ابنه الأمير محمد ابن عبد الرحمن ، فأقره على القضاء وعمل له نحو سنتين إلى أن مات بقرطبة ، وهو على قضائه . ولاأعلم له عقبا .

وذكر عن أحمد بن عبد الله بن أبي خالد أن الأمير عبد الرحمن اختاره لجميل الثناء عليه ، وأرسل فيه يستدعيه للقضاء ، فجلس للحكم في المسجد ، وعليه جُبةُ صوف بيضاء ، وفوق رأسه قَلَنْسُوَة بيضاء من فضل جُبته ، فلما أن نظر إليه الوكلاء الذين يخاصمون عن

الناس عند القضاة ازْدَرَوْهُ واسْتَغْبَوْهُ ، وطلبوا الإنذار فيه ، فجاءوا في مغيبه عن المسجد بقفة مملوءة من قشور البلوط ، ووضعوها تحت الحصير الذي كان يجلس فوقه فلما افترشه عند استواء جلوسه أقض عليه وتوحش من صوت احتكاكه ، فتحول عنه ، ونظر إلى القشور ، فأنكر مكانه ، وجلس على ملل بذلك ، وذكر له أن الوكلاء فعلوا ذلك وصح عنده ماقيل له فيهم.

فلما أتوه من بعد ذلك قال لهم : يامعشر الخصماء ، عيَّرتُمُوني بأنّي بَلُّوطي ، وذلك ما لاخفاء به ! أشهد على نفسي أني بلوطي : عود والله صليب لاتفلون فيه . ثم حلف لهم بأثر كلامه هذا أن لايخاصموا عنده سنة ، فكاد أن يورثهم الفقر ...».

(ابن حيان : المقتبس من أبناء أهل الأندلس . القطعة الخاصة بعصر عبد الرحمن الأوسط ص 189 طبعة القاهرة 1971)

نص رقم : 23 المجاعة بالأندلس عي عهد عبد الرحمن الأوسط

«وقال ابن هشام الشبينسي : نالت أهل الأندلس مجاعة شديدة صدر أيام الأمير عبد الرحمن سنة سبع ومائتين وكان سببها انتشار الجراد بالأرض ولحسه الغلات وتردده بالجهات ، فنالت الناس مجاعة عظيمة كفى حدها الأمير بإطعام الضعفاء والمساكين من أهل قرطبة فيهم باسم أيوب العابد المستجاب بعد أن تصفح وجوه الناس حوله فلم تقع عينه عليه ، فنادى باسمه مستحلفا له بالله أن يبرز إليه فلما أكثر من الإرجاف به ، برز ودنا منه ، فاجتهد يحيى في الدعاء وأيوب يؤمن وينادي ربه فسقي الناس ليومهم وغاب أيوب فلم يظهر» .

(ابن حيان : نفس المصدر ص 225)

نص رقم : 24 سيل بالأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط سنة 235 هـ

«وفيها ، كان سيل عظيم بجزيرة الأندلس حمل وادي شيل ، وخرب قوسين من حنايا قنطرة استجة ، وخرب الأسداد والأرحاء ، وذهب السيل بست عشرة قرية من قرى إشبيلية على النهر الأعظم ، وحمل وادي تاجه فأذهب ثمان عشرة قرية، وصار عرضه ثلاثين ميلا» .

(ابن عذاري : البيان المغرب طبعة بيروت 1980 ج 2 ص 89)

نص رقم : 25 ظاهرة ادعاء النبوة

«وفي سنة 237 ، قام رجل من المعلمين بشرق الأندلس ، فادعى النبوءة ، وتأول القرآن على غير تأويله ، فاتبعه جماعة من الغوغاء ، وقام معه خلق كثير . وكان من بعض شرائعه النهي عن قص الشعر ، وتقليم الأظافر ويقول : لا تغيير لخلق الله فبعث إليه يحيى بن خالد ، فأتى به فلما دخل عليه كان أول ماخاطبه به أن دعاه إلى اتباعه والأخذ بما شرع ، فشاور فيه أهل العلم ، فأشاروابأن يستتاب ، فإن تاب وإلا قُتل فقال كيف أتوب من الحق الصحيح . فأمر بصلبه فلما رفع في الخشبة قال : أتقلتلون رجلا أن يقول ربي الله فصلبه وكتب إلى الأمير بخبره» .

(ابن عذاري : نفس المصدر ص 90)

نص رقم : 26 خـطـة الشـرطـة

«إبراهيم بن حسين بن خالد من أهل قرطبة يكنى أباه إسحاق وهو ابن عم عبد الله بن محمد بن مرتنيل . كان حافظا للفقه ، وولي أحكام الشرطة للأمير محمد بن عبد الرحمن رحمه

الله وله رحلة إلى المشرق لقي فيها علي بن سعيد وعبد الملك بن هشام صاحب المشاهد ومطرف بن عبد الله صاحب مالك بن أنس وله كتاب مؤلف في تفسير القرآن روي عنه وتوفي في شهر رمضان سنة تسع وأربعين ومائتين . قاله أحمد » .

(ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس . طبعة القاهرة القسم الأول ص 8)

نص رقم : 27 الدية المفروضة على القاتل وظاهرة الصنائع

قصة الكناني مع هشام بن عبد الرحمن - رحمه الله

كان قبل خلافته يقعد في علية مطلة على النهر ، ينظر منها الى الربض ، وتقع عينه على من يخطر ، فنظر يوما في الهاجرة الى رجل من بني كنانة ، وكان من صنائعه ، مقبلا من باديته بجيان ، وكان أخوه سليمان واليا عليها ، فدعا فتى له وقال له : «أرى الكناني صنيعنا مقبلا في هذه الظهيرة ، وما أحسب ذلك إلا لخطب أقلقه من أبي أيوب أخي . فإذا وصلك ، فأدخله على كما هو » ففعل الفتى ماأمره وكانت مع هشام جارية له . فلما دنا الكناني ، رفع سترا كان أمامه ، فدخلت الجارية خلفه ، ثم قال له ، بعد أن سلم عليه : «يا كناني ، لا أحسبك إلاّ قد دهمك أمر ! » فقال له الكناني : « قتل رجل من بني كنانة رجلا خطاء ، فحملت الدية على العاقلة ، فأخذت بنو كنانة عامة ، وحيف علي من بينهم خاصة ، لما عرف أبو أيوب مكاني منك . فعذت بك من ظلامتي ! » فقال له : « يا كناني ! ليفرج روعك وليسكن جأشك لا جرم قد تحمل هشام عنك وعن قومك جميع الدية ! » ثم مد يده الى خلف الستر ، فأخرج عقدا كان على الجارية ، ثمنه ثلاثة آلاف دينار ، فقال له : «خُذ هذا العقد ، فأد من ثمنه عنك وعن قومك ، وتوسع في الباقي! » فقال الكناني : « ياسيدي ! إنه لم آتك مستجديا ولاضاق لي مال عن أداء ما حملته ، ولا كني أتيتك مستجيرا بك لما أصبت بالعدوان والظلم ، فأحببت أن تظهر على ماعز نصرك ! » قال له : «فما وجه نصرك ؟ »

قال له : «أن يكتب الأمير - أصلحه الله ! - الى أبي أيوب في الإمساك عن أخذي بما لم يجب علي ، وأن يحملني محمل عامة أهلي ! » فقال له هشام : « خذ العقد لأهلك ولنفسك ، الى أن ييسر الله فيما ذهبت اليه من أمرك ! » . ثم أمر هشام بإسراج دابته من فوره ، وركب الى أبيه الأمير عبد الرحمن . فلما مثل بين يديه ، قال له : « رجل من بني كنانة ، هو لي صنيعة ، عدا عليه أبو أيوب بجيان في دية حملت على العاقلة ! » قال الأمير : « فما تحب في أمره ؟ » قال : « الكتب اليه بالكف عنه ، وأن لايؤخذ بغير ما لزمه ! » فقال الأمير : « أو خير من ذلك ! يؤدي الدية عنه وعن قومه من بيت المال ، إذ هو منك بهذه المنزلة، وإذ أنت له بهذه العناية ! » فأكثر هشام الشكر لوالده ، ثم أمر الإمام بأداء الدية من بين المال ، وبالكتب الى أبي أيوب بترك التعرض للكناني . ولما حان توديع الكناني لهشام ، قال له : «ياسيدي ، إني قد بلغت فوق الأمنية ، وجاوزت أقصى غاية العز والنصرة ! وهذا العقد النفيس قد أغنى الله عنه : » فقال له هشام « ياكناني ، إني لا سبيل الى رد شيء قد خرج عنا ، وخذه مباركا لك فيه » .

وهشام هو الذي أكمل سقائف المسجد الجامع بقرطبة ، ورفع منارته القديمة ، وبنى الميضاة العجيبة ، وعقدمن الجسر ماكان تثلم بالسيل - رحمه الله ! ».

(ابن عذاري : البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب. بيروت 1980 ص 67 - 68)

نص رقم 28 إقطاع الأراضي لبعض العناصر الأموية القادمة من المشرق

«زهير بن مالك البلوي من أهل قرطبة يكنى أبا كنانة . كان فقيها على مذهب الأوزاعي على ماكان عليه أهل الأندلس قبل دخول بني أمية رحمهم الله . وذكر ابن حارث أن عبد الملك بن حبيب كان يعذل أبا كنانة على انحرافه عن مذهب أهل المدينة وتمسكه برأي الأوزاعي فكان يقول له : حسدتني إذا انفردت بالأوزاعية دون أهل البلد . وكان زهير بن مالك

مضطربا في السكنى بين باجة وفحص البلوط إذ كان لجده عدي بن خذيمة إقطاع من قبل عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله لفحص البلوط وهي تنسب إليه وولده يعرفون : بني أبي الأفلح . توفي زهير بن مالك رحمه الله في صدر أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن رحمه الله من كتاب ابن حارث بخطه» . .

(ابن الفرضي : نفس المصدر ص 153)

نص رقم : 29 نازلة حول تحول الأحرار إلى عبيد وبيعهم في الأسواق إبان عصر الإمارة الأخير

« وفي مسائل ابن زرب في ذلك في عبد بيد رجل ممن كان له ملكا وجعل الإثبات على السيد وقال : قد افتيت بهذا فيما بيع في بلاد الغش إذ كان الغالب فيه بيع الأحرار وبذلك كان شيوخ بلدنا يفتون فيما بيع ببلد ابن حفصون كانوا يكلفون إقام البينة على صحة ابتياعه بأن المملوك كان ملكا لبائعه . وقد ذكر ابن عتاب هذا من اتفاق الشيوخ على ذلك أنه كثر بيع الأحرار في فتنة ابن حفصون قال : فنزلت بابن عبد الرؤوف صاحب المظالم بقرطبة لعبد الله من ذلك مسألة ادعت مملوكة أنها حرة وأنها من يابرة فوقفت أياما ثم رجعت عن دعواها وقالت كذبت مملوكة فشاور في ذلك فقالت طائفة كل يسمع رجوعها كل بها قد استحقت حريتها بدعواها فليس لها أن تزور نفسها وقالت طائفة يسمع منها وتبقى مملوكة لسيدها قال وهو رأيي وبه أفتيت» .

(ابن سهل: نوازل الأحكام (مخطوط) ص 56)

القسم الثاني

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

عصر الخلافة

عصر الخلافة

يمثل عصر الخلافة بالأندلس ذروة الازدهار الحضاري بالغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط . ففضلا عن تحقيق وحدة الأندلس ، وترسيخ المركزية السياسية ، تمكنت الخلافة الأموية من دعم نفوذها في الحوض الغربي للبحر المتوسط وعبر شرايين التجارة العالمية نحو بلاد السودان جنوبا ، والبلاد الاروبية شمالا ، والجناح الشرقي لدار الاسلام . في حين أسفرت النهضة الصناعية الحرفية التي تحققت خلال هذا العصر ، وتعاظم النشاط التجاري ، وشيوع التداول النقدي عن حدوث نمو مديني يثير الانتباه . وعلى المستوى الاجتماعي أفضى انحلال الروابط القبلية والعشائرية والطائفية الى خلق شروط مجتمع أرقى واعادة صياغة العلاقات على أسس طبقية . وبالمثل ساهم التسامح الديني والمذهبي في توفير المناخ المناسب لنهضة ثقافية نموذجية . اغلب المؤشرات اذا تصب في اتجاه ابراز عصر الخلافة باعتباره مرحلة متميزة في سياق التاريخ الاندلسي . ويمتد هذا العصر منذ اعلان الخلافة بقرطبة من طرف عبد الرحمن الناصر سنة (316 هـ/ 928م) الى حين اتفاق الجماعة على الغائها سنة (422 هـ 1031/ م) قرابة قرن من الزمن .

نجح عبد الرحمن الناصر منذ اعتلاءه سدة الحكم سنة (300 هـ/ 912م) في القضاء على التمزق السياسي الذي كاد أن يعصف بالامارة الأموية ، كما أفلح في تعطيل دور الجند المنتزي بالكور واعادة بسط سلطة قرطبة على أقاليم الاندلس وثغورها . لتدعيم هذه المنجزات وضمان استمرارية المركزية السياسية ، عمدت الخلافة الى تقوية جيش الحضرة المركزي الذي احتضن اعدادا هامة من الصقالبة ، وتغليب الارتزاق في الديوان كاسلوب للتعامل مع الجند بدل اقطاع الارض .

كما طالت الاصلاحات الجهاز الاداري الذي اختلف عن سابقه حجما وطبيعة. وبواسطة

قرارات العزل والمصادرة التي كثيرا ما مست رجالات الدولة والوزراء والكتاب نجحت الخلافة الاموية في ترويض الخطط الادارية التي فقدت تدريجا سلطاتها التقريرية لتصبح مجرد أدوات طيعة في يد الخلفاء . على غرار العلاقة بالجند ، أصبح العطاء النقدي والمرتبات الشهرية أساس التعامل مع هذه الاجهزة المستجدة . بالموازاة لذلك اندرجت سياسة الخلافة على فصل المهام العسكرية عن المهام الادارية والجبائية .

في ظل هذا المناخ ، لم يعد بمقدور القيادات العسكرية والمتنفذين في خطط الدولة تزعم حركات التمرد والانتزاء الاقليمي التي طالما اقلقت مضاجع أمراء بني آمية خلال العصر السابق .

ولتدعيم نفوذها في العالم الخارجي ، لم تتوان الخلافة الاموية عن ارسال الحملات العسكرية الى بلاد المغرب فيما عرف بالصراع الأموي - الفاطمي - للهيمنة على شمال افريقيا . وغدا انفاذ الصوائف والسرايا عنصرا ثابتا في سياسة قرطبة تجاه ممالك الشمال المسيحية . لم يكن الاسطول الحربي أقل حزما ، فلقد انطلقت الغارات على سواحل بلاد الفرنجة والمناطق المخالفة حتى غدا الحوض الغربي للبحر المتوسط منطقة نفوذ أموي بلا منازع . وتحقيقا للمزيد من النفوذ ، عمدت الخلافة الاموية الى ربط العلاقات الدبلوماسية ، ليس مع البلدان الكبرى كبيزنطة وامبراطورية الفرنجة فحسب ، بل ومع عدد من الممالك والامارات الصغيرة التي أوفدت سفاراتها الى قرطبة طلبا للصلح والالفة . هكذا تبوأت الاندلس في ظل نظام الخلافة مكانة الصدارة على الصعيد العالمي .

وخلال هذا العصر ، شهدت الاندلس تطورات هامة مست الاساليب والتقنيات الفلاحية حتى اشتهر الاندلسيون بكونهم أحكم الناس لاسباب الفلاحة . بلغ الانتاج الفلاحي من الضخامة ، والمساحات المزروعة والمسقية من الشساعة أن قيل ان الدولة الأموية بركت وسط المرعى . وعلى عكس ما ساد العصر السابق من حالات الاغتصاب والتملك الغير الشرعي

للارض ، والاحتكام للقوة والغلبة ، لم تدخر الخلافة الاموية وسعا في ردع مختلف أشكال التجاوزات ، وفرض احترام الجميع للتشريعات الفقهية المنظمة لوضعية الارض القانونية . ان تعطيل دور الجند والقوى المتنفذة بالاقاليم ساهم في تحرير الفلاحين من الالتزامات السابقة ، وغدوا ملزمين فقط بالواجبات الشرعية تجاه بيت المال من خراج وجزية وزكاة فضلا عن المغارم والمكوس التي صدرت بشأنها مرارا قرارات التخفيف رفقا بالرعية .

كنتيجة للازدهار الاقتصادي الشامل ، بلغ النمو الحضري ذروته . تجلى ذلك في اتساع مختلف المدن الاندلسية القائمة حجما وكثافة ونشاطا ، ،أصبحت قرطبة بأرباضها التي نيفت عن واحد وعشرين ربضا ، وبضخامة ساكنتها ، حاضرة عظمى قلما يوجد لها نظير . كما أسست مدن جديدة مثل الزهراء والزاهرة وتألقت المرية التي بلغت شهرة ميناءها الآفاق البعيدة . احتضنت هذه الحواضر من الدروب الحرفية والاسواق التجارية والفنادق ومصاري الكراء والحمامات والمطاعم ومختلف أنواع الخدمات ما يفصح عن حدوث نهضة تجارية وصناعية نموذجية . ساهمت عملية اصلاح الطرق التي باشرتها الخلافة الاموية وشق مسالك جديدة واقامة الجسور واستصلاح ماتهدم من قناطر ، في ارساء بنية تحتية تجارية متينة ، مركزها قرطبة وشرايينها تغطي مجموع البلاد ، لتمتد آفاقها عبر الموانئ فيما وراء البحار الى أقصى هوامش العالم . وتنشيطا للمبادلات لم تتوقف دور الضرب طوال عصر الخلافة عن اصدار الدراهم الفضية والدنانير الذهبية والتي اشتهرت بجودتها وحسن عيارها حتى غدت نموذجا للسك لدى العديد من الممالك الاسلامية والمسيحية .

على المستوى الاجتماعي ، تميز عصر الخلافة بالاندماج العميق الذي حدث فيما بين مختلف العناصر الاثنية والطائفية (العرب ، البربر ، المستعربون ، المولدون ، اليهود ، الصقالبة) فتشكلت على اثر ذلك معالم الهوية الاندلسية واتضحت . في حين أصبحت الصراعات القبلية وحركات الاستخفاف المستعربية وتمردات المولدين من ذكريات الماضي ، لتحل محلها صراعات ذات مضامين طبقية (عامة - خاصة) ومذهبية (الحركة المسرية) معبرة

عن تحولات عميقة في أسس المجتمع الاندلسي . مما ساعد على ذلك ، فضلاً عن العوامل الاقتصادية وتراجع أهمية النسب والروابط العشائرية ، مناخ التسامح والتفتح الديني والمذهبي والعرقي الذي عمل الخليفتين الناصر والمستنصر كل ما في وسعهما لترسيخه .

على الصعيد الفكري ، تجلت هذه السياسة في عدة مظاهر ، أبرزها اسناد خطط ذات أهمية كبرى في الدولة للمعتزلة الذين نعموا بعطف وتقريب الخلفاء رغم سيادة السنة . كما سمح لبقية المذاهب الفقهية بالمشاركة في الحياة الدينية والسياسية رغم كون المالكية مذهبا رسميا للدولة . لذلك تمكنت أندلس الخلافة من الاسهام بفعالية في اثراء الفكر العربي – الاسلامي ، وأصبحت قرطبة بمكتباتها الشهيرة ومثقفيها ومجالسها العلمية منارا للاشعاع الثقافي والحضاري .

بوفاة الحكم المستنصر سنة (366 هـ/ 976 م) بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الخلافة الاموية . فلقد تمكن محمد بن أبي عامر الملقب بالمنصور في خضم الصراعات التي انفجرت بين أجنحة الارستقراطية الحاكمة من اقصاء القوى المتكالبة على الحكم ، والحجر على الخليفة هشام الثاني المؤيد لفرض الدكتاتورية العامرية ، التي بقدر ما عملت على تدعيم سطوة الدولة على الصعيدين الداخلي والخارجي ، بقدر ما ساهمت في توفير عوامل الانتقاض والثورة . تجلى ذلك في محاربة الفكر المستنير ومطاردة الفلاسفة والمعتزلة واتلاف ذخائر مكتبة الحكم المستنصر الذائعة الصيت . كما فتحت أبواب الاندلس للقبائل البربرية العدوية التي اكتسحت الدواوين العسكرية وتطلعت الى المزيد من النفوذ والسطوة .

لم يتمكن عبد الملك المظفر ولا خلفه الحاجب عبد الرحمن شنجول توقيف عجلة التردي والانكفاء ، مما عجل بانفجار الاوضاع بقرطبة على اثر ثورة العامة واسقاط الحجابة العامرية سنة (399 هـ/ 1009 م) وتعتبر هذه الثورة التي حركها الباعة والحرفيون احدى أكبر وأهم الثورات المدينية في العصور الوسطى . تداخلت الصراعات بعدئذ تارة بين الخاصة والعامة ،

وتارة بين هؤلاء جميعا والجند البربري ، وطورا فيما بين الطغمات العسكرية ، وهي الفترة التي اصطلح على تسميتهابعصر الفتنة. وبعد عجز الجميع عن ايجاد حل لهذه الازمة ويأسهم من امكانية التعايش في ظل نظام الخلافة اتفق الرأي بقرطبة علي الغائه سنة (422 هـ/ 1031 م) وكان ذلك ايذانا ببداية عصر الطوائف .

ولعل في هذا التقديم المقتضب ما يساعد على تكوين تصور عام عن خصائص عصر الخلافة الذي ترتبط به النصوص التي سنوردها ضمن هذا القسم .

نصوص سياسية

نص رقم : 1 — قرار اعلان الخلافة الاموية بالاندلس

«بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فأنا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله ما البسه ، للذي فضلنا الله به ، وأظهر اثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على ايدينا ادراكه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الافاق من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، واعلن من رجاء العالمين بنا ، واعاد من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي النعمة والانعام بما انعم به ، واهل الفضل بما تفضل علينا فيه ، وقد رأينا ان تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا ووردها علينا بذلك ، اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لايستحقه . وعلمنا ان التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك حق اضعناه ، واسم ثابت اسقطناه . فامر الخطيب بموضعك ان يقول به ، واجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذي الحجة سنة 316 »

(ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب : تحقيق كولان / بروفنسال : دار الثقافة : بيروت 1980 : ج 2 : 198 - 199).

نص رقم 2 : قيام الحجابة العامرية وسياسة المنصور للجند والرعية

«وقد كان المنصور بن ابي عامر ، على دقة شأنه قبل ، ولانه لم يكن من أهل بيت المملكة ، فيستحقها عن الآباء ، ولا كانت به قدرة على الدنيا ، قد حصل على عظائم بدهائه ومخرقته على العامة ، مع ما هيأت السعادة له وكان اقوى الاسباب في سلطانه . وقد ذكر بعض اهل العلم بالتنجيم انه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان اعظم الاسباب في سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، واظهاره الانخضاع له في جميع ما يأتي ويذر الى طاعته واقامة أوده، وتوليه الحجابة والوزارة ، واخماله لاهل الدولة الحكمية ، وتقصيهم بالقتل ، متأولا في ذلك أن دولته تصفو به ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وايثار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى اتسق له ما أمل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى - ولو أن أحدا اشتهر ببعض ما اتى هو به دون تعلق بسبب أو اظهار طاعة ، لكان قتل من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة - الى أن ورث الامر ابنه من بعده ، فسار المنصور باحسن سيرة وأحمد طريقة ، وكانت له في بلاد العدو فتكات نال الاسلام في ايامه عزا ما كان بالاندلس مثله ، وأذل ما كان النصارى عليه .

وتوقع المنصور من اجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، اذ كانوا صنفا واحدا ، وتألبهم على معصية أمره ، متى امر بما أحبوا أو كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتا متفرقة : ان هم احد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه الى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء .فاستجلب من رؤساء البربر وحماتها وأنجادها من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن ابي عامر على العدو وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعترك الوغاء . وكان أدهاهم رأيا

وأبعدهم همة زاوي بن زيري عمنا ، وبعده حبوس بن ماكسن ابن اخيه - رضي الله عنهما - فاليهما كان الرأي والمشورة في الامر ، والحكم على من دونهم من الاجناد .

فرتب ابن ابي عامر الرتب ، وأظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشرك ، وحض المسلمين عامة على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الاندلس ، وشكوا اليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالغزوات عن عمارة ارضهم ، ولم يكن القوم اهل حرب ، فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة ارضهم ، ويعطوا من أموالهم كل عام ما يقيم به من الاجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . فضرب عليهم الاقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها عليهم وفرض بينهم مالا يرتزق منه الجيش . فبقيت تلك الاقطاع عليهم الى أن عمت الاندلس عدة الثوار واتبعوهم على تلك الاثار . ودأبه في ذلك انما كان على ما وصفناه .

وكان الناس مؤتمنين على مايعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام والمواشي ، يقسمون ذلك على المساكين بكل بلدة ، ولم يكن الوالي يقرب من ذلك الا ما يقيم به الجيش والدولة التي هي قيام العالم ، ولولا حماية السلاطين للرعية ، وعز دولهم وذبهم عنهم ، ما طاب لهم عيش ولا عز بهم قرار . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأول الخير . ولم تزل الاندلس قديما وحديثا عامرة بالعلماء والفقهاء واهل الدين ، واليهم كانت الامور مصروفة ، الا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده من الاخذ من واحد ودفعه لآخر ، لينخل بذلك عسكره ويتخير أفضله ... فيه للمسلمين كفاية وعدة ، اذ كانت الاموال التي يعطونها من غير اصولهم ، ولا اكتسابهم ، انما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من مظلمة أو قضية وكل حكم يرجع للسنة ، فانما كان لقاضي البلدة .

فلما تمت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا امام لهم ، ثار كل قائد بمدينة وتحصن في حصنه بعد تقدمة النظر لنفسه ، واتخاذه العساكر ، وادخاره الاموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمح كل واحد في الآخر» .

(مذكرات الامير عبد الله بن بلقين المسماة بكتاب التبيان تحقيق ليفي بروفنسال: دار المعارف : القاهرة :1955 : 15 - 18) .

نص رقم : 3 وصية المنصور بن ابي عامر لخلفه عبد الملك المظفر

«وحدث من سمعه يوصي ابنه عبد الملك في مرضه الذي مات فيه فقال له : يابني لست تجد أنصح لك وأشفق عليك مني فلا تعدين وصيتي فقد جردت لك رأيي ورؤيتي على حين اجتماع من ذهني فاجعلها مثالا بين عينيك وقد وطأت لك مهاد الدولة وعدلت لك طبقات أوليائها وعايرت لك بين دخل المملكة وخرجها واستكثرت لك من أطعمتها وعددها وخلفت لك جباية تزيد على مايقويك بجيشك وبنفقتك فلا تطلق يدك في الانفاق ولا تقضي لظلمة العمال فيختل أمرك سريعا فكل سرف راجع الى اختلال لا محالة فاقصد في أمرك واستثبت فيما يرفع اليك أهل البطالة والرعية فقد استقصيت لك تقويمها وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن الى لين الجنبة ، وصاحب القصر قد علمت مذهبه وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ولا ترفع عنها سوء الظن والنميمة وعاجل بها من خفته على أقل تهمتمع قيامك بحق صاحب القصر على أتم وجه فليس لك ولا لأوليائك شيء يقيم الحنث في يمين بيعته الا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، وأما الانفراد في التدبير دونه مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه فانني أرجو اني واياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة ، والمال المخزون عند والدتك هو ذخيرة مملكتك وعدة الحاجة تنزل بك فاقمه مقام الجارحة من جوارحك التي لاتبذلها الا عند الشدة تخاف منها على سائر جسدك ، وأخوك عبد الرحمن قد صيرت له في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي وأخرجته عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساغا بينكما في خلاف وصيتي فيسرع ذلك في نقض أمري ويجلب الفاقرة الى دولتي وقد كفيتك الحيرة فيه فأكفيني الحيف منك عليه وكذلك سائر أهلك فيما صنعت بهم بحسب ما قررت به خلاصي من مال الله الذي بيدك وخلافتك بعدي أحرى مما صدقته اليهم فلا تضيع أمر جميعهم والحظهم بعيني فانك أبوهم بعدي فخرج ذكورهم باستخدامك والحق اناثهم جنابك جبر الله جماعتهم وأحسن الخلافة عليهم وان انقادت اليك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل وان اعتاصت عليك فلا تلقين بيدك القاء

الامة ولاتبطر بك وباصحابك النعمة والسلامة فتنسوا آمالكم في بطون بني امية وشيعهم بقرطبة فإن قاومت من توثب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم وان خفت الضعف فانتبذ بخاصتك وغلمانك الى بعض المعاقل التي حصنتها لك واختبر غدك ان نكرت يومك واياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طاوعتك بنانك فاني أعرف ذنبي اليهم» .

(لسان الدين ابن الخطيب : اعمال الاعلام
تحقيق ليفي بروفنسال : رباط الفتح 1934: 93-95:)

نص رقم : 4

تدبير الثورة على سلطة حكم بن القزاز العامية والغاء الخلافة الأموية

«قال ابو مروان بن حيان : وضعف امر هشام ، لسوء تدبير وزيره حكم القزاز ، وبلغ من الظلم والجور ان كسدت اسواق قرطبة ولم تسلك سبلها ، واسر الناس الوثوب على وزيره هذا ، فسقط اليه ذرو من ذلك ، فانزعج وخاف على نفسه ، ورحل الى قصر السلطان باهله ورعيله ، وسكنه مدة مختلطا به ، واخذ في مداراة الناس ، وكف عن الكلف ، وكتب الى الجماعة كتابا طويلا وضح فيه العذر في شان تلك الكلف ، وحمل هشاما على الازورار عن بعض مشيخة الوزراء الاقادم وقصد منهم كبيرهم ابا الحزم بن جهور ، وطلب تعثيره فلم يستطعه ، وامله يطمح لازالته ، ليتمكن بالناس بعده ، والله يستدرجه ، الى ان امكن الله من هذا الجائر حكم ، وذلك انه لما خرق في تدبير سلطانه ، واعتسف الامور ، واساء السيرة والتدبير ، واستفسد الى الكافة ، وكان من مغرس دني ، ومهنة مرذولة ، فاثره الخليفة ، وسما به الى المحل الذي لايستحقه ، وتبوأ حجره ، ورضي منه في حال الشيخوخة والحنكة ، بأهون ما رضيه احداث الامراء ، ففوض اليه وعول عليه ، ثم قعد ينظر بعينيه ، وينطق بلسانه ، والزم جلة الامراء طاعة الفسكل ، وهو رجل من دخلاء الجند ما فيه شيء من خصال الرجال الا ثقافة الركوب الساذج ، دون غناء ولا شجاعة ، منتقلا من الحياكة الى الذروة العليا من تقلد الوزارة ، فبدر لاول وقته بعداوة الاحرار ، وتنقص الفضلاء والميل على اولي البيوتات بالاذى والمطالبات ، وصير صنائعه في اضدادهم من التوابع والحاكة ، فكانوا وزراءه وانصاره ، فنالوا معه المنازل النبيلة ، واكلوا الطعوم الرقيقة ، اكثرهم صبية اغمار عيارون من غطه ، ممن دينه حث الكاس ، وتنضيد الآس ، وطبخ الترفاس ، والتفكه باعراض الناس. ان ضج مظلوم سخروا به وحاكوه ، فالناس منهم ومن صاحبهم في بلاء عظيم وتجهد مقعد مقيم. وعندما سولت لهذا الحائك – حكم – نفسه الخبيثة الاستيلاء على البلد ، واجتثات مشيخة الوزراء ، بما زين له جاري القدر ، وسوء النظر ، مقت جنده البلديين لعلمه انهم صنائع الوزراء قبله ، وراى انهم لا يصلحون له ، فأخر اعطياتهم فاضطربوا ، فلما لاح له حركة الهمس والقول

فيه ، بنى القصبة المطلة على ساحة المدينة ، استظهارا على ماخافه من تحرك العامة ، فهتك بها عندهم ستره ، ودبروا القيام عليه ، وهو على ذلك مصر في غيه ، عم في لجاجته آمن مكر خالقه ، عهر الخلوات ، صريع الشهوات ، لهج بالفكاهات ، كلف بالبطالات ، كثير الكذب والايمان ، شنيع الفجور والعدوان ، وصاحبه امير المؤمنين القائم بامر الامة عالم بذلك راض من وزيره هذا الحائك باقامة وظائفه ليومه وشهره ... وارسل الله على وزيره ودولته طائفة من فتاك الجند عرفت مراد الوزراء ووجوه الجند في ازالة هذا الخائن الحائك ، فدبروا قتله تدبيرا محمكا ، خفي عن حكم مع كثرة عيونه ، وكان الناظم لهذه الجماعة ابن عم الخليفة هشام واسمه امية بن عبد العزيز العراقي ، من ابناء الناصر ، فتى شديد التهور والجهالة ، فانتظم في سلك هذه الجماعة ، وسولت له نفسه نيل الخلافة ، واطعمه في ذلك سخرية به ، بعض من نظم التدبير من المشيخة ، علما بأنه لا ينفذ في الوثوب على هشام الا من ينازعه لبوسه ، ويساهمه قرباه ، فتهيأ امر القوم في ستر وخفية ، فرصدوا حكم الوزير في طريقه من القصر ، وقاموا عليه فقتلوه وصرعوه ركن الجامع الشرقي في شديد الوحل والقذر ، فغسلوه في قصرية سماك بسوق الحوت ، ونصبوه تحت العلية التي كان اعدها لدفاعه ، فصار عبرة للمتأملين ... واجتمع الناس الى زعيمهم ابي الحزم بن جهور عظيم القربة ، فهتف على الناس بكف الايدي ، وسمع هشام الهتف باسم الوزراء و قد الغي اسمه ، فأيس عند ذلك من نفسه ، وكع فلم يطلع بعد وجهه ، ولا تكلم بلفظ ، ودفع الوزراء بباب القصر النهابة والعامة ، فانتهوا ، وامية العراقي في كل ذلك مقيم بداخل القصر في جمهور النهابة ، قد تبوأ مجلس البائس هشام ، واستوى على فراشه ، ورتب وجوه النهابة مراتبهم في الحفوف به ، والنفاذ في امور الامارة ، لايشك في حصولها له ، محرضا على هشام مجتهدا في اتلافه . ثم اجتمع الوزراء واتفقوا على خلع هشام ، وهتفوا بابطال الخلافة جملة لعدم الشاكلة ، ونفوا عن المروانية والناصرية السداد ، ورجعت قرطبة الى تدبير الوزراء ، وترك الدعاء لاحد».

(ابن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة :
تحقيق احسان عباس : الدار العربية للكتاب : ليبيا –
تونس 1981 : القسم 3 : المجلد 1 : 522 - 528)

نص رقم 5: الدواوين الادارية وخطط الحكم بالاندلس

«وأما قاعدة الوزارة بالاندلس فانها كانت في مدة بني امية مشتركة في جماعة يعينهم صاحب الدولة للاعانة والمشاورة ، ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصا لمكان النائب المعروف بالوزير فيسميه بالحاجب ، وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة في البيوت المعلومة لذلك ، الى ان كانت ملوك الطوائف ، فكان الملك منهم – لمعظم اسم الحاجب في الدولة المروانية ، وانه كان نائبا عن خليفتهم – يسمى الحاجب ، ويرى ان هذه السمة اعظم ما تنوفس فيه وظفر به ، وهي موجودة في امداح شعرائهم وتواريخهم . وصار اسم الوزارة عام لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين واكثر ما يكون فاضلا في علم الادب ، وقد لا يكون كذلك ، بل عالما بامور الملك خاصة .

واما الكتابة فهي على ضربين : اعلاهما : كاتب الرسائل ، وله حظ في القلوب والعيون عند اهل الاندلس ، واشرف اسمائه الكاتب ، وبهذه السمة يخططه من يعظمه في رسالة . واهل الاندلس كثيرو الانتقاد عل صاحب هذه السمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة ، فان كان ناقصا عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه من تسلط الالسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه . والكاتب الاخر كاتب الزمام ، هكذا يعرفون كاتب الجهبذة ، ولا يكون بالاندلس وبر العدوة لا نصرانيا ولا يهوديا البتة ، اذ هذا الشغل نبيه يحتاج الى صاحبه عظماء الناس ووجوههم .

وصاحب الاشغال الخراجية في الاندلس اعظم من الوزير ، واكثر اتباعا واصحابا وأجدى منفعة ، فاليه تميل الاعناق ، ونحوه تمد الاكف ، والاعمال مضبوطة بالشهود والنظار ، ومع هذا إن تأثلت حالته واغتر بكثرة البناء والاكتساب نكب وصودر ، وهذا راجع الى تقلب الاحوال وكيفية السلطان .

وأما خطة القضاء بالاندلس فهي اعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بامور الدين ، وكون السلطان لو توجه عليه حكم حضر بين يدي القاضي ، هذا وضعها في زمان بني امية ، ومن سلك مسلكهم ، ولا سبيل ان يتسمى بهذه السمة الا من هو وال للحكم الشرعي في مدينة جليلة ، وإن كانت صغيرة فلا يطلق على حاكمها الا مسدد ، خاصة ، وقاضي القضاة يقال له : قاضي القضاة وقاضي الجماعة .

واما خطة الشرطة بالاندلس فانها مضبوطة الى الان ، معروفة بهذه السمة ، ويعرف صاحبها في ألسن العامة بصاحب المدينة وصاحب الليل ، واذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن يجب عليه دون استئذان السلطان ، وذلك قليل ، ولا يكون الا في حضرة السلطان الاعظم ، وهو الذي يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع اليه ، وقد صارت تلك عادة تقرر عليها رضا القاضي ، وكان خطة القاضي اوقر واتقى عندهم من ذلك .

واما خطة الاحتساب فانها عندهم موضوعة في اهل العلم والفطن ، وكان صاحبها قاض ، والعادة فيه أن يمشي بنفسه راكبا على الاسواق ، واعوانه معه ، وميزانه الذي يزن به الخبز في يد احد الاعوان ، لان الخبز عندهم معلوم الاوزان للربح من الدرهم رغيف على وزن معلوم ، وكذلك للثمن ، وفي ذلك من المصلحة ان يرسل المبتاع الصبي الصغير او الجارية الرعناء فيستويان فيما يأتيانه به من السوق مع الحاذق في معرفة الاوزان ، وكذلك اللحم تكون عليه ورقة بسعره ، ولا يجسر الجزار أن يبيع باكثر أو دون ما حد له المحتسب في الورقة ولا يكاد تخفى خيانته ، فان المحتسب يدس عليه صبيا او جارية يبتاع احدهما منه ، ثم يختبر الوزن المحتسب ، فان وجد نقصا قاس على ذلك حاله مع الناس ، فلا تسأل عما يلقى ، وان كثر ذلك منه ولم يتب بعد الضرب والتجريس في الاسواق نفي من البلد .

ولهم في اوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس احكام الفقه ،

لأنها تدخل في جميع المبتاعات وتتفرع الى ما يطول ذكره .

واما خطة الطوائف بالليل وما يقابل من المغرب اصحاب ارباع في المشرق فانهم يعرفون في الاندلس بالدرابين ، لان بلاد الاندلس لها دروب باغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق بائت فيه ، له سراج معلق وكلب يسهر وسلاح معد ، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم ، واغيائهم في امور التلصص ، الى ان يظهروا على المباني المشيدة ، ويفتحوا الاغلاق الصعبة ، ويقتلوا صاحب الدار خوف ان يقر عليهم أو يطالبهم بعد ذلك ، ولا تكاد في الاندلس تخلو من سماع "دار فلان دخلت البارحة" و "فلان ذبحه اللصوص على فراشه" وهذا يرجع التكثير منه والتقليل الى شدة الوالي ولينه ، ومع افراطه في الشدة وكون سيفه يقطر دما فان ذلك لا يعدم ، وقد آل الحال عندهم الى أن قتلوا على عنقود سرقه شخص من كرم وما اشبه ذلك ، فلم ينته اللصوص» .

المقري : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب : تحقيق احسان عباس : دار صادر بيروت : 1968 : ج 1 : 216 - 219

نص رقم : 6 ظهير ولاية محمد بن السليم قضاء الجماعة

«بسم اله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب أمر به أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله محمد بن اسحاق بن السليم ، ولاه به خطة القضاء ، واختاره للحكم بين جميع المسلمين ، ورفعه الى أعلى المراتب عنده في تنفيذ الاحكام ، غير مطلق يده إلا بالحق ، ولسانه الا بالعدل ، ورسم له في كتابه رسوما بدأ فيه بامانة الله عز وجل اليه ، وجعل الله الشهيد بها عليه ، أمره بتقوى الله العظيم الذي يعلم خائنة الاعين وماتخفي الصدور ، وان يجعل كتاب الله أمامه ينظر فيه نظر المتفكر المعتبر ، فانه عهد الله الذي بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم – فاحل حلاله ، وحرم حرامه ، وأمضي أحكامه وفارق الامة . على انهم لن يضلوا ما اتبعوه ، فهو العروة الوثقى ، والطريقة المثلى والنهج المنير ، ودين الله القويم .

وأمره امير المؤنين ان يقتدي بسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – التي بها عملت الائمة ، وعليها اتفقت الامة ، فالحق معروف ، والباطل مكشوف ، وبينهما مشتبهات فيها يحمد التوقف ، وعندها يشكر التثبت ، ففي كتاب الله – تعالى اسمه – وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم – اصل الدين ، وفرعه ، ودليله ، وتأويله ، ومن يرد الله به خيرا يوفقه للاقتداء بهما ، والاقتباس منهما .

وأمره ان يصلح سريرته فيها ، يصلح الله علانيته ، وان يبرأ من الهوى ، فانه مضلة عن طريق الحق ، وأن يجعل الناس في نفسه سواء ، اذا جلس للحكم بينهم ، حتى لايطمع فيه الشريف ، ولا ييأس منه الضعيف .

وأمره ان يعتبر امره وماقلده ، فيعلم انه راكب طريقا منتهاها الى الجنة أو الى النار : ليس عن احدهما مصرف ، ولا بينهما موقف ، فحق لمن اراد النجاة ان يستكثر من الحسنات ، ويمنع دينه ممن أراد أن يؤنسه في الشبهات ، ويعلم انه حاكم في ظاهره محكوم عليه في

باطنه ، تطوى كل يوم صحيفته على ما أودعها ، حتى ينظر فيها غدا بين يدي الله – عز وجهه – يوم «توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» فمن حاسب نفسه في الدنيا ، كان ايسر حسابا في الآخرة .

وأمره ان يتحفظ في حين وقوع الشهادات عنده ، فلا يقضي بين المسلمين منها الا بما اقامه به التحقيق على السنة العدول ، ذوي القبول ، وان استراب في شهادة احدهم وقتا ما ، ان يبحث عنها ، فان ثبت انه ارتشى ، أو شهد بالهوى ، فعليه ان يسقط شهادته ، ويخل عدالته ، تنكيلا له ، وتشديدا لمن خلفه ، وان يحمل على الناس معاريض الوكلاء على الخصومات ، ويطرح اهل اللدد الظاهر منهم ، ولا يحمل فضل حجاجهم عمن لايقوم بهم.

وأمره ان يحترس باموال اليتامى ، ولا يولي عليهم الا اهل العفاف عنها وحسن النظر فيها ، وان يجدد الكشف والامتحان عن اموال الناس والأحباس واليتامى ، ويمنع من قبالتها الا على وجوهها مما لابد منه من التنفيذ فيها ، وطلب الزيادة عند ذوي الرغبة في قبالتها .
وأمره ان يختبر كاتبه وحاجبه وخدمته ، ويتفقد عليهم احوالهم اذا غابوا عن بصره .

وأمره ان لا يعجل في احكامه ، فمع العجل لا يؤمن الزلل ، وان يرفع الى امير المؤمنين ما اشكل عليه الفصل فيه ، ليصدر اليه من رأيه ما يعتمد عليه ، ان شاء الله ، والله يسأل امير المؤمنين التوفيق بمنه وفضله . وكتب يوم الاثنين للنصف من شعبان سنة 353 » .

(النباهي : تاريخ قضاة الاندلس : دار الافاق الجديدة : بيروت 1980 : 75 - 76)

نص رقم 7 انتقاض العوام بقرطبة ضد قاضي الجماعة

«قال الحسن بن محمد في كتابه المسمى ب "الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال" : وامتحن ابن زرب ، على فضله ، مع عوام الناس بقرطبة ، في باب ابتطائهم للسقي ، فدعا بهم في المحل الذي توالى عليهم باعظم ما امتحن به قاض قبله ، وذلك أنه برز بهم عشرة مرة: حضر معهم المنصور بن ابي عامر استسقاء واحدا ، ولبسوه ثياب بيض ، وعلى رأسه أقرف وشي أغبر ، على شكل أهل المصايب بالاندلس قديما ، قد أبدى الخشوع ، وهو باك ، ودموعه تسيل على لحيته ، فتقدم الى جناح المحراب عن يمين الامام ، وقد كان فرش له هناك حصير ليصلي عليه ، فدفعه برجله ، وامر بنزعه ، وجلس على الارض ، وشهد الاستسقاء ، فلما تم ، امر القاضي بتفريق صدقات كثيرة من مال وطعام عن خليفته وعن نفسه . ولهجت العامة بذم القاضي ، واستبطاء الرحمة بوسيلته ، واطلقوا السنتهم بالطعن في دينه ، ووصفه بالركون الى ابن ابي عامر ، وعابوه بالقبول لهداياه ، والاستساغة لعطيته ، فلما تكرر بالاستسقاء وابطأ الغيث ، هاجت العامة في بعض بروزه الى الربض ، وثارت فاجتمعوا اليه بعد اتمامه الصلاة ، يعطعطون ، وينكتونه بمعابه ، ويقولون له : «بئس الوسيلة انت الى الله تعالى والشفيع في ارسال الرحمة ، اذ اصبحت امام الدين ، وقيم الشريعة ثم لا تتورع عن قبول ما يرسل به اليك من الهدية التي لاتليق الا بالجبابرة» وأبدوا في ذلك ، وأعادوا ، وهموا أن يبسطوا اليه ايديهم ويمتهنوه ، حتى لاذ منهم بالتربة المنسوبة الى السيدة مرجان ، بمقبرة الربض بقرطبة ، وكانت حصينة الابواب ، منيعة الاسوار ، فصار فيها ، واغلق ابوابها عليه ، واحتصن بها منهم ، وارسل الى صاحب المدينة يستغيثه ، فارسل الفرسان والاشراط الى ناحيته ، فكشفوا عنه من كان قد تلفف به من العامة ، وفرقوهم ، وانصرف الى داره سالما ، وقد لقي منهم اذى شديدا . فلما عاود البروز الى الاستسقاء بعد ذلك ، ارسل المنصور اليه خيلا كثيرة من عنده ، أحاطت باكناف المصلى عند تكامل الناس فيه قبل الصلاة ، استظهر بهم على شغب العامة ، فلم يجسر أحد من السفهاء على النطق بكلمة شر ...»

(النباهي : المصدر السابق : 78 - 79)

نص رقم 8 : السفارة في شأن الصلح بيـن عبد الرحمن الناصر والـخليفة الفاطمي

«فلما انتهى ذلك الى الاموي الخاسر خاف الوقعة به فدس رسولا من قبله كتب كتبا على لسان بعض رجاله الى بعض رجال امير المؤمنين في الموادعة والصلح وكف الحرب ويذكر ما يتوقع في ذلك من سفك دماء المسلمين واشتغال بعضهم ببعض عن غزو المشركين . وجاء الرسول بالكتاب وأدى بلسانه عن الخائن ما لم يؤده الكتاب ، من طلب الصلح والالفة وكف الحرب والفتنة ، وذكر ذلك لامير المؤمنين (صلع) شفاها ...

... واما ما تخوفه من الحرب والفتنة وسفك الدماء ، فما ظهر له منا ما يتخوف منه ذلك ، وما نحن بمن يؤمنه منه ، لكنه بغى علينا من بغى من اهل عمله فانتصرنا بالله فنصرنا الله وبلغنا فوق آمالنا ، فقام وقعد وابرق وارعد ووالى علينا المشركين الذين رأى الان ان اشتغالنا به واشتغاله بنا داع الى ترك جهادهم وان ذلك نقص ووكف على الاسلام . فهلا رأى ذلك اذ بعث بامواله وهداياه ورسوله اليهم واستنصر علينا بهم ؟ ! فيكف رأى الله عز وجل فعل بهم وبجميعهم ؟ ! ألم يصرف الجمعين مغلوبين خائبين خاسرين ؟ ونحن بعد فما رأى منا اليه حركة . فما هذا القلق وهذه العجلة ؟.

وأما ما دعى اليه من السلم والكف والموادعة والصلح وهو يزعم انه أمير المؤمنين - كما يتسمى دون من سلف من آبائه - وامام الامة بدعواه وانتحاله ، ونحن نقول انا اهل ذلك دونه ودون سواه ، ونرى ان فرض الله علينا محاربة من انتحل ذلك دوننا وادعاه ، مع ما بين اسلافنا واسلافه ومن مضى من القديم والحديث من آبائنا وآبائه من العداوة القديمة الاصلية والبغضة في الاسلام والجاهلية ، وما اعتقدوه لنا في ذلك في الاسلام وطالبونا به من قديم الايام من لعن رسول الله عليه وآله آبائهم وقتل من قتله على الشرك والكفر بالله منهم ، و طلبهم بثارهم ودمائهم ، وطلبنا نحن اياهم بمن قتلوه منا كذلك في سلطانهم وايام تغلبهم ،

فكيف بالصلح الذي ذكره بعد هذا النبأ الجليل خطره ؟ يأبى لنا ذلك قول الله عز وجل : "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله وسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم اؤلئك كتب في قلوبهم الايمان" . ما انا بالمداهن في دين الله ولا بالراكن بالمودة الى اعداء الله ولا بالمخادع في امر من امور الله .

ارجع بجوابي هذا اليه فما له عندي سواه ، وما لي من الامر شيء ان الامر كله لله "عليه توكلت واليه انيب" . فان حركني الله اليه وقذف في قلبي حربه وغزوه فلا أشك ان الله عز وجل أراد قطع دابره واستئصال شافته وتطهير الارض من رجسه وحسم ايامه ومدته ، والا يقذف ذلك في قلبي ويصرف الى من سواه وجهي فلامر هو بالغه فيه واملاء هو محتج به عليه ومدة سبقت في علمه له . قال الله عز وجل : «ولا يحسبن الذين كفروا ان ما نملي لهم خير لانفسهم انما نملي لهم ليزدادوا اثما» فيلنتظر احد الامرين وليتوقع وجها من الوجهين : اما هلاكا يعجل اصطلامه واما املاء من الله يوفر آثامه . ونحن ننتظر من الله عز وجل احدى الحسنيين ونرجو منه لنا خير الامرين : اما نصر من الله يعجله لنا عليه فيشفي قلوبنا وقلوب المؤمنين به ، واما ان يملي له على ما هو عليه من معاصيه ومساوئه ومخازيه ، ففي ذلك سرور من رأى عدوه عليه . فقد كان يقال : حسبك درك امل من عدوك ان تراه عاملا بمعاصي الله ، وذلك ان المعاصي تعجل الدمار او تولج عما قليل عذاب النار .

وصرف الرسول وامر الذي ورد عليه بالكتاب ان يجيب عن كتابه اليه جوابا غليظا ويواعده فيه ، ففعل وانصرف الرسول بالجواب والكتاب» .

(القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات : تحقيق الحبيب الفقي / ابراهيم شبوح / محمد اليعلاوي : منشورات الجامعة التونسية 1978 : 167 - 169)

نص رقم 9 عبد الرحمن الناصر يعقد السلم لصاحب برشلونة وعظمائها

«وفيها (328 هـ) عقد حسداي بن اسحاق الاسرائيلي ، الكاتب ، السلم مع شنيير بن غيفريد الافرنجي ، صاحب برشلونة وأعمالها ، على الشروط التي ارتضاها الناصر لدين الله وحدها ، وأشخص حسداي الى برشلونة لتقريرها مع شنيير ، صاحبها ، واتفق أن جاء الاسطول المتحرك من مرسى المرية ، عقب رجب من هذه السنة ، مع ابراهيم بن عبد الرحمن البجاني ، على مدينة برشلونة ، يوم الجمعة لعشر خلون من شوال ، فعرفهم حسداي بما عقده من سلم شنيير ، صاحبها ، واستكفهم عن حربه ، فرحل الاسطول عن مرسى برشلونة من يومه .

ودعا حسداي عظماء برشلونة الى طاعة الناصر لدين الله وسلمه ، فاجابه جماعة من ملوكهم ، منهم انجه ، أحد عظمائهم ، ودار قراره بارض نابل ، فارسل الى الحضرة وفدا شاهدوا عنه ، وسأل تأمين تجار أرضه على الاختلاف الى الاندلس ، فاجيب الى ذلك ، ونفذ العهد الى نصر بن أحمد القائد بفرخشنيط ، والى عمال الجزائر الشرقية والمراسي الساحلية بارض الاندلس بتأمين جميع المختلفين من بلد أنجه ، وغيره ممن سولم من هذه الامة ، على دمائهم وأموالهم وكل ما تضمنته سفنهم ، يتصرفون في تجارتهم حيث شاؤوا ، فوردت مراكبهم الى الاندلس من هذا الوقت ، وعظم الانتفاع بهم . وسلكت مرركلة بنت بريل ، المملكة على قومها من الافرنج ، سبيل انجه هذا في سلم الناصر لدين الله ، فارسلت اليه برناط الاسرائيلي ، ثقتها ، بغرائب من طرائف بلدها المستحسنة ، فقبلها الناصر لدين الله منها ، وكافأها بانفس منها ، وأكرم رسلها .

ثم قدم حسداي بن اسحاق الاسرائيلي على الناصر لدين الله من برشلونة في عقب ذي القعدة منها ، بعد ان احكم ذلك كله ، ومعه غدمار رسول شنيير ، على الشروط التي اشترطها عليه ، واولها ان يتخلى عن امداد جميع النصرانية الذين ليسوا في سلم الناصر لدين الله ، ومؤالفتهم ، ويلزم طاعته ، ويطلب رضاه ، ويحل الصهر الذي بينه وبين غرسية بن شانجه ،

صاحب بنبلونة ، وقد كان شنيير زوجه بنته ، ففسخ نكاحها طاعة للناصر لدين الله ، وتضمن ان يدخل مع نفسه كل من يستنيم اليه من هذه المواضع التي تجاوزه ، فانفذ الناصر لدين الله لشنيير ذلك كله ، وانفذ عهوده به الى عمال السواحل وقواد الاسطول ، وامر بتحامي اعماله ومسالمة اهل بلاده ، وعقد الناصر لدين اله امان شنيير ذلك كله هذا وسلمه ، وسلم سنفريد واولادهما معا لعامين كاملين . واشهد على ذلك كله في مجلس حفله يوم الاربعاء لاثنتي عشرة خلت من ذي الحجة منها » .

(ابن حيان : المقتبس : نشر شالميتا وأخرون : المعهد الاسباني العربي للثقافة : مدريد 1979 : 454 - 455)

نص رقم 10

كتاب الخليفة عبد الرحمن الناصر في التنديد بمذهب ابن مسرة واتباعه

«بسم الله الرحمن الرحيم . اما بعد ، فان الله ، تعالى جده وعز ذكره ، جعل الاسلام افضل الاديان ، فاظهره واعلاه ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضي منهم سواه ، فقال في محكم تنزيله «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلم يقبل منه» الآية ، وقضي في محتوم امره ونفاذ حكمه ان ينسخ به الديانات ويختم برسالته الرسالات ، فبعث محمدا خاتم النبيين واكرم الاكرمين واعز الخلائق على رب العالمين بان كتب الصلاة والسلام عليه في عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وارسله بأفضل دين سماه حنيفا الى خير امة اختارها وسطا ، كما قال ، عز من قائل ، اذ عرفنا فضل ما هدانا اليه من الدين وكرمنا به على سائر الامم "كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر" الآية ، فله جل جلاله وتقدست اسماؤه ، الشكر على خصائص هذه الفضيلة والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى فاحسن الهداية ، وانار فابان الحجة وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ونظم زمام الامة وجمع وجوه السعادة العاجلة والنجاة الآجلة في تأليف الجماعة واجتناب نزعات الفرقة ، حيث يقول عز وجهه لنبيه ، المخصوص بهداه ، صلى اله عليه وسلم ، تحيفا به وبعباده ، ورأفة بسطها على خير خلقه ، واعلاما لهم بتواصل الدين من قبله لانبيائه ، وكراهة لاختلافهم بعد رسوله – صلعم – "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه " الآية ، فخوف وحذر ونهى عن تفرق الكلمة ونبه على البعد ، . . . ونفى الله الخبائث عنها ، وفضلها على سائر البلدان ، واستقر فيها الدين كهيئته يوم اكملها الله لعباده ، ولما استوسعت الطاعة وشملت النعمتوعم الاقطار بعدل امير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغي خيرا ولا تأمر رشدا ، من طغام السواد ومن ضعف آرائهم ومن خشونة الاوغاد ... كتبا لم

يعرفونها ، ضلت فيها حلومهم وقصرت عنها علومهم ، وظنوا انهم فهموا ما جهلوا وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان واحل عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ولقوم آمنيـن لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن واستيأسوا وآيسوا من روح الله " ولا يياس من روح الله الا القوم الكافرون" وأكثروا الجدال في آيات الله . وحرفوا التاول في حدث رسول الله – صلعم – ، فبرئت منهم الذمة بقوله ، تقدست اسماؤه ، "الم تر الى الذين يجادلون في آيات الله انى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما ارسلنا به رسلنا فسوف يعلمون" الى قوله : "اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون" ، فهذا ابلغ الوعيد وأفظع النكال لِـ "من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير" ثاني عطفه :"ليضل عن سبيل الله " الى قوله :" عذاب الحريق " ، ثم تجاوزوا في البهتان ، وسدوا على انفسهم ابواب الغفران ، فاكذبوا التوبة وابطلوا الشفاعة ونالوا محكم التنزيل وغامض متشابه التاويل بتقدير عقولهم ، "فاما الذين في قلوبهم زيغ فيبتغون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله الى قوله : " ومايذكر الا اولوا الالباب " فصاروا بجهل الاثار وسوء حمل الاخبار الى القدح في الحديث وترك نهج السبيل ، فاساؤوا الفهم عن العلوم ، واقدموا بمكروه القول في السلف الصالح ، واسبدلوا على نقله الحديث ، ووضعوا من الكتب اوضعها وتابعوا شهواتهم فيها ، وتتابعوا فيما أوبقوهم وورطهم وراوا التخضع وحشية يحثها لازم الضلالة وداعية الهلكة والشذوذ عن مذهب الجماعة من غير نظر نافذ في دين ولا رسوخ في علم ، حتى لتركوا رد السلام على المسلمين ، وهي التحية التي نسخت تحية الجاهليين ، خلافا على ادب الله تعالى وقوله ، جل جلاله "واذا حييتم بتحية فحيوا باحسن منها أوردوها " وقالوا بالاعتزال عن العامة وشدوا ازره فآثروه وانكشفوا فنكرهم "الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه" الآية ، فلحوا في جهالتهم وتاهوا في غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم حقدا على الامة الحنيفة ، واعتقادا لبغضتها ، واستحلالا لدمائها ، وتذرعا الى انتهاك حرمها وسبي ذراريها ، "قد بدت البغضاء من افواههم ، وما تخفي صدورهم اكبر " الآية ، لولا ان سيف امير المؤمنين من ورائهم ونظره محيط بهم ، ولما صار غيهم فاشيا وجهلهم شائعا ، اتصل

بامير المؤمنين من قدحهم في الديانة وصدوفهم عن الجادة ماشغل نفسه واقصر مضجعه واسهر ليله ، اغلظ امير المؤمنين في الاخذ فوق ايديهم ، وأوعز ايعازا شديدا وانذر انذارا فظيعا وعهد عهدا مؤكدا شافيا كافيا ، نظر به لوجهه ، تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد وامر بقراءة كتابه هذا على المنبر الاعظم بحضرته ، ليقرع قلب الجاهل ، ويفت كيد المستهتر الحائر ، وينقض عزم المعاند المعاجل ، ويضطر الغواة الى الانابة الصحيحة التي تقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الاذهان سرائرهم ، فيكون عليهم الشهيد ، "وانهم آيتهم عذاب غير مردود" ، ورأى أمير المؤمنين ان يشمل بنظره اقطار كوره ويرسله في بدوه وحضره ، وان ينفذ عهوده اليك والى سائر قواده وجميع عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ولايحرم القاصي باعم الداني من تطهير هذا الرجز وتمحيصه وكفاية المسلمين شبهة وفتنة ، فلم تحل الديار ولاتعفت الاثار ولااستحق البلاء على قوم ولا اهلك الله امة من الامم الا بمثل ما انكشف به هذه الطبقة الخبيثة من التبديل للسنة والاعتداء في القرآن العظيم واحاديث الرسول الامين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك في الجامع قبلك وانشره في اسماع رعيتك ، وتتبع هذه الطائفة بجميع اعمالك ، وابثث فيهم عيونك ، وطاب فيهم غورهم جهدك فمن تجلي بطبقتهم ان انتسب اليهم وقامت عليه البينات بذلك عندك فاكتب الى امير المؤمنين باسمائهم ومواضعهم واسماء الشهود عليهم ونصوص شهاداتهم ليعهد باستجلابهم الى باب سدته ، لينكلوا بحضرته فيذهب غيظ نفسه ويشفى حر صدره ، واياك ان تداهن في اهل الريبة وتتخطاهم الى ذوي السلامة والاحوال الصالحة ، فان فرطت في احد الامرين او كليهما فقد برئ الله منك واحل دمك ، فاعلمه واعتلمه ان شاء الله تعالى» .

(ابن حيان : المصدر السابق : 26 - 29)

نص رقم 11 صك اتهام ابي الخير رأس الشيعة بقرطبة بالزندقة والمروق

«شهد عند قاسم بن محمد صاحب أحكام الشرطة بقرطبة وقاضي كورة استجة وقبرة محمد بن عبد الله التجيبي انه سمع ابا الخير يسب اصحاب النبي (ص) ابا بكر وعمر وغيرهما وسمعه ايضا يقول ان علي بن ابي طالب كان احق بالنبوة من محمد النبي (ص) ويرى الخروج على الائمة رضي الله عنهم . وسمعه ايضا يقول ان الخمر حلال وانه اتاه الى السوق فقال له محمد بن عبد الله : ان السلطان ظل الله في الارض يأوي اليه كل مظلوم. وقال ابو الخير ما كان املي من الدنيا الا خمسة الاف فارس ادخل بهم الزهراء واقتل من بها واقوم فيها بدعوة ابي تميم وكذلك يكون . فقال له محمد بن عبد الله : ليس انت من الاسلام في شيء لان النبي (ص) قال : «من أظهر علينا السلاح فليس منا » ودفعه عن نفسه.

وشهد محمد بن ايوب بن سليمان بن ربيع انه سمع ابا الخير يقول : انما الناس كالعشب رطب ويابس ثم لاحساب عليهم ولا عقاب . فقال له محمد بن ايوب : اين قول الله عز وجل ؟ "فاذا من الأجداث الى ربهم ينسلون" ، وقوله تعالى : "فريق في الجنة وفريق في السعير" . فقال ابو الخير بعض القرآن خرافة وبعضه لا شيء وانما السيف يضم الناس الى الاقرار بهذا . وسمعه يطعن على ابي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ويطعن في خلافة أمير المؤمنين الحكم أعزه الله ويقول لو كانت تسعة اسياف لكنت العاشر ، وعد عليه شرب الخمر . فقال له ابو الخير : هو احل من الماء للشرب والطهور.

وشهد سعد بن سعيد اللخمي انه سمع ابا الخير يقول اما القرآن النصف الأول فلا بأس به ، واما النصف الثاني فخرافات لو شئت لقلت قرآنا خيرا منه اذ قال : "والعاديات ضبحا" هلا قال : "والسابحات سبحا" ؟ تعالى الله عما قال علوا كبيرا .وسمعه قبل ذلك يقول انه روى عن بعض الصالحين ان قال : لاتعبد الله رجاء ماعنده فتكون كالاجير الذي يخدم ليأخذ

ولا تعبده لخوف عقابه فتكون كالعبد السوء الذي لا يخدم الا عند خوف مولاه ولكن اعبده لما هو اهله ثم عطف فقال ماهو اهله مستهزئا به عز ذكره وتعالى جده .

وشهد حسان بن محمد انه سمع ابا الخير يقول : ا لخمر حلال في كتاب الله ويحتج بقوله تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا" فمن قال غير هذا فهو كاذب . ويعرفه تاركا للصلوات الخمس في المساجد ، وتاركا لحضور الجمعة وشاربا للخمر محللا لها . وسمعه ايضا يقول في الملائكة انهم بنات الله .

وشهد علي بن عبد الله الحجري انه سال ابا الخير عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها فقال : دعها فعليها لعنة الله لقد كانت من شدة احتراقها ، وافصح عن أقبح من هذا القول فيها ، ترقد رسول الله (ص) حتى يصلي صلاة الصبح في الضحى . واجتمع به في مقبرة متعة فقال له : شهدت علي ؟ قال نعم فقال له ابو الخير مستهينا بشهادته وشهادة من شهد عليه ، اسمع ما اشهدك به علي نفسي : اني ازني والوط واشرب الخمر واسمع العود ثم قال له وقفني على هذه الشهادة متى احببت فاني اخبرهم بهذا على نفسي كما اخبرتك .

وشهد أحمد بن سعيد بن بشر الاموي انه يعرف ابا الخير هذا من اهل الطعن على السنن واهلها قادحا فيها لايرى إمامة احد من ائمة المسلمين هازلا بكتاب الله عز وجل طاعنا فيه . وشهد سليمان بن منبه بن عبد الملك انه يعرف ابا الخير من اهل المروق والتهزي بالدين . وسمعه محمد بن عمر بن محمد بن عبدة في انصرافه من تشبيع خال له خرج الى الحج ولقيه ببلاط مغيث وساله من اين اقباله فاعلمه فقال ابو الخير : ما احمق الذين يتعبون ابدانهم ويخرقون ثيابهم ويقصدون حجارة صماء .

وشهد مسعود بن عمر بن خيار الانصاري انه سمع ابا الخير والناس يصلون وهو يقول بالعجمية يا لهؤلاء القوم يرفعون استاههم ويخفضون رؤوسهم . وقلت له سبحان الله ! فقال لي : يا ابا القاسم لا تكن من الغوغاء ، فلو ان غيرك سمعني لنشبت . وسمعه يتأول حديث

النبي (ص) في السواك يقول في هذا الحديث معنيان : احدهما ظاهروالاخر باطن . فاما الظاهر فهو سواك الفم والثاني فيما ستر الله يعني الفاحشة .

وشهد سليمان بن قاسم بن نعمان انه يعرف ابا الخير تاركا للصلوات الخمس في المساجد تاركا لحضور الجمعة شاربا للخمر محللا لها . وشهد محمد بن يحيى الحضرمي انه سمع ابا الخير يقول في النبي (ص) ان عليا كان احق بالنبوة منه وان محمدا غصبه اياها وان محاربة بني امية احق من محاربة الشرك .

وشهد عبد الله بن بشر القشيري انه سمع ابا الخير هذا يتكلم مع نصراني في لحم الخنزير ويسال النصراني ان يأتيه به ، فقال له وكيف تأكله ؟ فقال ابو الخير لست على دين محمد ولا اعتقده . وسمعه يسمي المسجد الجامع دار البقر ويحل الخمر . وشهد نجدة بن السطحي الاموي انه سمع ابا الخير هذا يسب الله تعالي بكلام كثير اعظم نجدة ان يتكلم به وسمعه يتكلم في الديانة وينقصها بكلام اعظم نجدة ان يتكلم به (...).

وشهد محمد بن احمد بن الخراز القروي انه يعرف ابا الخير هذا مستهزئا بديانة الاسلام وانه يزري على سلف هذه الامة وخلفهم . ويقول : ليس في جملة الصحابة الا ستة عليا وعمار والمقداد وانسيت الثلاثة انهم على ضلال وباطل ، وانهم ارتدوا وعادوا وكفارا .

وجميع من تبعهم من جملة المسلمين هم معهم على ضلال وباطل . ورأيت له كتابا جاوز فيه حدود الاسلام الى معاني التعطيل . وذاكرته ما بلغني عنه من ذلك واشباهه فاقر بجميعه ثم اظهر بعد ذلك النسك في اطمار صوف يطلب الصدقة ، ولم يمضي به عام او نحوه حتى اتصل بي عنه شرب الخمر والبهتان العظيم والنفقات وافعال الفساق ، فاجتمعت به في طريق فقلت له : ابا الخير ما هذا الذي انت فيه وبلغني عنك اين التوبة ؟ وما كنت تظهر من الزهد فقال : هذا ضلال ومحال واخبار المجانين . فقلت له : اين ما كنت تظهر من النسك والزهد والتوبة فقال : انما تُبت تقية وخوفا ، ولو امنت لناظرت على اكثر مما كنت قلت ولأقمت الحجة

في ذلك . فقلت : ليست هذه ديانة ولافعل من يؤمن ببعث ولا حساب فقال لي : هذه الاخبار الباردة وهذا المحال اخرجك من بلدك . فقلت له : اخرجني الهروب من الكفر وطلب السنن من اهل السنة . فقال لي ا لذين خرجت عنهم كانوا اهل الحق والسنة لا الذين انت معهم لان اولئك اهل البيت ولا ينجيك الفرار منهم ...

وشهد عبد الله بن محمد الاموي انه سمع ابا الخير يسب ابا بكر وعمر واصحابهما وعائشة ام المؤمنين رضي لله عنها ويرميها بالبهتان . ولما قدم عبد الله بن محمد هذا من المشرق ساله ابو الخير من اكثر بالمشرق العلوية او العثمانية او البكرية فقال له لقد ظهر الآن العلويون فقال له ابو الخير : هذا الحق كانك ترى الالوية خارجة من داري ...

وشهد يوسف بن سليمان بن داوود الاموي انه يعرف ابا الخير هذا وضع كتابا رد فيه على أهل السنة يلعنها في كتابه واقر عنده بالكتاب ... وشهد اصبغ بن عبد العزيز انه اجتمع بابي الخير هذا بسبتة فسمعه يقول بانكار الشفاعة وتخليد المذنبين من الموحدين في النار . وشهد عبد الله بن حزب الله السكسي انه يعرف ابا الخير هذا بشنترين وسمع رجلا استفتاه في جارية عنده رهينة ان كان يحل له وطؤها فقال له : وطؤها حلال فكذبته . وشهد احمد بن محمد بن حسان انه اجتمع بابي الخير هذا بمقبرة قريش فسمعه يقول : انا اعلم كيل البحار ووزن الجبال وعدد الذر ...

وشهد بن بخت انه سمع ابا الخير هذا في بعض المجالس وقد دارت بينهما مناظرة فقال له رشيد موضعه ومتجره فقال له ابو الخير : للسلطان اليكم سبيل ؟ فقال له رشيد بلى ، فقال له ابو الخير : انت ممن يقرأ القرآن فقال له بلى فقال له : الم تسمع الله تعالى يقول : "ولاتركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار" فرضيت بان تكون من اهل النار فرد عليه رشيد في ذلك بما استطاع من الرد ... وشهد خيار بن عبيد الله انه سمع ابا الخير يقول في سوق البزازين وقد تزاحم الناس ما يستحق هذا الخلق الا السيف . وشهد عبد الله بن عمر الاموي انه

سمع ابا الخير يحل الخمر وقال لقاسم بن محمد صاحب الشرطة واسحاق بن منذر بن السليم : تثبت في امر ابي الخير هذا فانه ابو الشر فاتق الله فيه وانا شريكك في ثوابه وان شئت ان تفردني بالثواب فافعل فاني اتولى صلبه بيدي واثمه في عنقي .

وكانت شهادة جميع الشهود في هذا الكتاب على عين ابي الخير وبمحضره . وعرفوه حين شهدوا عليه بما ذكر عنهم من شهادتهم في هذا الكتاب فقبل قاسم بن محمد صاحب الشرطة شهادة ثمانية عشر شاهدا من هؤلاء الشهود وأجازها لمعرفته بهم وعدالتهم وثبت بهم عنده ما شهدوا به من ذلك واستظهر بسائرهم وشاور من حضره من اهل العلم في بيت الوزارة بعهد امير المؤمنين الحكم اعزه الله ابن امير المؤمنين عبد الرحمن رحمه الله» .

(نوازل ابن سهل : مخطوط المكتبة العامة بالرباط : رقم 838 ق : 394 - 398)

نصوص اقتصادية -اجتماعية

نص رقم 12 قرطبة حاضرة الخلافة الاموية بالاندلس

«قال احمد الرازي الكاتب : قرطبة قاعدة الاندلس وام المدائن ، وقرار الخلافة ودار الملك ، تجبي اليها ثمرات كل جهة وخيرات كل ناحية ، واسطة من الكور ، وموفية على شاطئ النهر ، مشرفة رائقة مونقة ، نهرها ساكن في جريه ، لين في انصبابه ، بقبلتها بطاح سهلة ، وبجوفها الجبل المنيف المسمى بالعروس ، المغروس بالكروم والزيتون وسائر الاشجار وانواع الازهار .

اجمع اهل التاريخ ان دور قرطبة كلها ثلاثة وثلاثون الف ذراع ، وعدد ابوابها سبعة ، عدد ابراجها المنتظمة بدور السور من جوانبها الاربعة مائتان واثنان وسبعة ابراج ، وعدد ارباضها المحيطة من جميع نواحيها عشرون ربضا ، ويدور بجميع هذه الارباض الخندق المشهور لم تقتدر على مثله امة من الامم ، وهو المحيط بجميع ارباض قرطبة ومساكنها ، وذرع دوره من جهاته الاربع ثلاثة وعشرون ميلا .

قال ابن حيان : لم يتخذ في الاسلام فيما يعرف اعظم منه ، وكان يكسي كله من جميع نواحيها ايام الحرب سلاحا وعدة ورجالا ، وعدة المساجد بهذه الارباض مع المدينة العليا الف مسجد وثمانمائة مسجد وستة وثلاثون مسجدا ، وعدة الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام ونيف وهذا كله عند انتهاء كمالها ، وعدة دور الرعايا والسواد بها الواجب على اهلها المبيت في السور ايام الفتنة مائة الف دار وثلاثة عشر الف دار حاشا دور الوزراء واكابر الدولة ومن احرم بحرمة السلطان من السيدات والرواشد وخدم الحرمة والطباخات وحرم الفتيان ستة آلاف

وثلثمائة واربع عشرة امراة ، وعدة الفتيان فيه على اختلاف منازلهم وضروب أعمالهم وتصرفهم ثلاثة آلاف فتى وسبعة وثمانون وكان لهم في كل يوم من اللحم عشر الف رطل والرطل ستة وثلاثون اوقية ، يغدق عليهم من عشرة ارطال الى رطل واحد حاشا ضروب الطير والدجاج والحيتان .

قال ابن النظام في تاريخه : مما يدل على عظم قرطبة كان يدخلها على سائر طرقها ايام اكتمالها من جلائب الغنم في كل يوم ايام درور الجلائب بها – وهي معلومة – ما بين سبعين الف راس الى مائة ألف راس حاشا البقر ، وكان يباع فيها من انواع السمك المملوح وغيره في كل يوم على اختلاف اجناسه ايام جريانه بعشرين الف دينار قاسمية على اعتدال القيم» .

(ابن غالب : فرحة الانفس في تاريخ الاندلس : مجلة معهد المخطوطات العربية : المجلد الاول : ج 1 : القاهرة ص : 295 - 296)

نص رقم 13 بـــنـــــاء مدينة الزهراء

«قال مسلمة بن عبد الله المهندس الناظر في بنيانها رحمه الله : بدأ عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله بنيان المدينة الزهراء أول سنة خمس وعشرين وثلثمائة وتمادى في بنيانها الى حين وفاته رحمه الله في سنة خمسين وثلثمائة .

قال مسلمة بن عبد الله المذكور : وكان مبلغ ما ينفق فيها في كل يوم من الصخر المنحوت المحكم المعدل لوجه البناء ستة آلاف صخرة حاشا (المرتل) ، وكان يخدم بها في كل يوم ألف وأربعمائة بغل منها أربعمائة بغل زوامل السلطان المختصة به ، وألف من ذوات الاكرياء المعرضة للخدمة ، أجرة كل بغل منها في الشهر ثلاثة دنانير من الذهب الجعفري يجب لجميعها في كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكان عدة حذاق البناة بها في كل يوم ثلثمائة بناء ، وعدة حذاق النجارين مائتا نجار ، وعدة الاجراء في كل يوم خمسمائة أجير تتمة ألف عامل حاشا من كان يخرج فيها من أعلاج النصارى عبيده .

وكان يرد فيها من الجير خمسمائة حمل ومثله من الجبس قال : وجلب اليها الرخام من قرطاجنة وافريقية ومن تونس وغيرها ، وكانوا الذين يجلبونه وينتخبونه ثلاثة رجال ، وكان يصلهم على كل رخامة كبيرة أو صغيرة بعشرة دنانير قاسمية أجرة لهم سوى ما كان يلزمها من المؤن والتسفير ، وكان يصلهم على كل سارية بثمانية مثاقيل ذهبا . وعدة السواري بها عند انكمال أكثرها في مدته أربعة آلاف سارية منها ما جلب من افريقية وذلك ثلاثة عشر سارية ومنها ما جلب من بلاد الافرنج وذلك تسع عشرة سارية سوى الذي اهدى اليه ملك رومة وذلك أربعون سارية لم تعرف له قيمة ، وسائرها من مقاطع الاندلس المذكورة ، وأما الحوض المذهب الكبير المنصوب في بيت المنام فهو من جلب اليوناني من القسطنطينية مع ربيع الاسقف من بيت المقدس وأما الحوض الاخضر المشهور فهو من جلب أحمد بن كرم الشامي قالوا

باجمعهم انه لاقيمة له وأما اليتيمة المنصوبة في المجلس البديع فهي من تحف اليون صاحب القسطنطينية .

قال ابن حيان : مازلت اسمع الشيوخ المحصلين ان مصانع المدينة الزهراء وقصورها اشتملت على خمسة عشر الف زوج باب ومئين زائدة ، منها المصفح بالحديد المبيض بالقصدير ، ومنها المصفح بالنحاس الاصفر ، ومنها الخشب المنقوش والمرصع ، فهي على الجملة من اهول ما بناه الانسان واجله خطرا واعظمه شأنا .

ذكر بعض اهل الخدمة في الزهراء انه حصل النفقة فيها كل عام ثلثمائة الف دينار عيونا ذهبا وانه حصل جميع الانفاق في مدة بنائها فكان مبلغه خمسة عشر بيت مال ، وذكر بعض المحصلين أن مبلغ النفقة من الدراهم القاسمية بالكيل القرطبي ثمانون مديا وستة اقفزة وزائد اكيال ، وهذا المدي القرطبي زنته ثمانية قناطير والستة اقفزة هي نصف مدي ، زنته اربعة قناطير .

وكان الناصر لدين الله قد قسم جبايته اثلاثا : ثلث موقوف عل الجند ، وثلث مدخر في خزائنه للنوائب ، وثلث للنفقة في الزهراء ».

(ابن غالب : المصدر السابق : ص 300 - 301)

نص رقم 14 اتخاذ دار الضرب لسك العملة بقرطبة

«وفيها [316] أمر الناصر لدين الله باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها احمد بن حدير يوم الثلاثاء لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان منها ، فقام الضرب فيها من لدن هذا التأريخ من خالص الذهب والفضة ، وصحح في ذلك ابن حدير وأجاد الاحتراس من أهل الدلسة ، فاضحت دنانيره ودراهمه عيارا محضا .

وقال أحمد بن محمد الرازي : فيها اتخذ الناصر لدين الله دار السكة لعياره وقد كان الضرب للنقد معطلا قبله بدهر ، فعظمت به منفعة الناس واكتملت خصال دولته . وكانت اول ولاية على دار السكة احمد بن موسى بن حدير ، ثم يحيى بن يونس القبري سنة عشرين وثلاث مائة ، ثم محمد بن فطيس سنة احدى وعشرين ثم سعيد بن جساس سنة اثنتين وعشرين ، ثم عبد الله اخوه سنة سبع وعشرين ، ثم أعاد اليها سعيدا فخان امانته واستغشه وامتحن عياره فكشف غشه ، فسخط عليه ، وسجنه ، وقلد السكة قاسم بن خالد ، صاحب العيار الجيد المضروب به المثل الى اليوم ، ثم قتل قاسم بايدي عبيده في ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين وثلاث مائة ، فولى الناصر لدين الله مكانه ابن عمه عبد الرحمن بن يحيى الاصم ، ثم محمد بن احمد بن حدير ، ثم عبد الله بن محمد الخروبي .

ثم نقل الناصر لدين الله السكة الى مدينة الزهراء الجديدة عند سكناه بها ، فعطل دار السكة بقرطبة واغلق بابها ، واتخذ دار الضرب عوضها بالزهراء ، انقل السكة اليها ، وقلدها عبد الرحمان بن يحيى ، فاتصل الضرب بها بقية حياته وحينا من الدهر بعده» .

(ابن حيان : المقتبس : ج 5 : 243 - 244)

نص رقم 15 المنتوجات الحرفية ومظاهر الحيات الاقتصادية بأندلس الخلافة

«وبالأندلس الزئبق والحديد والرصاص ، ومن الصوف قطع كاحسن مما يكون من الارمني المحفور الرفيع الثمن الى حسن ما يعمل بها من الانماط . ولهم من الصوف والاصباغ فيه وفيما يعانون صبغه بدائع بحشائش تختص بالاندلس ، تصبغ بها اللبود المغربية المرتفعة الثمينة والحرير وما يؤثرونه من ألوان الخز والقز ، ويجلب منها الديباج ، ولم يساوهم في أعمال لبودهم أهل بلد على وجه الارض ، وربما عمل لسلطانهم لبود ثلاثينية يقوم اللبد منها بالخمسين والستين دينارا ، غير أنه قد جعل عروضها خمسة أشبار فهي من محاسن الفرش . ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيف ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق ، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل الى لابسه . وأما أسعارهم فتضاهي النواحي الموصوفة بالرخص وكثرة الخير والسعة . وفواكههم مع طيبة فيها وسطة فكالمباحة التي لاثمن لها . ويعمل في أقطار بلدهم من الكتان الدني للكسوة ويجلب الى غير مكان ، حتى ربما وصل الى مصر منها الكثير . فاما ارديتهم المعمولة ببجانة فتحمل الى مصر ومكة واليمن وغيرها ، ويستعمل عندهم للعامة وللسلطان من الكتان ثياب لا يقصر عن الديبقي ما كان منها صفيقا ، ومن السلس الدقيق ما يستحسنه من لبس الشرب ويضاهي رفيع الشطوي الجيد . وقل سوق بها يصير اليه الا على الفارة من المركوب . ولا يعرف فيهم المهنة والمشي الى أهل الصنائع والارذال ، وتختص بالبغال الفره وبها يتفاخرون ويتكاثرون . ولهم منها نتاج ليس كمثله في معادن البغال المذكورة وأصقاعها المشهورة من ارمينية والران وباب الابواب وتفليس وشروان ، لانها تبدن وتصنع وتنجب. ويجلب اليهم منها شيء حسن الشية عظم الخلق كثير الثمن من جزيرة ميرقة ، وهي جزيرة لعبد الرحمن بن محمد فيها المسلمون منقطعة ، تلي ناحية افرنجة واسعة الخير كثيرة الثمار رخيصة الماشية لكثرة المراعي ، غزيرة النتاج والمواشي

معدومة الجوائح قليلة الآفة ، وليس بها عاهة ولا وحش يوذيهم في سائمتهم . ورأيت منها غير بغل بيع بخمس مائة دينار واليها مرغب ملوكهم واياها يستوطئون ويؤثرون فيما يركبون. فأما ما يبلغ منها المأئة والمائتي دينار فأكثر من أن يحصى ، وليس ذلك لانها أزيد على البغال الموصوفة بحسن السير وسرعة المشي فقط ، بل جمعت مع ذلك عظم الخلق وحسن الشية الى اختلاف الالوان الصافية والشعور الدهينة المشرقة والصحة على مر الايام مع الصبر على الكد والعسف» .

(ابـن حوقل : صـورة الارض : مطبعة ب ريل : ليـدن الطبعة الثالثة :1967 : ص 114) - 115

نص رقم 16 قرار الخليفة الحكم المستنصر بتخفيف المغارم عن الرعية

«بسم الله الرحمن الرحيم ، اما بعد فان امير المؤمنين لم يزل منذ اصطفاه الله تعالى لخلافته ، وارتضاه لحمل امانته ، وقلده اعباء بريته ، ناظرا لجميع المسلمين ، محاميا عنهم ، مهتبلا باموره ، متعاهدا لاحوالهم ، ساعيا فيما يرفه عنهم ويرغد عيشهم ويرخي بالهم ويصل حبل جماعتهم ويبسط العدل والامن فيهم ، تهون عليه في ذلك رغائب الاموال ونفيسات الذخائر وجلائل الاعلاق ، فيما يعود عليهم ويرفع عنهم ، ويرعاهم بعين عن مصالحهم نائمة ، وجوانح على النصيحة لهم منطوية ، ونفس قد حشاها الله عليهم رأفة وملأها رحمة ، لا يشغله دانيهم عن قاصيهم ، ولا حاضرهم عن باديهم ، ولا يلهيه ما بسط له من ملكه وعز سلطانه وعلو امره وتمكين الله - تبارك وتعالى - له عن العناية بعلم حق يرفعه وتوهين باطل يضعه ، ويحكم عدل ينفذه ، وتخفيف مغرم يرجو ثوابه ، فكان اول ما استقبل به نعمةلله في استخلافه اياهم واكرامه له بصرف امر الامة اليه ان اسقط من الجبايات المستقرة على الرعية اعدادا عيّ ذوي الادراك حصرها ، وشع في العالمين ذكرها ، وابقى الله عز وجل له فخرها واجرها ، مما لم تكن الخلفاء ، رضي الله عنهم ، مع عظيم فضائلهم وجليل مآثرهم ، لتسخو ولا تطيب انفسها عنه ، فهانت عليه في التزلف الى ربه ، واحتقرها في استصلاح رعيته ، ثم لم يكتف بذلك ولا اقنعه حتى وضع عن الرعية بعد قليل مثله ، وشفعه بشبيهه ، باذلا له بنفس متسعة لفعل الخير ، وباع رحيب ببسط الفضل ، وهمة اكبر من الدنيا ، يقارض ربه فيحسن مقارضته ، ويتاجره فتربح تجارته ، فكلما جدد الله تعالى له صنعا وزاد في ملكه تمكينا وعلى اعدائه ظهورا ازداد لله خشوعا وبنعمته اعترافا ولفضله عليه شكرا والى من قلده امره احسانا ، وان امير المؤمنين لما تظاهرت الاء الله تعالى عليه وحسن بلائه عنده رأى ان يجدد له الشكر ويمتري منه المزيد باسقاط سدس جميع مغرم الحشود الواجد تقاضيها منهم لسنة اربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفا عن رعيته واحسانا الى اهل مملكته وعهد ان يكون هذا

الاسم المسقط مكشوفا لجميع الرعايا ليبعد عن احتيال العمال وتسوغ الرعية النعمة به ، ويستوي في معرفته العالم والجاهل واليقظ والذاهل فاذا ورد عليك كتاب امير المؤمنين هذا فاحتفل في انذار الناس باقطار عملك ولا يتخلفن منهم من عذر احد عنك ، وامر بقراءته عليهم اثر صلاة الجمعة ليفهمه قاصيهم ودانيهم ، ويحمدوا الله عز وجل على ما وهب لهم من رأفة خليفتهم ، وكريم نظر امامهم لكافتهم ، فيستدرون عونه بالشكر ويستلهمون العون على القيام بحقه واداء مفروض طاعته والنصيحة له ، فانه يستجيب للداعين ويزيد الشاكرين ولا يضيع اجر المحسنين ، ان شاء الله ، وهو المستعان» .

(ابن حيان : المقتبس : قطعة عبد الرحمن الحجي : دار الثقافة : بيروت : 1965 : ص207 - 208)

نص رقم 17 الوضعية المالية والنمو الحضري في خلافة عبد الرحمن الناصر

«واعظم مدينة بالاندلس قرطبة وليس بجميع المغرب لها شبيه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل وسعة رقعة وفسحة اسواق ونظافة محال ، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق ، ويزعم قوم من سافرتها الواصلين الى مدينة السلام انها كأحد جانبي بغداد ، وذلك أن عبد الرحمن بن محمد صاحبها ابتنى في غربها مدينة وسماها الزهراء في سفح جبل حجر املس يعرف بجبل بطلش ، وخط فيها الاسواق وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمتنزهات ، واجتلب اليها العامة بالرغبة وأمر مناديه بالنداء في جميع اقطار الاندلس : ألا من اراد ان يبتني دارا او يتخذ مسكنا بجوار السلطان فله من المعونة اربع مائة درهم ، فتسارع الناس الى العمارة وتكاثفت الابنية ، وتزايدت فيها الرغبة ، وكادت الابنية أن تتصل بين قرطبة والزهراء ، ونقل اليها بيت ماله وديوانه ومحبسه وخزائنه وذخائره ، وقد نقل جميع ذلك الى قرطبة تطيرا منهم بها وتشاءما بموت رجالهم فيها ونهب سائر ذخائرهم.

وسمعت غير محصل ثقة ممن يستبطن جبايات البلد وحاصل عبد الرحمن بن محمد أن لديه مما اتجه له جمعه من الاموال الى سنة اربعين وثلاثمائة ما لم ينقص من عشرين الف الف دينار الا اليسير القليل دون ما في خزائنه من المتاع والحلي المصوغ وآلة المراكب وما يتحمل به الملوك من القنية المصوغة ، ولما توفي عبد الرحمن بن محمد سنة خمسين وثلاثمائة صار الامر الى ابنه ابي العاصي الحكم بن عبد الرحمن فصادر رجال ابيه وقبض نعم خدمه والوزراء الذين لم يزالوا في صحبته فكان الحاصل منهم عشرين الف الف دينار يتواطأ في علم ذلك اهل الخبرة بهم ويتساوون في معرفة وجوهه ولم يكن لهذا المال في وقته في بلد الاسلام شبه الا ما كان في يد الغضنفر ابي تغلب بالجزيرة والعراق ومقدار يزيد على ذلك حتى قيل انه كان خمسين الف الف دينار وادال الله منه فاخرج عن يده ومحقه وبدده وكذلك عادة الله في كل ما كسب

من حرام واجتمع بالبغي والظلم والآثام ، وصورة ما بالاندلس من المال الذي قدمت ذكره صورة ما للشقي بن الشقي وقد استحوذ عليه ابو عامر بن ابي عامر صاحب السكة بالاندلس وقتنا هذا فهو يلذ تفريقه وشقي به من جمعه وباء باثمه من لم يحظ به » .

(ابن حوقل : المصدر السابق : ص 111 - 112)

نص رقم 18 الوضعية الجبائية والمالية في الدولة العامرية

«ذكر ابو مروان خلف رحمه الله في كتابه الذي اناف على المائة أسفاره المسمى باخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الاحداث الشنيعة فقال : كتب الي ابو القاسم محمد بن مرشد أحد بقايا وجوه الكتاب المستأخرين المتمتعين بالنظر والمعرفة على كبر السن معرفا باشياء سألته عنها من هذا الباب سنة 436 اثبتها نقلا من كتابه وهي : مبلغ جباية آخر ايام المنصور أربعة آلاف الف دينار سوى رسوم المواريث بقرطبة وكور الاندلس كانت تجري على الامانة وسوى مال السبي والمغانم على اتساعه في هذه وسوى ما يتصل به السلطان من المصادرات ومثل ذلك مما لايرجع الى قانون ، قال : وكانوا يعتدونها اربع بيوت تأخذ النفقات السلطانية منها على المشاهرة بالزيادة والنقصان ما بين الشهر والشهر مائتي الف دينار الى مائة وخمسين الفا الى أن يدخل شهر يونيه العجمي فيتضاعف فيه الانفاق من اجل الاستعداد لغزو الصائفة فينتهي منه الى خمسمائة الف دينار وأكثر منها وما فضل من المال بعد جميع النفقات احرزه السلطان في بيت ماله مع غير ذلك من ضروب استفاداته ، قال : وكتب ابو محمد عبد الله بن مروان آخر حذاق كتاب المحاسبة اليوم وممن لحق طرفا من تلك الدولة أن محمد بن ابي عامر احب الوقوف على حاصل الاطعمة في الاهراء عندما اعتزم على غزو برجلونة سنة 374 فارتفعت جملته الى مائتي الف مدي ونيف عليها ، قال : فلحقه العجب بذلك حتى قال : أنا اكثر طعاما من يوسف الخازن . فلم يمطله بغي كلمته اذ برأها من الاعتصام من ربه تعالى واعتورته السنون الشداد المتوالية من سنة 378 فانتسفت اطعمته باتصال الانفاق وعدم الاغتلال حتى أشفى على المجاعة وهم بالجواز الى العدوة لخصبها يومئذ حتى أغاث الله بلاد الاندلس وأخرج ارزاقها وجعل بعد ذلك لا يستكثر شيئا من الاطعمة ولا يقتصر على مايجتنيه منها حتى يخرج المال في شرائها في سني الخصب فهلك وحاصله منها جملة غليظة» .

(ابن الخطيب : اعمال الاعلام : 114 - 115)

نص رقم 19

أحوال قرطبة المحاصرة من طرف الجند البربري في مستهل الفتنة

«وفي هذه السنة 401 هـ كان بنهر قرطبة سيل عظيم هدم في ارباض قرطبة نحو الفي دار وما لايحصى من المساجد والقناطير ومات فيه نحو من خمسة الاف نفس ردما وغرقا وذهبت فيه امتعة الناس واموالهم وهدم اكثر السور وردم كثيرا من الخندق واقام هذا السيل ثلاثة ايام ، هكذا ذكرالرقيق في كتابه .

واجتمع اهل البلد والعبيد بقرطبة فتحالفوا بايمان البيعة ان تكون ايديهم متفقة وكلمتهم في حرب البربر واحدة وأكدوا الايمان بينهم في ذلك وكتبوا عقدا بذلك على انفسهم وأشهدوا الوزراء والكبراء والسعر كل يوم يزداد غلاء والأمر يتفاقم والناس يتوجهون إلى السواحل والبوادي ، واشتد حال اهل قرطبة حتى أكل الناس الدم من مذابح البقر والغنم واكلوا الميتة وال...البالية وكان قوم في السجن فمات منهم رجل فاكلوه ومع هذه المحق فشرب الخمر ظاهر والزناء مباح واللواط غير مستور ولا ترى الا مجاهرا بمعصية .

وخرج البربر من جيان الى ارملاط في جمادي الآخرة وقد ملؤوا ايديهم من البقر والغنم حتى عجزوا عن ضبطه فكان جياع اهل قرطبة يسرون ليلا على رعاة متفرقة فيأخذون منها ماقدروا عليه فلا يتورع عن شرائها كبير ولا صغير ثم نذروا لهم البربر فقعدوا لهم فكانوا يقتلون في كل ليلة العشرة والعشرين والثلاثين وقتلوا منهم في ليلة واحدة اكثر من مائة فانقطعوا عن غنم البربر جملة ، ورجعوا الى مابقي من مواشي اهل البلد يسرقونها ويذبحونها فيأكلها الناس كالحلال الذي لاشك فيه .

وكتب سليمان الى اهل قرطبة يحذرهم الفتنة ويعدد عليهم ما كان البربر يوالونهم من الجهل ويحتملون منهم من الاذى والقبيح وانه عافاهم من غرور الافرنج حين خرج هو مع البربر اليهم شفقة عليهم وغير ذلك من الحجج البالغة عليهم فمالت طائفة منهم الى الصلح وانكرته

طائفة ونزل البربر على كل زرع حول قرطبة يحصدون وياكلون ويقفون بقرب الخندق فيقولون اخرجوا الينا الحصادين فانا نضمن لكم الا ندع حبة واحدة يستهزؤون بهم ويضحكون منهم وليس احد يقدر ان يخرج من الخندق اليهم من الجند وغيرهم .

وجاء عيد الفطر فلم يقدر احد منهم يخرج الى المصلى وصلوا في الجامع جزعا وخوفا وعظم البلاء على اهل قرطبة ووقعت نار في سوق الخشابين فاحرقت اسواقا كثيرة ونهب العبيد ما لم تحرقه النار فكان حريقا عظيما ، واحرق قوم من اهل قرطبة جامع الزهراء وأخذوا ما بقي من قناديله وصفائح ابوابه ومنبره وحصره ، ووصل قوم من البربر الى شفير الوادي فدعوا الى الصلح فركن ابن مناو الى ذلك وقال نصالحهم على ما يرضاه السلطان صوابا ، وكان ابن مناو قد تسمى ذا الوزارتين فانكر الفقهاء ذلك وقالوا ان تم هذا كان فيه هلاكنا فاجتمعوا الى ابن مناو وقالوا حرب البربر اسلم لنا من صلحهم فاعرضوا عن ذكر الصلح فرجعت الفتنة على ما كانت عليه ».

(ابن عذاري : البيان : جـ 3 : 105 - 107)

نص رقم 20 — عقد جائحة بجنان الاحباس بقرطبة أيام الفتنة

«بسم الله الرحمن الرحيم توجه بامر القاضي عبد الرحمن بن احمد بن بشير من تسمى في هذا الكتاب من الشهداء لامتحان ما تشكاه متقبلو الجنات المحبسة المضموم نظرها الى ديوان القضاة بقرطبة من الجائحة الداخلة عليهم في هذه الجنات في سنة سبع وأربعمائة بسبب الخشاش المتولد من الارض لغلبة رطوبة الماء عليها في شهر مارس الكائن في العام المذكور وبسبب امتناع السناية في شهر غشت في العام المذكور للمخافة اللاحقة الاوراق الموضوعة فيها بتكرر الجيش في المحلة بشرقي قرطبة عند ورود العساكر مع النصارى وبسبب تكرر القنليات على الاوراق الموضوعة فيها وتقلبها عليها .فامتحنوا ذلك وكشفوا عنه ورأوا بما انكشف لهم من ذلك ان يسقط عن متقبلي الجنات التي برملة قرطبة وما اتصل بها من الجهة الشرقية بسبب جائحة الخشاش وامتناع السناية للخوف المذكور ثلث ما عليهم من القبالة في الارض البيضاء ويثبت عليهم الثلثان وان يسقط عن متقبلي الجنات في الجهة الغربية والجوفية من مدينة قرطبة بسبب جائحة القنليات والخشاش في الارض البيضاء الربع ويثبت الثلاثة الارباع وان ذلك من السداد للاحباس المذكورة لما فيه من حق المتقبلين واستيلافهم . فمن الجنات التي بالرملة وما اتصل بها من الجهة الشرقية جنان كذا وجنان كذا[1] ، ومن الجنات التي بالجهة الغربية جنان كذا وجنان كذا ، ومن الجنات التي بالجهة الجوفية جنان كذا وجنان كذا ، شهد بذلك كله من وقف اليها وعاينه ورآه على حسب ما وصف فيه فمن اوقع شهادته بذلك في شهر كذا وثبت هذا العقد عند القاضي ابي المطرف ونظر لهم بما شهد فيه» .

(ابن سهل : المصدر السابق : 326 - 327)

نص رقم 21 شيخ اندلسي رحل الى المشرق والهند طلبا للعلم والتجارة

محمد بن معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية بن اسحاق بن عبد الله بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان امير المؤمنين ، المعروف بابن الاحمر من اهل قرطبة ، يكنى ابا بكر . سمع بالاندلس من عبيد الله بن يحيى، وسعيد بن خمير ، واصبغ بن مالك ، ومحمد بن عمر بن لبابة . ورحل الى المشرق سنة خمس وتسعين ومائتين فسمع بمصر من احمد بن شعيب النسائي ، واسحاق بن ابراهيم المنجنيقي ، وابراهيم بن موسى بن جميل ، وابي بشر الدولابي ، ويموت بن المزرع العبدي صاحب الاخبار ، وعلى بن سليمان الاخفش صاحب النحو.

وسمع بمكة من محمد بن المنذر الخزاعي ، والجارودي . ودخل بغداد فسمع بها من ابي بكر جعفر بن محمد بن المستفاض ، وابي القاسم بن بنت منيع البغوي ، وابن الانباري ، ونفطويه .

وسمع بالكوفة من ابراهيم بن شريك ، وبالبصرة من ابي خليفة الفضل ابن الحباب الجمحي ، وزكريا بن يحيى الساحي ، وابي همام البكرواني ، وسمع بالابلة من ابي يعلى محمد بن زهير القاضي ، وابي يعلى حمزة بن داود الثقفي من ولد الحجاج بن يوسف في جماعة كثيرة من البغداديين والمصريين وغيرهم .

ودخل ارض الهند تاجرا ، وكان يقول : خرجت منصرفا من ارض الهند وانا اقرر ان معي قيمة ثلاثين الف دينار ، فلما قاربت ارض الاسلام غرقت فما نجوت الا سبحا لا شيء معي . وقدم الاندلس سنة خمس وعشرين وثلاثمائة ، وبدأ الناس بالقراءة عليه من سنة ست وثلاثين ، وكان شيخا حليما ، ثقة فيما روى صدوقا » .

(ابن الفرضي : تاريخ علماء الاندلس : الدار المصرية للتأليف والترجمة : القاهرة : ق2 :67- 68)

نص رقم 22 سياسة التسامح تجاه المستعربين

«قال محمد : اخبرني من اثق فيه من اهل القلم قال : كان بقرطبة رجل اعجمي ممن استنزل من الحصون المخالفة ، وكانت له امرأة حرة مسلمة فاستجارت بالقاضي أسلم بن عبد العزيز فاجارها وبدأ بالنظر في امرها وكان في ذلك الوقت الحاجب بدر بن احمد يحل من امير المؤمنين رحمه الله محلا لطيفا فلم ينشب القاضي اسلم وأتاه يعلى عن الحاجب بدر فقال له : الحاجب يقرأ عليك السلام ويقول لك : ان هؤلاء العجم استنزلناهم بالعهد ، ولا يحل الحقد بهم وانت اعلم بما يجب من الوفاء بالعهود فدع بين فلان العجمي وبين الامة التي في يديه فقال اسلم ليعلى الحاجب ارسلك بهذا قال : نعم قال :فاخبره عني الايمان كلها لازمة لي لا نظرت بين اثنين حتى انفذ على العجمي ما يجب عليه من الحق في هذه الحرة المسلمة التي في يديه فذهب عنه يعلى ثم رجع اليه فقال : الحاجب يقرأ عليك السلام ويقول : اني لااعترضك في الحق ولا استحل سؤال ذلك منك وانما اسألك التثبت في مايجب من حق هؤلاء المعاهدين فقد علمت ما يجب من رعايتهم وانت اعلم بالواجب (...).

قال محمد : وسمعت من يحكي انه جاء رجل من النصارى مستقتلا لنفسه فوبخه اسلك وقال : ويلك من اغراك بنفسك ان تقتلها بلا ذنب ، فبلغ من سخف النصراني وجهله الى ان انتحل له فضيلة لم يقرأ لمثلها لعيسى بن مريم صلى الله على محمد وعليه فقال للقاضي : وتتوهم انك اذا قتلتني اني انا المقتول فقال له القاضي : ومن المقتول فقال له شبهي يلقى على جسد من الاجساد فتقتله ، أما أنا فارفع في تلك الساعة الى السماء فقال له اسلم : ان الذي تدعيه من ذلك غائبا عنا والذي يخبرك به من تكذيبك غائب عنك ، ولكن ثم وجه يظهر صدقه لنا ولك فقال النصراني : وما هو فالتفت اسلم الى الاعوان ثم قال : هاتوا السوط ، ثم امر بتجريد النصراني فجرد ، ثم امر بضربه فلما اخذته السياط جعل يقلق ويصيح فقال له اسلم :

في ظهر من تقع هذه السياط فقال : في ظهري قال له اسلم : وكذلك السيف والله في عنقك تقع فلا تتوهم غير ذلك » .

(الخشني : قضاة قرطبة : الدار المصرية للتاليف والترجمة : القاهرة 1966 :107 - 109)

نص رقم 23 مظاهر من الحياة العامة بالاندلس

«ومن البدع اجتماع الناس بارض الاندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وكذلك على اقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم ، واقامة العنصرة وخميس ابريل بشراء المجبنات والاسفنج ، وهي من الاطعمة المبتدعة . وخروج الرجال جميعا او اشتاتا مع النساء مختلطين للتفرج ، وكذلك يفعلون في ايام العيد ويخرجون للمصلى ويقمن فيه الخيم للتفرج لا للصلاة . ودخول الحمام للنساء مع الكتائبيات بغير مزر ، والمسلمين مع الكفار في الحمام والحمام من البدع ومن النعيم » .

(الطرطوشي : الحوادث والبدع : تحقيق محمد الطالبي : تونس 1959 : 140 - 142)

نص رقم 24 يهود الاندلس في خلافة الحكم المستنصر

«وكان عندنا بالاندلس منهم جماعة ممن عني بصناعة الطب حسداي بن اسحاق خادم الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله ، كان معتنيا بصناعة الطب متقدما في علم شريعة اليهود وهو اول من فتح لاهل الاندلس منهم باب علمهم من الفقه والتاريخ وغير ذلك وكانوا قبله يضطرون في فقه دينهم وسني تاريخهم ومواقيت اعيادهم الى يهود بغداد فيستجلبون من عندهم حساب عدة من السنين يعرفون به مداخل تاريخهم ومبادئ سنيهم . فلما اتصل حسداي بالحكم ونال عنده الحظوة بفضل دريته ونهاية براعة ادبه وتوصل به الى استجلاب ما شاء من تآليف اليهود بالمشرق فعلم حينئذ يهود الاندلس ما كانوا قبل يجهلونه واستغنوا عما كانوا يتجشمون الكلفة فيه» .

(صاعد الاندلسي : طبقات الامم : تحقيق حياة العيد : دار الطليعة، بيروت 1985 :203 - 204)

نص رقم 25 اليسانة مدينة اليهود

«مدينة اليسانة وهي مدينة اليهود ولها ربض يسكنه المسلمون وبعض اليهود وبه المسجد الجامع وليس على الربض سور والمدينة متحصنة بسور حصين ويطوف بها من كل ناحية حفير عميق القعر والسروب وفائض مياهها قد ملأ ذلك الحفير واليهود يسكنون بجوف المدينة ولا يداخلهم فيها مسلم البتة واهلها اغنياء مياسير اكثر غنى من اليهود الذين ببلاد المسلمين ولليهود بها حذر وتحصن ممن قصدهم ومن اليسانة الى مدينة قرطبة اربعون ميلا» .

(الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق : نابولي- روما 1975 : المجلد 5 :571 - 572)

نص رقم 26 الرقيق الصقالبة والجلالقة بالاندلس

«وذكر الكاتب ابراهيم بن القاسم القروي المعروف بالرقيق بلد الاندلس ، فقال : اهله اصحاب جهاد متصل يحاربون من اهل الشرك المحيطين بهم امة يدعون الجلالقة يتاخمون حوزهم ما بين غرب الى شرق ، قوم لهم شدة ولهم جمال وحسن وجوه ، فاكثر رقيقهم الموصوفين بالجمال والفراهة منهم ليس بينهم وبينهم درب ، فالحرب متصلة بينهم ، مالم تقع هدنة ، ويحاربون بالافق الشرقي امة يقال لهم الفرنجة هم اشد عليهم من جميع من يحاربونه من عدوهم ، اذ كانوا خلقا عظيما في بلاد كثيرة واسعة جليلة متصلة العمارة آهلة تدعى الارض الكبيرة ، هم اكثر عددا من الجليقيين واشد باسا واحد شوكة وأعظم امدادا ، وهذه الامة يحاربون امة الصقالبة المتصلين بارضهم لمخالفتهم اياهم في الديانة فيسبونهم ويبيعون رقيقهم بارض الاندلس ، فلهم هنالك كثرة ، وتخصيهم للفرنجة يهود ذمتهم الذين بارضهم ، وفي ثغر المسلمين المتصل بهم ، فيحمل خصيانهم من هنالك الى سائر البلاد ، وقد تعلم الخصاء قوم من المسلمين هناك ، فصاروا يخصون ويستحلون المثلة» .

(المقري : نفح الطيب : ج 1 : 144 - 145)

نص رقم 27 التعريب والتنوع اللغوي بالاندلس

«الا ان الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا ان السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة مضر وربيعة لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن اهلها فحدث فيها جرش كالذي يحدث من الاندلسي اذا رام نغمة اهل القيروان ، ومن القيرواني اذا رام نغمة الاندلسي ، ومن الخراساني اذا رام نغمتهما . ونحن نجد من سمع لغة اهل فحص البلوط وهي على ليلة واحدة من قرطبة كاد ان يقول انها لغة اخرى غير لغة اهل قرطبة . وهكذا في كثير من البلاد فانه بمجاورة اهل البلدة بامة اخرى يتبدل لغتها تبديلا لايخفى على من تأمله . ونحن نجد العامة قد بدلت الالفاظ في اللغة العربية تبديلا وهو في البعد عن اصل الكلمة كلغة اخرى ولا فرق فنجدهم يقولون في العنب العينب ، وفي السوط اسطوط ، وفي ثلاثة دنانير ثلثدا . واذ تعرب البربري فاراد ان يقول الشجرة قال السجرة . واذا تعرب الجليقي ابدل العين والحاد هاء فيقول مهمدا اذا اراد ان يقول محمدا . ومثل هذا كثير فمن تدبر العربية والعبرانية والسريانية ايقن ان اختلافها انما هو من نحو ما ذكرنا من تبديل الفاظ الناس على طول الازمان ، واختلاف البلدان ومجاورة الامم ، وانها لغة واحدة في الاصل» .

(ابن حزم : الاحكام في اصول الأحكام : تحقيق احمد محمد شاكر : دار الافاق الجديدة بيروت : الطبعة الثانية 1983 المجلد الاول : الجزء الأول : صفحات : 31 - 32)

نص رقم 28 تحذير ذوات الحجاب من الاحتكاك بالنساء المتحررات بقرطبة

«واكثر ما يستعمل المحبون في ارسالهم الى من يحبونه ، اما خاملا لايؤبه له ولا يهتدى للتحفظ منه ، لصباه او لهيئة رثة أو بذاذة في طلعته ، وإما جليلا لا تلحقه الظنن لنسك يظهره او لسن عالية قد بلغها . وما اكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثوبين الاحمرين . واني لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينها ، او ذوات صناعة يقرب بها من الاشخاص ، فمن النساء : كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخدمة والصناع في المغزل والنسيج ، وما اشبه ذلك ، او ذا قرابة من المرسل اليه لا يشح بها عليه . فكم منيع سهل بهذه الاوصاف ، وعسير يسر ، وبعيد قرب ، وجموح انس ، وكم داهية دهت الحجب المصونة ، والاستار الكثيفة والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لارباب هذه النعوت ، ولولا ان انبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل احد . والسعيد من وعظ بغيره ، وبالضد تتميز الاشياء . اسبل الله عليها وعلى جميع المسلمين ستره ، ولا زال على الجميع ظل العافية» .

(ابن حزم : طوق الحمامة : ضمن رسائل ابن حزم الاندلسي : تحقيق احسان عباس : المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1980: جـ 1 : 141 - 142)

«واني لاعلم امرأة موسرة ذات جوار وخدم ، فشاع على احدى جواريها انها تعشق فتى من اهلها ويعشقها ، وان بينهما معاني مكروهة ، وقيل لها : ان جاريتك فلانة تعرف ذلك وعند هاجلية امرها ، فاخذتها وكان غليظة العقوبة فاذاقتها من انواع الضرب والايذاء ما لايصبر على مثله جلداء الرجال ، رجاء ان تبوح لها بشئ مما ذكر لها ، فلم تفعل البتة .

واني لاعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عز وجل ناسكة مقبلة على الخير ، وقد ظفرت بكتاب لفتى الى جارية كان يكلف بها ، وكانت في غير ملكها ، فعرفته الامر فرام الانكار فلم يتهيأ له ذلك ، فقالت له : مالك ومن ذا عصم فلا تبال بهذا ، فوالله لا اطلعت على سركما احدا ابدا ، ولو امكنني ان ابتاعها لك من مالي ولو احاط به كله لجعلتها لك في مكان تصل اليها فيه ولا يشعر بذلك احد .

وانك لترى المرأة الصالحة المسنة المنقطعة الرجاء من الرجال ، واحب اعمالها اليها وارجاها للقبول عندها سعيها في تزويج يتيمة، واعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة . وما اعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء الا انهن متفرغات البال من كل شيء الا من الجماع ودواعيه ، والغزل واسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لاشغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه ، والرجال مقتسمون في كسب المال وصحبة السُّلطان وطلب العلم وحياطة العيال ومكابدة الاسفار والصيد وضروب الصناعات ومباشرة الحروب وملاقاة الفتن وتحمل المخاوف وعمارة الارض ، وهذا كله متحيف للفراغ ، صارف عن طريق البطل .

وقرأت في سير ملوك السودان ان الملك منهم يوكل ثقة له بنسائه يلقي عليهن ضريبة من غزل الصوف يشتغلن بها ابد الدهر ، لانهم يقولون : ان المرأة اذا بقيت بغير شغل انما تتشوف الى الرجال ، وتحن الى النكاح .

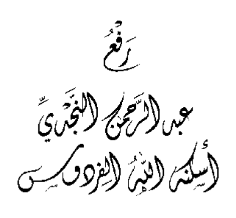
ولقد شاهدت النساء وعلمت من اسرارهن ما لايكاد يعلمه غيري ، لاني ربيت في حجورهن ، ونشأت بين ايديهن ، ولم اعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال الا وانا في حد الشباب وحين تبقل وجهي ، وهن علمنني القرآن وروينني كثيرا من الاشعار ودربنني في الخط ، ولم يكن وكدي واعمال ذهني مذ اول فهمي وانا في سن الطفولة جدا الا تعرف اسبابهن ، والبحث عن اخبارهن ، وتحصيل ذلك . وانا لا انسى شيئا مما اراه منهن ، واصل ذلك غيرة شديدة طبعت عليها ، وسوء ظن في جهتهن فطرت به ، فاشرفت من اسبابهن على غير قليل ، وسيأتي ذلك مفسرا في ابوابه ، ان شاء الله تعالى» .

(ابن حزم : طوق الحمامة : 165 - 166)

القسم الثالث

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

عصر الطوائف





عصر ملوك الطوائف

لقد حار المؤرخون القدامى والمحدثون في فهم التاريخ الاندلسي خلال عصر ملوك الطوائف وتفسيره بما انفرد به هذا العصر من تعقيد وتناقضات ، ليس على المستوى الداخلي فحسب بل حتى بالمقارنة مع العصور السابقة واللاحقة. فقد تناقض هذا العصر مثلا مع عصر الخلافة الأموية الذي سبقه تناقضا تاما ، فخلافا لعصر الخلافة الذي تميز بالمركزية السياسية عرفت الأندلس خلال عصر الطوائف تقسيما سياسيا لم يعرف له مثيلا. فقد تمزقت وحدة الأندلس التي كانت تتمثل في الخلافة وتطاحن ملوك الطوائف. وازداد الخطر العسكري المسيحي من الشمال على الأندلس خلال عصر الطوائف خطورة حتى توّج باحتلال الفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ / 1085 م .

ومن التناقضات التي تميزت بها الأندلس خلال القرن الخامس الهجري على النطاق الداخلي تناقض بين التطورات السلبية سياسيا واقتصاديا من جهة ، وبين التيارات الايجابية ثقافيا وفكريا من جهة أخرى. فبينما أدّت الاتجاهات السياسية والاقتصادية بالأندلس إلى انفجار الأوضاع في دول الطوائف في نهاية المطاف بلغت الثقافة الأندلسية أوجها في التجديد والابتكار والابداع وذلك في مجالات معرفية متعددة تتراوح بين الادب والتاريخ والفقه والفلاحة والهندسة. وشهدت الأندلس خلال عصر ملوك الطوائف مجموعة من الأحداث التاريخية الكبرى التي غيرت السيرورة التاريخية الأندلسية من جهة ، وكانت لها عواقب خطيرة على الساحة "الدولية" من جهة أخرى ، نذكر من بينها على وجه الخصوص فتنة قرطبة التي توجت انحلال الخلافة الأموية ودشنت عصر الطوائف والهجوم المسيحي على بربشتر سنة 456 هـ. واحتلال الفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ. وانتصار الأندلسيين والمغاربة في تحالف ضد الفونسو السادس في "وقعة الزلاقة" سنة 479 هـ.

وإذا كان عصر ملوك الطوائف يشكل مرحلة انتقالية بين عصري الخلافة والمرابطين ،

فإنه يشكل في الوقت ذاته ظاهرة تاريخية منفردة تحتاج إلى تقويم خاص كما أن هذه المرحلة تعتبر أساسية لفهم العصرين السابق واللاحق. إن التعمق في دراسة عصر ملوك الطوائف يساعدنا على فهم أسباب انهيار الدولة الأموية بقدرما يعتبر ضروريا لتحديد أسباب ترسيخ الحكم المرابطي في الأندلس.

إن النصوص التي سنقدمها تعكس جوانب دقيقة لأحداث سياسية كبرى عرفتها الأندلس خلال القرن الخامس الهجري كاحتلال الفونسو السادس لطليطلة سنة 478 هـ. ووقعة الزلاقة كما تسميها المصادر التاريخية.

ومن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية التي تتطرق لها النصوص التي نقدمها للقارىء الكريم ، ثورة اليهود في اليسانة في دولة غرناطة الطائفية. وتعكس هذه النصوص تنوع عصر الطوائف وتناقضاته كما أنها تعبر عن الإبداع الأندلسي في مجال التأريخ. وإنني أهدف من خلال تقديم هذه النصوص إلى التعريف بعصر الطوائف من خلال معاصريه والمشاركين في صنع أحداثه الكبرى كما أرغب في إثارة انتباه عشاق الدراسات الأندلسية إلى القيمة التي تنفرد بها النصوص الأندلسية عموما خلال القرن الهجري الخامس.

نصوص سياسية

نص رقم 1 ذكر نبذة من أحوال ملوك الطوائف بعد الخلاف

«نقول ، وبالله الاستعانة ، ومنه الحول والقوة : وذهب أهل الأندلس من الانشقاق ، والانشعاب ، والافتراق ، إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار ، مع امتيازها بالمحل القريب ، والخطة المجاورة لعباد الصليب ، ليس لأحدهم في الخلافة إرث ، ولا في الامارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الامامة مكتسب ، اقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والأمصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام ، وأنشدهم الشعراء ، ودونت بأسمائهم الدواوين ، وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفت بأبوابهم العلماء ، وتوسلت إليهم الفضلاء ، وهو ما بين محبوب ، وبربري مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ؛ مامنهم من يرضى أن يسمى ثائراً ، ولا لحزب الحق مغايراً ؛ وقصارى أحدهم أن يقول : « أقيم على ما بيدي ، حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه ! » ولو جاء عمر بن عبد العزيز ، لم يقبل عليه ، ولا لقي خيراً لديه ؛ ولكنهم استوفوا في ذلك آجالا وأعماراً ، وخلفوا آثارا ، وإن كانوا لم يبالوا اغترارا من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل ، كما قال الشاعر :

مِمَّا يُزَهِّدُنِي في أَرْضِ أَنْدَلُسٍ * أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ في غَيْرِ مَوْضِعِها * كالهِرِّ يَحْكِي انتفاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ

جلبنا منهم ذاكرا ليغتبط مطالعه بحاله ، ويرضى الواقف عليه من زمانه ، ويبتهج بشأنه ، ويرى أنه أوثق عهده ، وأحكم عقده ، وأرحب عطنا ، وآمن وطنا ، وسبحان من لاتزن الدنيا عنده جناح بعوضة ، ومن لم يرض لأوليائه الكرام عليه غير مالديه!»

(لسان الدين أبو عبيد الله محمد بن الخطيب ، «أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام» تحقيق إليفي بروفنصال ، بيروت ،1956 ص 109 - 110).

نص رقم 2

مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة
واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه.

وبقي ابن عمار مرتهنا بما جعل على نفسه للنصراني من كراء بليلش في تبعات كثيرة وجرايات جسمية يقطعها له ، ويعده بها ، وأدخل سلطانه من ذلك في تشغيب ، لأنه كان لايريد أن يجعله يخلد إلى راحة لكي يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقر عن إدخال ضرر على المسلمين. ومتى ماكان المعتمد يسعى في تهدين الأمر ، ونروم معه الصلح ، أو تنشأ مهادنة ، لا ينام في نقضها وإشعال نار الفتنة.

فعاد ثانية إلى النصراني الفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصورنا عنده في صورة من لايقدر على شيء من أجل الضعف وسن الصبا ، وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليه بأسرها ، على أن يعاقده ، إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه ، وله ما لقي من أموالنا. وألقى يده في ألفونش ، عازما عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالا جسمية ، ووعده بخمسين ألف مثقال إذا تمت القضية ، سيعطيها زائدةً على مايجد ، لمساعدته على السير.

فأدرك الرومي من ذلك طمع كبير ، وقال : « هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة ، وإن لم تحصل البلدة ! وأي فائدة لي في إعطاء بلدة من واحد لآخر إلا تقويته على نفسي ؟ وكلما أكثر الثوار ، ووقع بينهم التنافس ، كان لي أفند! » فأتى على نية أخذ مال الفريقين ، يكسر رؤوس بعضهم ببعض. ولا كان أيضا في أمله أن يأخذ البلاد لنفسه ؛ فإنه عمل في ذلك حسابا أن قال : « إنا من غير الملة ؛ وكل الناس يشنأني ؛ فبأي وجه أطمع في أخذها ؟ إن كان من باب الطاعة ، فأمر لا يمكن ؛ وإن كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي ، وتكون الخسارة على أكثر ممّا نرجوه إن صارت إليّ. ولو صارت ، لم تتمسك إلا

بأهلها ؛ ثم لا يؤمنون ! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ! ولكن الرأي ، كل الرأي ، تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبداً ، حتى ترق وتضعف ؛ ثم هي تلقى بيدها إذا ضعفت ، وتأتي عفواً ، كالذي جرى بطليطلة إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت إليّ بلا مَشَقَّةٍ! »

وكُنَّا نحن نعلم هذا من مذهبه ، على ماكان يخبر به وزراؤه. ولقد قال ذلك ششلاند في حال هذه السفرة ، وشافهنا بذلك وقال : « إنما كانت الأندلس للرُّوم في أوَّل الأمر ، حتى غلبهم العَرَبُ ، وألحَقُوهم بأنحس البقاع : جليقية ؛ فهم الآن عند التمكن ، طامعين بأخذ ظلاماتهم! فلا يصح ذلك إلا بضعف الحال والمطاولة ، حتى إذا لم يبق مال ولا رجال ، أخذناها بلا تكلف! »

فكان الجميع يساير الأمور ، ويدافع الأيام ، ويقول : «من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا بزعمهم ، يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين! »

(الأمير عبد الله بن بلقين الزيري ،"كتاب التبيان" ،تحقيق إ.ليفي بروفنصال ، القاهرة 1955 ، ص 72 - 73).

(تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد)

« وأرسل [أمير المسلمين] ، عند حلوله بإشبيلية ، عن جميع الرؤساء : فأما ابن صمادح ، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصاً لِيَرَى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم ؛ واعتذر بكبر السن مع الضعف ، وأرسل ابنه معتذراً. وبادرنا نحن إلى الخروج ، وسررنا بذلك وأعددنا ما استطعنا عليه للجهاد بأموالنا ورجالنا ؛ وقدمنا الهدية إلى أمير المسلمين ، وأمرنا بضرب الطبل وما يستعد به للفرح ، عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة. وظننّا أنَّ إقباله إلى الأندلس منّةٌ من الله عظُمَتْ لَدَيْنا ، لاسيّما خاصةً من أجل القرابة ، وللذي شاع من خيرهم ، وإقبالهم على طلب الآخرة ، وحكمهم بالحق ؛ فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عام : فمن عاش منّا كان عزيزاً ، تحت ستر وحمايةٍ ، ومن مات كان شهيداً. والعجب في تلك السفرة من حسن النيات ، وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنّما جمعت على ذلك.

ولقينا أمير المسلمين في طريقه إلى بطليوس بجريشة ، ورأينا من إكرامه لنا وتحفّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبةً ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا ، فضلاً على أموالنا. ولقينا المتوكّل ابن الأفطس محتفلاً بعسكره : كلٌّ يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ، ووطن الموت نفسه.

- موقعة الزُّلاَّقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس

وتلومنا ببطليوس أياماً ، حتى صحَّ عندنا إقبال ألفونش في حفلة ،يروم الملاقاة ، ويظن أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل. وساقة القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن بإزاء المدينة ، متربصون : ان كانت لنا ، فبها ونعمت ، وان لم تكن ، كانت وراءنا حرزاً ومعقلاً نأوى إليها. وأمير المسلمين يدبِّر هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوى ، عسى [أن] تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحْوَج إلى التوغُّل في بلادهم. وهم ،

كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون من لهم أو عليهم ؛ ورجا بأن يكون الرُّوميُّ لا يخرج إليه أحد ، فينصرف طريقه ، ويكفى الله المؤمنين القتال ، إلى أن تريه الأمور وجوهها. فلا يسمع إلا الأمير متربصا لالتيات طاف به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصارى مدوخا لها. والنصراني في هذا كله يقرب متعاطيا ، لا يعمل حساب من يغلب ، إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيف ؛ ولو لم يكن إلا يأكله الطريق وبعد المسافة.

ثم أرسل ، على يدى ابن الأفطس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : «ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك ، وأنت تتربص وتختبيء لأصل المدينة !» فلم يكن بد أن ينتقل إليه ، ليكون الجيش على مقربة منه. وتوعدا اللقاء في يوم سمَّياه. ولم يكن بين المحلَّتين إلا نحو ثلاثة أميال ، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعد ، وحل الناس عن أنفسهم ؛ وكانت خيرةً أن لو ركبت الفئتان ، لم تنفصل إلا عن فقد الأكثر من عسكر المسلمين ، حسبما توجبه الموافقة القتال.

نفجأهم عسكر الرومى ، وهم على غير إعداد. وكان مختلساً : إنَّما له ما ألفى في تلك الساعة ، وألقى سُمَّه في الرَّحْل ؛ ومات منهم خلائق ممَّن لم يكن يقدر على نفسه. فلم تقع الصيحة على الجيش [إلاَّ] وركبوهم في طلبهم ؛ وهم قد كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة. فاقتفى المسلمون آثارهم ، وركبوهم بالسيف ؛ ومات من جيشهم خلائق ، وتبدَّدوا في الطريق فمن بين قتيل وميت مثقل ضريع . ولو أن الوقيعة تكون على اعداد من وقوف الفِئَتَين ومناطحتهما في اللقاء ، لفقد من العسكرين الأكثر ، كالذي توجبه الرتبة ؛ لكن الله لطيف بعباده ، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل. وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى اشبيلية على حال سلامةٍ ونصرٍ.

– يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة. بدء الخلاف بين المتحالفين .

ولما انقضت غزوته تلك ، جمعنا في مجلسه ، أعني رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالاتفاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم يفترصنا إلا للذي كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض. فأجابه الكل أنّ وصيته مقبولةٌ وأنّ ظهوره مما يجمع الكلَّ على الطاعة والجري إلى الحقيقة.

وانتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحب مالقه ، وقال من غير روية : « إن أحوالي قد ضاقت بتعدّي أخي على بلادي وميراث جدّي! » يشير بذلك أن يأخذ له الأمير بحقّه منّا. فلما قضى كلامه ، قال أمير المسلمين : « هل لقيت أخاك في هذا المعنى ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لي ؟ » فلّما قال له : «لا !» ردّ عليه : « ماينبغي لنا ذلك إلا برضاه !» ولم يمكنا في ذلك الحين السكوت لما يلزم من شكر الأمير ، و[كانت] فرصة لتبيان الحجة ، وإقامة عذرنا ألا ينتسب إلينا بعد نسبه. فقلت له : « إن أمير المسلمين لم تكن غايته إلا ماهو بسبيله من الجهاد ؛ وهو لا يرضى أن ينقض ما أحكمه آباؤنا من قسمة ماقسموه من بلادهم بين ابنائهم. وليس منا أحد حَصّلَ على شيء بقدرته ، إلا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرضى بمن تخيروه. وقد كان الشيخ جدُّنا ـ رحمه الله ـ رتّب ذلك ، ورأى أنّ مالقه لا غنى بها من غرناطة ؛ فجعل أمرها مصروفاً إلينا من بعده ، كالذي كانت في حياته. فأنقضت من الأمر ما أبرم ، وقطعتنا ، وأردت الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل. ولو رأى جدُّك في ذلك صلاحاً ، لأعدّ لك لذلك عُدَّةً تغنيك عنّا ! ولمّا تعديت المرّة بعد المرة ، سعينا في صرف بعض الحال إلى ما رتّبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التي تجب بانحياشك ونفارك. وهذا ماوقع ! فإن شاء أمير المسلمين أن يبتنى من جديد ، وينقض ما رتب الشيخ ، فهو لنا بمنزلته : أمره نافذ ! وإن رأى ما فعل من ذلك سداداً وصلاحاً ، فلأي وجه نكلفه ما لا يليق به ؟ » فلما تكلمت بهذا ، وقعت مساكتة. وأمر الأمير بانصرافنا ، ولم يعد في ذلك بعدها مجلسا إلا في سفرة لييط الملعونة.

وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطلع عياناً وسماعاً من اختلاف

كلمتنا مالم ير وجها لبقائنا في الجزيرة. وأنَّسَ الجميع ؛ ولم يتربص في البلاد ألاّ يوحش سلاطينها ممًا يتوقعونه من انحياش رعيَّتهم إليه ؛ فكل من شكا إليه ذلك الوقت من رعيَّةٍ ، يقول له : « لم نأت لهذا ! والسلاطين أعلم بما يصنعون في بلادهم ! » حتى ازداد بذلك محبَّة إلى ماكان عليه في قلوبنا ، وإليه استنامةً ومَيْلاً. ورجع الكلُّ إلى وطنه» .

(الاميـر عبد الله بن بلقين الزيري ، "كتاب التبيان" ، تحقيق إ.ليفي بروفنصال ، القاهرة ، 1955 ص 1047 - 107).

نص رقم 4 معركة الزلاقة في رواية ابن القصيرة

"جملة من إنشاءاته السلطانية مع مايتعلق بها ويذكر بسببها

له من رقعة وردت على الجناح بهزيمة الطاغية اذفونش ، قصمه الله ، يوم الجمعة المشهور ، الذي أباد الله فيه عبدة الطواغيت على يدي أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، رحمه الله ، قال فيها : كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعزّ الله الدين ، وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين ، بما يَسّر الله في أمسه وسنّاه ، وقدّره سبحانه وقضاه ، من هزيمة أذفونش بن فرذلند ، أصلاه الله - إنْ كان طاح - الجحيم ، ولا أعدمه - ان كان أمْهَل - العيش الذميم ، كما قنعه الخزي العظيم ، وإتيان القتل على أكابر رجاله وحُماته ، وأخذ النهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به جميع محلاته ، وحضور العدد الوافر بين يدي من رؤوسهم ، ولم يحتز منها إلا ما قرب ، وامتلاء الأيدي ممّا قُبض ونُهب ، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها ، والتتبع بعد في آثارهم ، وتمادي الطلب من وراء فرارهم ؛ والذي لامرية فيه أنّ الناجي منهم قليل ، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ، ولم يصبني بحمد الله إلاّ جرح أشوى ، وعنتٌ رغّب حسن المآل عندي وزكّى ، فلا يشتغل لك بذلك بالٌ ، ولا تتوهم فيه غير ماأشرت إليه ، والحمد لله على ماصنع حقّ حمده ، وهو أهْلُ المزيد الذي لا يرجى إلاّ من عنده.

قال ابن بسام : وشهر رجب الذي ذكره كان سنة تسع وسبعين.

ثم ورد كتابٌ من إنشائه يشرحُ جُمل هذا الفتح وتفصيلهُ ، قال في بعض فصوله : وقد علم ماكنا قبل مع عدو الله اذفونش بن فرذلند ، قصمه الله ، من تطأطؤنا واستعلائه ، وتقامئنا وانتخائه ، وأنا لم نجد لدائه دواء ، ولا لبلائه انقضاءً ، ولا لمدة الامتحان به فناءً ،

إلى أن سنّى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين ، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ، معقلي الأحمى - أيدّه الله - ماسنى ، وأدنى من نأي دياره وشحْط مزاره ماأدنى ، فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب ، وأستفتحُ إلى ماكنتُ أتخيَّلُ من نصره الأبواب ، إلى أن ارتفعت الموانع قبله ، وانتهجتْ السبل القصية له ؛ ثم أجاز - على بركة الله وعونه - يريشُ ويَبْري ، وصار بعدُ قُدُماً يخلق ويفري ، ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقري ، وأنا أنجده بوسعي ، وأسعده على حسب مايُطيقه ذَرْعي ، إلى أن صرنا معشر الحلفاء ببطليوس - حرسها الله - واتفق رأينا بعد تشاورٍ على قصد قورية - حرسها الله - وسمع العدوّ - لعنة الله - بذلك ، فصمد من مُحْتَشَدِهِ إليها في جيوشٍ تملأ الفضاء ، وتسدُّ الهواء ، وتمنع أن تقع على ماتحت رايته ذُكاء ، قد تحصنوا بالحديد من قرونهم إلى أقدامهم ، واتخذوا من السلاح مايزيد في جرأتهم وإقدامهم ، ولما أشرف على جَنَابها ، ولسنابها ، ودنا من أعلامها ، ولم يتّجه لنا بعدُ ما أردنا من إلمامها ، دعاهُ تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا ، وحمله نَفْجَةُ وتهوُّره على السلوك في مدرج سيولنا.

وفي فصل منها : فدنونا إليه بمحلاَّتنا - نصرها الله - ثم اضطربناها بازائه ، وأظللنا عليه براياتنا حتى كدنا نركزها بفنائه ، ورأى - لعنه الله - ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه ، فأجمع مضطراً على اللقاء ، وقدَّم بعض أخبيته دَهِشاً في الرقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساط الفضاء ، وقد تيقّن أنه إن أخذ المسلمون مصافهّم ،ورتبوا في مواقعهم كوافَّهم ، اصطُلِمَ عن آخره جمعهُ ، واجتثَّ أصلُهُ وفرعه ، فاهتبل فيما قدَّر غرَّةً ، وحمل ولم يكن - بحمد الله - ما استشعره مرَّةً ، فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور ، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حالٍ مؤذنةٍ بالظهور والوفور ، فتوافق قليلاً الجمعان ، وتجاول ملياً الفريقان ، وللسيوف حكمها ، ومن الحتوف حدُّها المفهوم ورسمها ، ثم صدق أمير المسلمين وناصرالدين - أيده الله - الحملة ، وصدم في جمع لم يكثر عدد الجملة ، فلم يلبث أعداء الله أن ولّوا الأدبار ، واستصرخوا الفرار ، واتبعهم خيل المسلمين - نصرهم اللّه - بقية اليوم والليلة ، تقتلهم في كل

غَوْرٍ ونجد ، وتقتضي أرواحهم على حالين من كالىء ونقد ، ولم يخلص منهم على أيدي المتّبعين ـ آجرهم الله ـ إلا من سيلتهمه البُعد ، ويأتي على حشاشته الجهد ، وأما محلّتهم فانتُهبت في أول وهلة ، وشربت بأسرها في نهلة.

وفي فصل منها :

ولم يُصَبْ بحمد الله من المسلمين ـ وفرهم الله ـ على هول المقام ، وشدّة الاقتحام ، كثيرٌ ، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عددٌ يسير ، فإن كان اذفونش ـ لعنه الله ـ لم يمت تحت السيوف بدداً ، فسيموت لا محالة أسفاً وكمداً ، ونحمد الله على مايسره من هذا الفتح الجليل وسنّاه ، ومنحه من هذا الصنع الجميل وأولاده.

قول أبي بكر فيما كتب به عن المعتمد يومئذ : «ولم يصبني إلا جرح أشوى» تواتر النبأ أنه جرحت يده في ضَنْكِ ذلك المأزِق.

وقيل في يوم الجمعة أشعار سارت بالمغاربة والمشارق ...»

(أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» ، القسم الثاني ، المجلد الاول ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا ـ تونس 1979 ، ص 241 - 244).

نص رقم 5 احتلال المرابطين لقرطبة وإشبيلية

توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد

«وإن المعتمد بن عباد ، لما بصر بدخول الأمير غرناطة ، وآستنجز وعده ، فلم يُلْتَفتْ ، ورأى ثقافها بالمرابطين وإخراج من فيها من الحَشَم وكلٌ من طمع بالبقاء على حاله ، جزع جزعاً شديداً ، وخاف أن يثّنى به ، إذ رأى الأمير مذهبه في البلاد واستصراخه. ولم يمكن للأمير أن يأخذه بغير ذنب : فيقبح ذكره. وأشار إليه المرابطون بثقافه ؛ فأبى حتى يلوحَ قِبَلِهُ ذنب يؤخذ به. ثم إنه ، بعد أن نهض واتبعه قرور يقول له : «الأمير يحتاج إلى تذكارك بعض الأمر!» فأبى ، ومضى لوجهته ، فاراً بنفسه ؛ وأطوى المراحل ، حتى وصل قرطبة. وقال في طريقه إلى ابن الأفطس : « انج بنفسك ! فقد ترى ماحل بصاحب غرناطة ، وغداً بنا ! »

ثم إنه ، بعد أن ظهر للأمير نفورهُ ، وجّهَ إليه يأمره بالقدوم عليه ، ويقول له : «نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله.» : ليقول : «لا !» فيجد السبيل ، كما فعل. فراجَعَهُ ابن عباد : « إنّ ذلك كان وقت كُنْتُ ضَيفاً ، وتريد الغَزْوَ ؛ فلزمتني معونتك بنفسي وجميع أموالي ! والآن إنما أنت لي جار مثل باديس وحفيده ؛ وأنت أقدرُ منّي على الشرّ بجنودك ! فلا يمكنني التغرير بنفسي ، عسى أنك تريد أخذَ بلدي ، إذ لا تصح لك غرناطةُ إلا بما يضاف إليها من الأندلس ! » فشرط عليه أمير المسلمين أن يلتزم الرِّباط ، ويقطع القبالات ؛ وتحامُلاً كثيراً عَلِمَ أنه لا يفعله ؛ وفي تركه أو فعله قطعه. فامتنع ابن عبّاد جَهْدَه ، وبنى على الشرّ.

وبدأ [المرابطُ] بِمُداخَلة مَعَاقِله ؛ فانْتَثَرَتْ ، كما جرى لغيرها ؛ وقامت عليه الرعايا بكلّ قطر. فأرسل إذ ذاك إلى الرومي ، يستغيث به ، فقعد عنه ، خَيْفَةً من التغرير ، وهي حُجَّةُ أمير المسلمين على ابن عبّاد ، أن قال له : «ظفرتُ بكتبك إلى الرُّومي وإرسالك عنه !» فقال المعتمد : « لو فَعَلْتُهُ قَبْلَ أنْ تُؤْخَذَ بلادي بَطَراً وأشَراً ، كنت ألام ! وأمّا بعد أن رأيت

طلبي في الروح ، اضطرّتني الضّرورةُ إلى ذلك للمدافعة ، ولو يوماً واحداً ! » وهي كانت علّةُ الجميع ؛ وبذلك هلك ابن الأفطس ، ومنه أتى.

الاستلاء على قُرْطبة وإشبيلية ونفى ابن عبّاد

فلمّا تبين للأمير خلافه وقعوده عنه ، شاور الفقهاء في أمره ؛ فأشاروا عليه بغزوه. فكان غزوهُ بعد إبلاء عُذْرٍ ؛ ولهذا ما أخرَّ به ليهلك من هلك عن بينّه ولتكون له الحُجَّة على من يريد إخراجه. فأمر الأمير سير بالخروج إليه. ونهض ، ونحن بمكناسة ، ونازلهُ مُدَّةً طويلةً ؛ ومعاقله قد ذهب أكثرها بالطاعة.

وافتتح الأمير بخلال هذا مدينة قُرْطُبة ، واستُشهِدَ فيها ابنه المأمون ووزيراه ابن زيدُون وابن بكر - رحمهم الله - بمداخلة من أهل البلد ، مع انخراق المدينة ، وأنّه لم يمكن ضبطُها إلا بأهلها. وكان المعتمد حذراً على قُرْطُبة ، يرجو بقاء حاله بثبوتها ، ويوصي ابنه بالصبر ، ويقول له :« لا تجزع ! فالموت أهونُ من الذّلّ ! ولَيْسَ السُّلطان إلاّ من القصر إلى القبر ! »

فلما أخذت قرطبة ، انقطع الرجاء. وضاقت إشبيلية ؛ ونفد ماكان من أجل النفقات ، إلى أن دخلها الأمير سير عُنوةً بمداخلةٍ من بعض أهلها. وهلك فيها عالمٌ ، وانكشف الحرم ، إذ للجيش معرّةٌ لا تملك بعد صبرهم على ملكهم. وظهر لسير من اجتهادهم في القتال ما أعجبه ذلك ، وقال : «لو أنّي أقصد مدينة الشرك ، لم تَمتّنع هذا الامتناع! »

وكان دخولها من ناحية الوادي ، وهو أسهل الأماكن. ولولا صَبْر أهلها وكثرة أقارب ابن عبّاد ، لم يستطع [المعتمد] على شيء ؛ فكأنهُ غُلِبَ بالثِّقَاتِ الذين كانت الأبواب بأيديهم ، ووكَلَهم بمن سِواهم ، إلى أن لم يكن مع القضاء مدفعٌ. وكان دخولها يوم الأحد في رجب [سنة 484] ، في التأريخ الذي دُخلت فيه غرناطة بعدها بعام كاملٍ. ودُخلت قبلها قرمونة ومات فيها عالم كثيرٌ. ثُمَّ التَوى أمر رُنْدَة ؛ ونازلَها قَرور ، إلى أن ظفر بالراضى وخدَعَهُ ، وحصل على أمواله ، ثم قتله ، خوفاً من أن تفتضحَ تلك الأموال ؛ وقيل إنَّ ذلك لم يكن عن

رأي السلطان. وأمرَ بقَتْلِ كلٍّ من ظفر به في رندة المذكورة من الأحرار والجند المقاتلين. وقتل فيها رَجُلٌ من العَرَبِ يعرف بأبي الصَّمْصَام ، جرأةً على الله ، ليأخذ بِنْتَهُ ؛ ونكحها من بعده ، وحصل على ماله. (وما ربُّكَ بغَافِلٍ) . وامتسَكَ بالعبيد ، وصيرهم إلى السلطان.

ولمَّا ظفر بابن عبَّاد ، فيَّأ الأمير سير خدمه وعبيده ، حاشى أمهات الأولاد. وأمره أمير المسلمين بإرساله إليه. فتقدم إلينا بمكناسة مع دخلته ، وبقي فيها إلى أن سيق معنا إلى آغمات.

قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكش

وإن أمير المسلمين ، لمَّا فتح الله له في هذا كلِّه ، أخذ في الانصراف إلى مَرُّوكُش ؛ وقد بلغ من آماله غايتها ، وامتلأت يداه بالأموال ؛ وقسم على أجناده بعض من الفيء ، وأهدى إلى الصَّحراويِّ عَمِّه من تلك الذخائر.

وأمرنا أن نستوطن آغمات ؛ فأتيناها ، ولقينا من أمير المسلمين كلَّ جميل ، وأنزلنا بداره الصُّغرى في الحريم ، ولم يَزَلْ يعتقدنا من إنعامه ، كيف ما هيأ الله على يديه ، ووجَدْناه بعد الله أرفق بنا ، وأحسن مذهبٍ فينا من الناس أجمعين ، ومن كلِّ من سبق إليه منَّا إحسان».

(الامير عبد الله بن بلقين الزيري ، "كتاب التبيان" ، تحقيق إ.ليفي بروفنصال القاهرة ، 1955، ص 168 - 171).

نص رقم 6 طليطلة إثر الاحتلال المسيحي (478 هـ)

وعتا الطاغية أذفونش ـ قصمه الله ـ لحين استقراره بطليطلة واستكبر، وأخلّ بملوك الطوائف في الجزيرة وقصر ، وأخذ يتجنى ويتعب ، وطفق يتشوّف إلى انتزاع سلطانهم والفراغ من شأنهم ويتسبب. ورأى أنهم قد وقفوا دون مداه ، ودخلوا بأجمعهم تحت عصاه.

وولى ششنند المذكور تدبير طليطلة ، فهوّنَ عليهم الرزية ، وحبّبَ إليهم إعطاء الدنية ، بما أراهم من سهولة مرامه ، وبسط فيهم من عدلِ أحكامه. حتى استمال قلوب أعلامها ، وحبب التنصر إلى عامة طغامها ، وفجأ المسلمين من اختلاف أهوائهم ، وتنصر سفهائهم ، ما ضاقت عنه صدور الأيام ، واضطربت له قواعد الإسلام. وقد كان من رأي ششنند الإبقاء على أهل طليطلة ، وقال لأذفونش : لستَ تجد بمن تعمرها ، ولا تظفر بعامل أطوع من ابن ذي النون يدبرها ، فأبى أذفونش إلاّ لجاجاً في سفهه ، وانحطاطاً في حبل شرهه. فلما تهيأ له ملكها ، وانتثر في يديه سلكها ، قال له ششنند : اخفض جناحك لأهلها ، واستجلب جاليتها بما تمدُّ من ظلها. ولا تُلِحَّ على ملوك الجزيرة فَلَستَ تستغني عنهم ، ولا تجد عمالا أطوع منهم فإنك إن أبيت إلاّ الإلحاح عليهم ، والتسرُّع بالمكروه إليهم ، نفرتهم عن ذراك ، وأحوجتهم إلى مداخلة سواك. فكان من صنعِ الله أن اتهم أذفونش يومئذ منحاه ، وخالفه إلى ركوب هواه وشرع لوقته في تغيير المسجد الجامع بها ، خاتمة النوائب ، ونكبة الشاهد والغائب. فقال له ششنند : إنكَ إن فعلت أو غرت الصدور ، وأبطلت التدبير ، وسكنت من نشط ، وقبضت من انبسط ، فشمخ أذفونش ـ لعنه الله ـ بأنفه ، وثنى من عطفه ، وأصغى إلى طنانة جنونه وسخفه ، وأمر بتغيير المسجد الجامع يوم ... لربيع الأول سنة ثمان وسبعين وأربعمائة وحدثني من شهد طواغيته تبتدره ، في يوم أعمى البصائر والأبصار منظرهُ ، وليس فيه إلا الشيخ الأستاذ المغامي آخر من صدر عنه ، واعتمده في ذلك اليوم ليتزوَّد منه ، وقد أطاف به مردة عفاريته ، وسرعان طواغيته ، وبين يديه أحد التلامذة يقرأ ، فكلما قالوا له عجِّل ، أشار هو

إلى تلميذه بأن أكمل ، ثم قام ما طاش ولا تهيب ، فسجد به واقترب ، وبكى عليه مليا وانتحب ، والنصارى يعظمون شأنه ، ويهابون مكانه ، لم تمتد إليه يد ، ولا عرض له بمكروه أحد.

وقد حدثت أن شيعة أذفونش ـ لعنه الله وبدّدها ـ أشاروا عليه يومئذ بلبس التاج ، وزينوا له زي من سلف بالجزيرة قبل فتح المسلمين إياها من أعلاج ، فقال : لا ، حتى أطأ ذروة الملك ، وآخذ قرطبتهم واسطة السلك. وكان أعد لمسجدها الجامع ـ حمى الله ساحته من الخطوب الروائع ـ ناقوساً تأنّق في إبداعه ، وتجاوز الحدّ في استنباطه واختراعه ، فالحمد لله موهن أيده ، ومبطل كيده ، وجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدّين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل جزاء المحسنين ، بما بلّ من رماق ، ونفس من خناق ، ووصل هذه الجزيرة من حبل ، وتجشّم إلى تلبية دعائها واستنقاذ ما بها من حزن وسهل ، حتى [ثلّ] عروش المشركين وظهر أمر الله وهم كارهون ، والحمد لله ربّ العالمين» .

(أبو الحسن علي ابن بسام الشنتريني "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ، القسم الرابع ، المجلد الاول ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا ـ تونس 1979 ، ص 167-169) .

نصوص اجتماعية -اقتصادية

نص رقم 7 **حادثة السـوق بإشبيليـة**

ثورة اليهود في اليسانـة

«ولما كنت في تلك الفترة ، بدأت أمور وأسباب دلت على ماكان من الانتقال ومقدمات آذنت بالزوال. فأوّل ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لعلة نذكرها ، وأرق سبب لم يوبه له. وذلك أنّي ، لمّا أمرت ببنيان السُور المتَّصل بالحمراء ، ودبَّرته على تلك النَّصْبة التي أضربت عن شرحها لاشتهارها هيأت السعادة أن وجد البناؤون في الأساس قمقوما مملوءاً ذهباً أعلموني به.

فلما وقفت عليه ، لقيت فيه ثلاثة آلاف مثقال جعفرية. فاستبشرت بها وتفاءلت بنجاح الطلبة والدنيا تسخر بنا كما سخرت بمن قبلنا. فقلت : «من أساسه يكون بنيانه!»

وكانت دارُ أبي الربيع اليهودي الخازن للأموال في دولة جدّي ـ رحمه الله ـ مبنيَّة على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله المدفون. فأتى ابن المرَّة متنصِّحا بالأمر ، ويقول : « أرسلوا عن ابنه ، يكشف لكم سائر دفائنه» فخاطبنا عنه ليرد في بعض الأمر. وكان صهره ابن ميمون ، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة ، وأسدينا إليه جميلاً من التنويه به فاستمال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملَّته ؛ وكان خبيثا . فأحس بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره وساء لذلك ظنَّه وخشي أن يعذب على مال أبيه.

ووافق قبل ذلك ، عند انصرافنا من ليِّيط ، أن فرصنا على أهل اليُسانة ذهباً كثيراً باسم التَّقوية ، لم يجر عادتهم به ، وحملناهم في ذلك على الصحَّة والانطباع ؛ ففرت لذلك أنفسهم. ووجد ابن ميمون المذكور السبيل إلى إغرائهم وحملهم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا

في السلاح ؛ ونادى فيهم أن :«جدُّوا ، معشر بني إسرائيل ، في حماية أموالكم !» وافتضح بذلك ابن ميمون. وسبقت له جناية في قتل عاملنا ابن أبي لولا على المستخلص رياسةً وعدواناً. وامتنعت اليُسَّانَةُ بالجملة.

فلما رأيت ذلك ، لم أجد بداً من مداراة الأمر. واشترط مؤمل بإصلاحه ، ونهض. ثم إني عملت رأيي بعده ، وعلمت أنه لا يلقى إلا أحد وجهين إما طاعة على غشٍ ، أو عصياناً ؛ وأيُّهما كان ، فإرسال العسكر إليه واجبٌ ، وشدَّةٌ وترهيب ، ليعلموا قدر ماجنوه ، وخرجت بنفسي في أثره ، وقد اجتمعت إلي الأنداب. فإذا بمؤمل قد أقبل منصرفاً ، وردنا عن ذلك المذهب ، وقال لي : «قد أصلحت الأمر مع ابن ميمون. ونهوضك إليه لايزيد القوم إلا نفاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عبَّاد ، لا سيما أنه الآن بقرطبة ، وليست تؤخذ بإحصار ولا قتال !» على أني قد علمت أن ابن عبَّاد لا يجيبهم في ذلك الوقت كلِّه ، ولا اشتهر بذلك إلا ماكان الناس يذكرونه ، وابن ميمون يفتخر به ويطمع به أهل اليسانة. »

(الأمير عبد الله بلقين الزيري ، «كتاب التبيان » ، تحقيق إ. ليفي بروفنصال ، القاهرة ،1955 ص 130 - 131).

نص رقم 8 بربشتر "إيجاز الخبر بحادثة بربشتر ورجوع المسلمين إليها"

قال أبو مروان (ابن حيان : وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة تغلب العدو على مدينة بَرْبَشترُ قصبة برطانية ، الواسط لما بين بلدتي لاردة وسرقسطةَ ، وكني الثغور العلا ، وهي الأم البرزة ، التليد حلول الإسلام فيها لأول فتوح موسى بن نصير ، التي لم تزل من أقادم معمورات من تناسخ عمارة الأندلس من القرون الخالية ، اتخذت بأكرم البقاع وأوثق البناء ، راكبةٌ لنهر ماردة سوراً مضروباً لأهل الثغور القصى ، والدفع) في وجوه العدى ، تناسختها قرون المسلمين منذ ثلاثمائة وثلاث وستين سنة ، منذ أول عهد الفتوح الإسلامية بجزيرة الأندلس ، فرسخ فيها الإيمان ، وتدورسَ بها القرآن ، إلى أن طرق الناعي بها قرطبتنا فجأة ، صدر شهر رمضان من العام ، فصك الأسماع وأطار الأفئدة وزلزل الأرض الأندلسية قاطبة ، وصير للكل شغلاً تسكع الناس في التحدث به والتسآل عنه والتصور لحول مثله أياماً لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوجل ، والاغترار بالأمل ، والإسناد إلى أمراء الفرقة الهمل ، الذين هم منهم ما بين فشل ووكلٍ ، يصدونهم عن سواء السبيل ، ويلبسون عليهم وضوح الدليل.

ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملح فيهم : الأمراء والفقهاء ، قلما تتنافر أشكالهم ، بصلاحهم يَصْلُحون ، وبفسادهم يُرْدَوْنَ ، فقد خصَّ الله تعالى هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج صنيفهم لدينا هذين ، بما لا كفاية له ولا مخلص منه ، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق ، ذياداً عن الجماعة ، وحوشاً إلى الفرقة ، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدوف عمّا أكد الله عليهم في التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكلٍ من حلوائهم ، خائضٍ في أهوائهم وبين مستشعرٍ مخافتهم ، آخذ بالتقية في صدقهم ، وأولئك هم الأقلّون فيهم ، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها ، وان أصبحت

بصددٍ من خبالها : هل هي إلا مشفية على بوارها واستئصالها ؟ ! ولقد طما العجبُ من أفعال هؤلاء الأمراء ، أن لم يكن عندهم لهذه الحادثة الغراء في بربشتر إلاّ الفزع إلى حفر الخنادق وتعلية الأسوار ، وشد الأركان ، وتوثيق البنيان ، كاشفين لعدوهم عن السوءة السوءاء من إلقائهم [يومئذ] بأيديهم إليهم : أمور قبيحاتُ الصُّور ، مؤذنات الصدور بأعجاز تحلُّ الغير :

أمور لو تدبَّرها حكيم * إذن لنهى وهيَّبَ ما استطاعا

ولكن ما الحيلة في أديمٍ تفرّى تعيُّناً ، فغلب الصنَّاعَ ، يخالها العاجزُ سحيلات محلولةً وهي في حكمة القدير مبرَمةٌ مفتولة ، ضلَّ فيها الحكماء قبلنا ، فلنا في الإقصارِ عن كشفها مندوحة ؛ فلنأخذ فيما افتتحنا القول فيه من حديث المصيبة الفادحة في بربشتر :

وهو أنَّ جيش الأردمانيين طنَّبوا عليها ووالوا حَصَرَها ، وجدُّوا في قتالها طامعين فيها وقد أسلمهم أميرهم يوسف بن سليمانَ بن هود لخطبهم ، ووكلهم إلى أنفسهم ، وقعد عن النفير نحوهم ، فأقام عليها العدوُّ منازلاً أربعين يوماً ؛ ووقع بين أهلها تنازع على القوت لقتله ، ولما علم العدو بذلك جدَّ في القتال ، فدخل الكفرة المدينة البرانية في نحو خمسة آلاف دارع ، فَبُهت الناس وتحصنوا بمدينتهم الداخلة ، ودارت بينهم حرب شديدة قُتِلَ فيها من النصارى خمسمائة ؛ ثم اتفق من قدر الله تعالى أن قناة من عمل الأوائل ، سَرَباً تحت الأرض بتقديرٍ موزون إلى أن أفضت إلى شطِّ النهر ، فانهارت في نفس ذلك السَّربِ صخرةٌ عظيمة الجرم [صفوانة الخلق] من حجارة بناية الأول سدَّت السَّرَبَ بأسره ، فعدموا الماء وأيسوا من الحياة ، ودعوا إلى تأمينهم على النزول بأنفسهم خاصّة دون مال وعيال ؛ فأعطاهم أعداء الله ذلك ، فلما خرجوا نكثوا بهم وقُتِلوا معاً ، ولم يطلِقوا منهم غيرَ قائدهم ابن الطويل وقاضيهم ابن عيسى في نفرٍ من الوجوه قليلٍ عددهم ، فحصلوا من غنائم بربشتر على ما لا يُقَدر [حصرُهُ] كثرةً ؛ زَعموا أنه صار لأكبر رؤسائهم ، قائد خيل رومةَ ، في حصتّه نحو ألفٍ وخمسمائة جاريةٍ أبكاراً كلهن ، ومن أوقار الأمتعة من الحليِّ والكسوة والوطاء خمسمائة حمل. وتُحدِّثَ أيضاً أنه أصيب في هذا القتل والسبي مائة ألف نسمة ، وشدَّ الكفار أيديهم

بمدينة بربشتر واستوطنوها ، وهلك من نساء بربشتر جملةٌ يكثر عدّها عند إفلاتهنّ من عطش القصبة لتطارحهن على الماء ، يكرَعنَ فيه بغير مَهَل ، فكبُّهن للأذقان موتى. وكان الخطب في هذه النازلة أعظم من أن يوصف أو يتقصّى ...

قال أبو مروان [ابن حيان] : وأختم هذه الأخبار البربشترية ، الموقظة لقلوب أولي الألباب ، بنادرة منها يُكتفى باعتبارها عما سواها ، وتمثل لذوي النهي صورةَ البلوى التي تتوقع شرواها ، وهي ماحكاه لي بعضُ مَنْ أكاتبه بالثغور عن رجلٍ من تجار اليهود ، أتى بربشتر البائسة بعد الحادثة [عليها] ، ملتمساً فديةَ بنات لبعض وجوه من نجا من أهلها حصلنَ في سهم قومس من وجوه الرابطة فيما كان يعرفه ، قال : فهديت إلى منزله الذي كان نزله فيها ، واستأذنت عليه ، فأجدُهُ جالساً مكان ربِّ الدار مستولياً على فراشه ، رافلاً في نفيس ثيابه ، والمجلس والسرير كما تخلفهما ربهما يوم محنته ، لم يتغير شيء من ريشهما وزينتهما ، ووصائف على رأسه رُوَقَةٌ مضمونات الشعور قائمات على رأسه ساعيات لخدمته ؛ فرحَّب بي وسألني عن قصدي ، فعرَّفتُهُ وجهه ، وأشرت له إلى وفور ماأبذله في بعض اللواتي على رأسه ، وفيهنَّ كانت حاجتي ، فابتسم وقال بلسانه : لسريعٌ ما طمعت من قرب فيما أبرزناه لكْ ، فأعرض عمن هاهنا ، وتعرَّض لمن شئتَ ممن صيَّرتُهُ بحصني من سبيي وأسراي أقاربْكَ في من شئت منهن ؛ فقلت له : أما الدخول إلى الحصن فلا رأيَ لي فيه ، وبقربك أنستُ ، وفي كنفك اطمأننتُ ، فسمني ببعض من هاهنا فإني أصير إلى رغبتك ؛ فقال : ومالذي عندك مما تشوقني إليه ؟ قلت له العين الكثير الطيِّب ، والبزُّ الرفيع الغريب ؛ قال : كأنك تشهيني ماليس عندي : يابجة ـ ينادي بعض أولئك الوصائف : يريد يا «بهجة» [فيغيره] بعجمته ـ قومي فاعرضي على هذا اليهودي الخدّاع مما في ذلك الصندوق ؛ فقامت اليه ، وأقبلت ببدر الدنانير وأجناس الدراهيم وأسفاط الحليِّ ، فكشفَ وجعل بين يدي العلج حتى كادت تواري شخصهُ ؛ ثم قال لها : ادني إلينا من تلك التخوت ، فأدنت منها عدةً من قطع الوشي والخز والديباج الفاخر بما حار به ناظري وبهتُّ ، واسترذلتُ ماعندي. ثم قال [لي]:

لقد كثر هذا عندي حتى ماألذ به ، ثم حلف بإلهه وآبائه : لو لم يكن عندي شيءٌ من هذا ثم بذل لي بأجمعه في ثمن مدنّيته إليك ماسختْ نفسي بها فيه ، فهي ابنة صاحب المنزل ، وله حسَبٌ في قومه ، اصطفيتها له مع جملها لولادتي ، حسبما كان قومها يصنعونه بنسائنا نحن أيام دولتهم ، وقد رُدَّ لنا الكرَّةُ عليهم ، فصرنا الآن فيما تراه ؛ وأزيدك بأنّ تلك الخود الناعمة - وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية - لمغنية السخين العين والدها التي كانت تشدو له على نشواته ، إلى أن أيقظناه من نوماته ؛ يافلانة - يناديها بلكنته - خذي عودكِ فغنى زائرنا بشجوك ؛ قال : فأخذت العود وقعدت تسويه ، وإني لأتأمل دَمعَها يقطر على خدها ، فتسارق العلج مسحه ، واندفعتْ تغنّي بشعرٍ مافهمتُهُ أنا ، فضلاً عن العلج ، فصار من الغريب أن حثَّ شُرْبَهُ هو عليه ، وأظهَرَ الطرَبَ منه. فلما قطعتْ ويئست مما عنده ، قمتُ منطلقاً عنه ، وارتدتُ لتجارتي سواه ، فاطلعت من كثرة مالدى القوم من السبي والمغنم [على] ماطال عجبي منه. فهذا فيه مَقْنَعٌ لمن تدبره ، وتذكرةٌ لمن تذكَّره» .

(أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،" القسم الثالث ، الجزء الاول تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا - تونس ، 197 ، ص 1979 - 188).

نص رقم 9 **الحالة في غرناطة قبل تسليمها للمرابطين (483 هـ)**

« ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحركاتهم ، اطلعنا على أمور دليلة على الانتقال ، مؤذنة بالزوال ؛ وقسّمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ، مع المُعاينة لما عَمِيَ قَبْلُ ، إظهار ما خَفِيَ ، إذ لا حَرَج ولا هيبة ولا صولة تتقى. أما الجند من البربر ، فكانوا مغتبطين بهم ، طامعين في الزِّيادة على أيديهم للجنسيّة. واتفق رأيهم على ألا يلقوه بحجرٍ ، وقدموا كُتُبَهم بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يَعِدُهم بأن يبقيهم في أماكنهم على أفضل ماكانوا عليه ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوقى ، تقلع إلى السُّفلى بأهله وماله ، وبقي هو بنسمته منفرداً متأهِّباً للشرِّ ، إمَّا بالخروج إليه من الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرُّؤ منا.

ومن كان من التجار وأهل البلد ، فكانوا على نيَّةٍ أنهم مع من سبق ، ولا طاقة لهم بالحرب ، ولاهُمْ أهلُهُ ؛ وأكثرهم خرج من البلدة يقول : «لأي وجهٍ نحتمل الحصار ؟ تاجرٌ هنا وصانع كما في غَيْرها !» وأما الرعيَّة ، فبخٍ بَخٍ ذلك ماكانت تبغى ، طَمَعاً منها في الحُرِّية ، وأنَّها لا يلزمها غير الزكاة والعشر.

وأما الرَّقاصة من المغاربة ، الذين كانوا عماد الحضرة ، وبهم كُنَّا نُمسك الحصون ، فهم أول من طاع ، وأعْيُنٌ من بالحضرة إليهم يقولون : مالذي خالف بنا عن صنيع بني عَمِّنا ؟ » فلم نجد في صنف منها راحة يرجى معونتُها!

وأمَّا العبيد والصَّقالبة ، فالعبيد الأعلاج ، أول من عصا ، كما ذكرنا ، بلَوْشة ، رَجَوْا أن يكونوا عنده في أعلى مرتبة ، ولم يفكروا في عاقبةٍ أن يخطوْا عنده ، فيقول :« مانصحوا مولاهم رَبَّ الإحسان إليهم ! فكيف غيره؟ » إلاَّ أن كلَّ واحد بشَهْوَته بين عينيه ، للذي شاءه الله - لا راد لأمره ولا مُعَقِّب لحكمه !

حتّى الخَدَم من النساء والخصيان : كلُّ طامعٌ في إقبال الدُّنيا عليه ، والخراج عن ثقاف القصر إلى راحة التسريح ، والاستهتار بالرجال ، وما أشبه ذلك. فجعفر الخصيُّ منهم ولبيبٌ كانا زعيمى المداخلة ورأس الفتك ، يقولان : «نحن لا وَلَدَنا ولا تَلِد ! فعلى أي شيء نصبر على القتال ؟ وماعسى نطمع أن نصيرَ إليه : هل يجمعنا بنا سلطَنةٌ أو قيادةٌ أو قضاءٌ أو فقه؟ إنَّما نحن بمنزلة العيال : من سبقَ استمتع بنا ، وكُنّا عنده من جلمة الفيء ، نرزق كسائر الكسب ، فلا نضيع ! تعالوا بنا ! نقدِّم لأنفُسنا !» فوردت عليهم كُتُبُ أمير المسلمين بالإنزالات القَويَّة ، والمثاقيل ، والمراتب العالية ، يعَدِهم بذلك عند إكمال حاجته وإسلامهم لنا حتى اتفقت من كلٍّ جهة. »

(الأمير عبد الله بن بلقين الزيري ، "كتاب التبيان" تحقيق إ.ليفي بروفنصال ، القاهرة 1955 ، ص 100 - 101).

نص رقم 10 قتل المعتضد بن عباد لابنه إسماعيل

«وله عنه رقعة أقتضبها تخفيفاً للتطويل ، شرح فيها قتله لابنه إسماعيل. قال ابن بسام : وكان عبّاد قد ألحق يومئذ بابنه حاشيةً وأبلغ في المثلة ، وتجاوز بها إلى من نشأ في الحيلة ، وما حماها عنده من الظباء ثديٌ ناهد ، ولا شفقة الوالد. أخبرني من لا أردُّ خبره من وزراء اشبيلية قال : شهدنا مجلسه بعد ثالثة ، من هذه الحادثة ، ووجه قد اربدَّ ، وودَّ كلُّ واحد [منهم] أنه لم يشهدْ ، ولم يزيدوه على السّلام ، وأرتجَ عليهم الكلامُ ، فَصوَّب فيهم وصعَّدَ ، وزأر كالأسد وقال : ياشامتين ، مالي أراكم ساكتين ، اخرجوا عني. فقام كلٌّ يجر ساقيه ، ولا يقدمُ أحدٌ أن يطرف بشفره إليه ، فلما صرنا بباب القصر ، دعا بنا فانصرفنا ، وأذن لنا في الجلوس فجلسنا ، ثم خرج أمره بأن يحضر الكاتب ابن عبد البرّ ، فدخل ، ومجلسهُ قد احتفل ، وقال له : اكتبْ إلى ابن أبي عامر ، وحلِّل دم الخائن الغادر ، وكلاماً هذا معناه. وجاءه الغلام بجلد الرقّ والدواةِ ، والوزراءُ والخاصة جلوسٌ بذلك المقام ، وقالوا في أنفسهم : ماعسى أن يتجه لابن عبد البر من كلام ، على هذه الحال ، لاسيما على الارتجال ؛ قال المحدث : فسوّى الجلد ، وجعل يستمدُّ ويكتبُ ، وعينُ المعتضد فيه تصعد وتصوب ، فلما فرغ منه أسمعه ذلك إلى آخره ، وخرجوا عنه وهم يرون أن ابن عبد البر من آياته فاطره... »

(أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" ، القسم الثاني ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا ـ بيروت ، 1979 ، ص 136 - 137).

نص رقم 11 في فضل أهل الاندلس لابن حزم

«وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة ، مسقط رؤوسنا ومعقُّ تمائمنا ، مع سُرَّ من رأى في إقليم واحد ، فلنا من الفهم والذكاء ماإقتضاه إقليمنا ، وإن كانت الأنوار لاتأتينا إلاّ مغرّبة عن مطالعها على الجزء المعمور. وذلك عند المحسنين للأحكام التيء تدل عليها الكواكب ناقص من قوى دلائلها ، فلها من ذلك ، على كل حال ، حظٌ يفوق حظَّ أكثر البلاد ، بارتفاع أحد النيرين بها تسعين درجة ، وذلك من أدلة التمكن في العلوم ، والنفاذ فيها عند من ذكرنا ، وقد صدق ذلك الخبر ، وأبانته التجربة ، فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات ، وحفظ كثير من الفقه ، والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب والنجوم ، بمكان رحب الفناء ، واسع العطن ، متنائي الأقطار ، فسيح المجال ...

ومن الأخبار : تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم وذلك كثير جداً ، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها ، على نحو مابدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد ، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها، وتواريخ متفرقة رأيت منها : أخبار عمر بن حفصون القائم برية ووقائعه وسيره وحروبه. وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجليقي القائم بالجوف وفي أخبار بني قسي والتُجيبيين وبني الطويل بالثغر فقد رأيت من ذلك كتباً مصنفة في غاية الحسن ، وكتاب مجزأ في أجزاء كثيرة في أخبار رية وحصونها [وولاتها] وحروبها وفقهائها وشعرائها تأليف إسحاق بن سلمة بن إسحاق القيني ، وكتاب محمد بن الحارث الخشني في أخبار القضاة بقرطبة وسائر بلاد الأندلس ، وكتاب في أخبار الفقهاء بها. وكتاب لأحمد بن محمد بن موسى في أنساب مشاهير أهل الأندلس ، في خمسة أسفار ضخمة من أحسن كتابٍ في الأنساب وأوسعها ، وكتاب قاسم بن أصبغ في الأنساب في غاية الحسن والإيعاب والإيجاز. وكتابه في فضائل بني أمية. وكان من الثقة والجلالة بحيث اشتهر أمره وانتشر ذكره ، ومنها كتب مؤلفة في أصحاب المعاقل والأجناد الستة بالأندلس. ومنها كتب كثيرة جمعت فيها أخبار شعراء

الأندلس للمستنصر رحمه الله تعالى ، رأيت منها أخبار شعراء البيرة في نحو عشرة أجزاء ، ومنها كتاب الطوالع في أنساب أهل الأندلس ، ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس [وملوكها] تأليف أبي مروان ابن حيان نحو عشرة أسفار ، من أجل كتاب ألف في هذا المعنى ، وهو في الحياة بعد ، لم يتجاوز الاكتهال ، وكتاب المآثر العامرية لحسين بن عاصم في سير ابن أبي عامر وأخباره ، وكتاب الأقشتين محمد بن هاشم النحوي في طبقات الكتاب بالأندلس. وكتاب سكن بن سعيد في ذلك. وكتاب أحمد بن [محمد بن] فرج في المنتزين والقائمين بالأندلس وأخبارهم. وكتاب أخبار أطباء الأندلس لسليمان بن جلجل.

وأمّا الطب : فكتب الوزير يحيى بن اسحاق وهي كتب رفيعة حسان. وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى ، وهو المعروف بابن الكتاني ، وهي كتب رفيعة حسان. وكتاب التصريف [لمن عجز عن التأليف] لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه ، ولئن قلنا إنّه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع ، لنصدّقن. وكتب ابن الهيثم في الخواص والسموم والعقاقير من أجل الكتب وأنفعها.

وأمّا الفلسفة : فإنّي رأيت فيها رسائل مجموعة وعيوناً مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار ، دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، وأما رسائل أستاذنا أبي عبد الله بن الحسن المذحجي في ذلك فمشهورة متداولة وتامة الحسن فائقة الجودة عظيمة المنفعة.

وأما العدد والهندسة فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ ، ولا تحققنا به ، فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيه من أهل بلدنا ، إلا أني سمعت من أثق بعقله ودينه من أهل العلم ممّن اتفق على رسوخه فيه يقول : إنّه لم يؤلف في الأزياج مثل زيج مسلمة وزيج ابن السمح ، وهما من أهل بلدنا. وكذلك كتاب لأحمد بن نصر [في المساحة المجهولة] فما تقدم إلى مثله في معناه.

وإنما ذكرنا التآليف المستحقة للذكر ، والتي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عالم إلاّ في أحدها ، وهي إمّا شيء لم يسبق إليه يخترعه أو شيء ناقص يتمه أو شيء مستغلق يشرحه أو شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه ، أو شيء متفرق

يجمعه أو شيء مختلط برتبه ، أو شيء أخطأ فيه مؤلفه يصلحه. وأمّا التآليف المقصرة عن مراتب غيرها فلم نلتفت إلى ذكرها ، وهي عندنا من تأليف أهل بلدنا أكثر من أن نحيط بعلمها.

وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ، ولا اختلفت فيها النحل ، فقلّ لذلك تصرفهم في هذا الباب ، فهي على كل حال غير عريّة عنه ، وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ، نُظّارٌ على أصوله ، ولهم فيه تآليف منهم : خليل بن إسحاق ويحيى بن السمينة والحاجب موسى بن حدير وأخوه الوزير صاحب المظالم أحمد ، وكان داعية إلى الاعتزال لا يستتر بذلك.

ـ ولنا على مذهبنا الذي تخيرناه من مذاهب أصحاب الحديث كتاب في هذا المعنى ، وهو وإن كان صغير الجرم ، قليل عدد الورق ، يزيد على المائتين زيادة يسيرة ، فعظيم الفائدة لأنّا أسقطنا فيه المشاغب كلّها ، وأضربنا عن التطويل جملة ، واقتصرنا على البراهين المنتخبة من المقدمات الصحاح الراجعة إلى شهادة الحس وبديهة العقل لها بالصحة ، ولنا فيما تحققنا به تآليف جمة ، منها ماقد تم ، ومنها ما شارف التمام ، ومنها ما قد مضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه ، لم نقصد به قَصْدَ مباهاةٍ فنذكرها ، ولا أردنا السمعة فنسميها والمراد بها ربنا جل وجهه ، وهو ولي العون فيها ، والمليّ بالمجازاة عليها ، وماكان لله تعالى فسيبدو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تآليف أهله ما إن طُلِبَ مثلها بفارس والأهواز وديار مضر ربيعة واليمن والشام ، أعوز وجود ذلك ، على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومراد المعارف وأربابها » .

(«الرد على ابن النغرالة» لعلي ابن حزم في كتاب : «رسائل ابن حزم» تحقيق الدكتور إحسان عباس ، الجزء الثاني ، بيروت ،1981 ص 174 - 175 و 182 - 187).

نص رقم 12

فصل في ذكر الفقيه القاضي أبي الوليد الباجي ، من باجة الأندلس ، والاتيان بلمعة من أخباره التي زاحمت في بيوت شرفها الكواكب

«قال ابن بسام : نشأ أبو الوليد هذا وهمته في العلم تأخذ بأعنان السماء ، ومكانه من النثر والنظم يسامي مناط الجوزاء، وبدأ في الأدب فبرز في ميادينه ، واستظهر أكثر دواوينه ، وحمل لواء منثوره ، وموزونه ، وجعل الشعر بضاعته فوصل له الأسباب بالأسباب ، ونال به مأكل القُحم الرغاب ، حتى جُنَّ الإحسان بذكره ، وغنَّى الزمان بغرائب شعره ، واستغنت مصر والقيروان بخبره عن خُبْرِه ، ولم تزل أقطار تلك الآفاق تواصله ، وعجائب الشام والعراق تغازله، حتى أجابَ ، وشدَّ الركاب ، وودَّعَ الأوطان والأحباب ، فرحل سنة ستٌ وعشرين ، فما حلَّ بلداً إلا وجده ملآنَ بذكره ، نشوانَ من قهوتَيْ نظمه ونثره ، ومال إلى علم الديانة ، وقد كان قبل رحلته تولّى إلى ظله ، ودخل في جملة أهله ، فمشى بمقياس ، وبنى على أساس ، فلم يبعد أن أصبح نسيجَ وحده ، في حلّه وعقده ، حتى صار كثيرٌ من العلماء يسمعون منه ، ويرتاحون إلى الأخذ عنه ، وحتى علم العلمُ أنَّ له أشكالاً ، وتيقن أهل العراق أن بالأندلس رجالاً ، ثم كرَّ ، وقد نفع وضرَّ ، وأحلى وأمر ، واستقْضي بطريقه بحلب ، فأقام بها نحواً من عام ، ثم نازعه هوى نفسه ، إلى مسقط رأسه ، ومنبت غرسه ، من أرض الأندلس ، فورد وعشب بلادها نابٌ وظفر ، وصوب عهادها دمٌ هَدَر ، ومالها لا عين ولا أثر ، وملوكها أضداد ، وأهواءُ أهلها ضغائنُ وأحقاد ، وعزائمهم في الأرض فساد وإفساد ، فأسف على ماضيِّعه ، وندم لو أجدى عليه ذلك أو نفعه ، على أنه لأول قدومه رفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة مانبتتْ من تلك الأسباب ، فقام مقام مؤمن آل فرعون لو صادف أسماعاً واعية ، بل نفخ في عظامٍ ناخرة ، وعكف على أطلال داثرة ، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه بالتأنُّس والتقريب ، وهو في الباطن يَسْتَجْهِلُ نَزْعَتَهُ ، ويستثقل طلعته ، وما كان أفطن الفقيه ، رحمه الله ، بأمورهم ،

وأعلمه بتدبيرهم ، لكن كان يرجو حالاً تثوب ، ومذنباً ، ولم يَخْلُ مع ذلك من تأليف الدواوين وتدريسها ، وتشييد المكارم وتأسيسها.

بلغني عن الفقيه أبي محمد بن حزم أنه كان يقول : لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب مثل أبي الوليد الباجي. وقد ناظره بميورقة ففلَّ من غَرْبِهِ ، وسبَّبَ إحراق كتبه ، ولكن أبا محمد وإن كان اعتقد خلافه ، فلم يَطَّرِحْ إنصافه ، أو حاول الردَّ عليه ، فلم ينسب التقصير إليه.

وتوفى أبو الوليد الباجي ، رحمه الله ، سنة أربع وسبعين ، وهو بسبيله من تصنيف الدواوين ، في علوم الدين ، وقد أخرجتُ ماوجدت من كلامه في هذا الفن الذي أنا في إقامة أوده» .

(أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» القسم الثاني ، الجزء الأول. تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا بيروت ، 1979 ص . 94 - 96).

نص رقم 13 انتقاد ابن حزم للاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في عصر الطوائف

«وأما ما سألتم عنه من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس بها مع ماظهر من تربُّصِ بعضهم ببعض ، فهذا أمرٌ امتحنا به ، نسأل الله السلامة. وهي فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقي الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب. وعمدةُ ذلك أن كل مدبِّر مدينة أو حصن في شيء من أندلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محاربٌ لله تعالى ورسوله وساعٍ في الأرض بفساد ؛ للذي ترونه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارّهم ، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يقضون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام ، معتذرون بضرورةٍ لا تبيح ماحرم الله ، غرضهم فيها استدامُ نفاذِ أمرهم ونهيهم. فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساقُ والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلودَ الضأن على قلوب السباع ، المزينون لأهل الشرِّ شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم. فالمخلصُ لنا فيها الإمساك للألسنة جملةً واحدةً إلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذم جميعهم ؛ فمن عجز منا عن ذلك رجوتُ أن تكون التقيةُ تسعُهُ ، وما أدري كيف هذا ، فلو اجتمع كلُّ من ينكر هذا بقلبه لما غُلِبوا. فقد صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». وجاء في بعض الأحاديث : ليس وراء ذلك من الايمان شيء ، أو كما قال عليه السلام ، وجاء في الأثر الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : «لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليعمّنكم الله بعذاب». واعلموا رحمكم الله أنه لا عذاب أشد من الفتنة في الدين ، قال الله تعالى : (والفتنةُ أشدُّ من القَتْلِ) (البقرة : 191) ، فأما الغرض الذي لايسع أحداً فيه تقية ، فأن لا يعين ظالماً بيده ولا بلسانه ، ولا أن يزّين له فعله ويصوِّب شره ، ويعاديهم بنيته ولسانه عند من يأمنه على نفسه ، فإن اضطر إلى دخولِ مجلس أحدهم لضرورةِ حاجةٍ أو لدفع مظلمة عن نفسه أو عن مسلم ، أو لإظهار حق يرجو إظهاره ، أو الانتصاف من

ظالم آخر ، كما قال تعالى : (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بعض الظَّالمين بعضاً بما كانُوا يَكْسِبُون) (الأنعام : 129) أو لصداقة سالفة ـ فقد يصادق الإنسان المسلم اليهوديَّ والنصرانيَّ لمعرفة تقدمت ـ أو لطلب يعانيه ، أو لبعض ما شاء الله عز وجل ، فلا يزيِّن له شيئاً من أمره ولا يعينه ولا يمدحه على ما لا يجوز ، وإن أمكنه وعظه فليعظه ، وإلا فليقصد إلى ما له قصد غير مصوِّبٍ له شيئاً من معاصيه ، فإن فعل فهو مثله ، قال تعالى : (ولاَ تَرْكَنُوا إلى الّذين ظلموا فَتَمَسَّكُم النارُ) (هود :113) وفي هذا كفاية.

وأما ما سألتم عنه من وجه السلامة في المطعم والملبس والمكسب ، فهيأت أيها الإخوة ، إن هذا لمن أصعب ما بحثم عنه وأوجعه للقلوب وآلمه للنفوس. وجوابكم في هذا أن الطريق هاهنا طريقان : طريق الورع ، فمن سلكه فالأمر ـ والله ـ ضيق حرج. وبرهانُ ذلك أني لا أعلم لا أنا ولا غيري بالأندلس درهماً حلالاً ولا ديناراً طيباً يُقْطَعُ على أنه حلال ، حاشا ما يستخرَجُ من وادي لاردة من ذهب ، فإن الذي ينزل منه في أيديهم ، يعني أيدي المستخرجين له بعدما يؤخذ منهم ظلماً فهو كماء النهر في الحلِّ والطيب ، حتى إذا ضُرِبَتِ الدراهم وسبكت الدنانير فاعلموا أنها تقعُ في أيدي الرعية فيما يبتغونه من الناس من الأقوات التي لا تؤخذ إلا منهم ، ولا توجد إلا عندهم من الدقيق والقمح والشعير والحمص والعدس واللوبيا والزيت والزيتون والملح والتين والزبيب والخل وأنواع الفواكه والكتان والقطن والصوف والغنم والألبان والجبن والسمن والزبد والعشب والحطب. فهذه الأشياء لا بد من ابتياعها من الرعية عُمَّار الأرض وفلاحيها ضرورة. فما هو إلا أن يقع الدرهم في أيديهم ، فما يستقر حتى يؤدوه بالعنف ظلماً وعدواناً بقطيع مضروب على جماجمهم كجزية اليهود والنصارى ، فيحصل ذلك المال المأخوذ منهم بغير حقٍّ عند المتغلب عليهم ، وقد صار ناراً ، فيعطيه لمن اختصه لنفسه من الجند الذين استظهر بهم على تقوية أمره وتمشية دولته ، والقمع لمن خالفه والغارة على رعية من خرج من طاعته أو رعية من دعاه إلى طاعته ، فيتضاعف حرُّ النار ، فيعامل بها الجندُ التجار والصُّناع ، فحصلت بأيدي التجار عقارب وحياتٍ وأفاعي ، ويبتاع بها التجارُ من الرعية ، فهكذا الدنانير والدراهم كما ترون عياناً دواليبُ في نار جهنم ، هذا مالا مدفع فيه

لأحد. ومن أنكر ماقلنا بلسانه فحسبه قلبه يعرفه معرفة ضرورية. كعلمه أن دون غدٍ اليوم. فإذا فاتنا الخلاص فلا يفوتنا الاعتراف والندم والاستغفار. ولا نجمع ذنبين : ذنب المعصية وذنب استحلالها ، فيجمع الله لنا خزيين وضعفين من العذاب. نعوذ بالله من ذلك ، ولنكن كما قال تعالى : (والذين إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظلموا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغفرُ الذُّنوب إلا الله ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهُمْ يعلمون) (آل عمران : 135) ، هذا مع مالم نزل نسمعه سماع استفاضة توجب العلم الضروريّ أن الأندلس لم تُخَمَّسْ وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استطيب أنفس المستفتحين ، وأقرت لجميع المسلمين ، كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح ، لكن نُفِّذَ الحكمُ فيها بأنَّ لكلٍّ يدٍ ما أخذت. ووقعت فيها غلبة بعد غلبة ، ثم دخل البربر والأفارقة فغلبوا على كثير [من القرى دون قسمة] ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا في المواشي ماترون من الغارات و [في] ثمار الزيتون ماتشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم إلا القليل التافه ، ومشى في بلاد المتغلبين يقيناً العرى الحالسة ظلم بظلم. وهذا باب الورع وقد أعلمتكم أنه ضيق.

وأما الباب الثاني فهو باب قبول المتشابه ، وهو في غير زماننا هذا باب جيد لأنه لا يؤثم صاحبه ، ولا يؤجر ، وليس على الناس أن يتجنَّوا على أصول مايحتاجون إليه في أقواتهم ومكاسبهم إذا كان الأغلب هو الحلال وكان الحرام مغموراً. وأما في زماننا هذا وبلادنا هذه ، فإنما هو باب أغلق [........] فرقت بين زماننا هذا والزمان الذي قبله لأن الغايات [.......] فإنما هي جزية على رءوس المسلمين يسمونها بالقطيع ، ويؤدونها مشاهرةً وضريبة على أموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شيء ما ، وقبالات ما ، تؤدي على كل ما يباع في الأسواق ، وعلى إباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد. هذا كل مايقبضه المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الأستار ونقض شرائع الإسلام وحل عراه عروة عروة ، وإحداث دين جديد ، والتخلي من الله عز وجل. والله لو علموا

أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها ، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم ، وربما يحمونهم عن حريم الأرض وحسرهم معهم آمنين ، وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً فأخلوها من الإسلام وعمروها بالنواقيس ، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه.

فإن قلتم : نحن نجتنب اللحم ، فأنتم تعلمون علماً يقيناً أن المواشي المغنومة ليست تباع للذبح فقط ، بل تباع للنسل والرِّسل كثيراً وللحرث بها ، فتباع ويؤخذ فيها الثمن ، وهو نار لأنه بدل من المثمون ومالٌ أُخِذَ بالباطل ، ثم ينصرف في أنواع التجارات والصناعات في الملابسات ، فيمتزج الأمر. فهذا مالا أحيلكم فيه على غائب ، لكن ماترونه بعيونكم وتشاهدونه أكثر من مشاهدتي له. وأنتم ترون الجند في بلادكم لا يأخذون أرزاقهم إلا من الجزية التي يأخذها المتغلبون من المسلمين فيما يباع في أسواقهم على الصابون والملح وعلى الدقيق والزيت وعلى الجبن وعلى سائر السلع ، ثم بتلك الدراهم الملعونة يعاملون التجار والصناع ، فحسبكم وقد علمتم ضيق الأمر في كل مايأتي من البلاد التي غلب عليها البربر من الزيت والملح ، وأن كل ذلك غصب من أهله ، وكذلك الكتان أكثره من سهم صنهاجة الآخذين النصف والثلث ممن أنزلوا عليه من أهل القرى ، وكذلك التبن مزرقة ، وأما القمح فهو أشبه بيسير ، لأن الأرض وإن كانت مغصوبة فالزرع لزراعه حلال وعليه إثم الأرض ، إلا أن تكون الزريعة مغصوبة ، فحصلنا في شعل نارٍ [أشد] من ذي قبل ، ولكن التخلص لنا ولكم أن لا يأخذ الإنسان فيما يحتاج إليه ما أيقن أنه مغصوب بعينه ، ولعلنا فيما جهلنا من ذلك أعذر قليلاً فإن النار المدفونة في الرماد أفتر حراً من النار المؤججة المشتعلة ، فواغوثاه» .

(رسائل ابن حزم الأندلسي " الجزء الثالث" ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ، ، 1981 ص، 173 - 177).

نص رقم 14

حدث في سوق إشبيلية (462 هـ)

وفي يوم الاثنين لثلاث عشرةً خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وستين وأربعمائة ، سار الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد إلى اشبيلية - الحضرة الأثيرة - لمطالعتها وتأنيس أهلها من وحشة خامرت عامتهم ، من أجل عدوان رجلٍ منهم على يهودي جاء لامرجة السوق عندهم ، ماراه في بعض الأمر ، فزعم أنّه سبَّ الشريعة ، فبطش به المسلم وسط السوق وجرحه وحرّك عليه العامّة ، فقبض عليه صاحبُ المدينة عبد الله بن سلام واعتقله ، فكان لعامة الناس في إنكار حبسه كلامٌ وإكثارٌ خشي وباله ، فخاطب السلطان بقرطبة <يعرفه> ماكان منه ويستأمره في شأنه ، فعجل إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة إلى اشبيلية في جيش كثيف من نخبة علمائه ووجوه رجاله ، لمشارفة القصّة ، والاحتياط على العامّة فغدَواْ معه وسط هذا اليوم ، وأنفذ معه ذا الوازرتين أبا الوليد ابن زيدون أحد الثلاثة كابري وزرائه المثناة وزراتهم ، عمد دولته ، <ألزمه> النفوذ مع الحاجب على بقية وعْكٍ كان متألماً منه ، ولم يعذرْه في التوقفِ من أجله. فمضى لطيته مسوقا إلى منيته ، وخلّف ولده أبا بكر الفذَّ الوازارة ، المرتسم بالكتابة وراءه ، ساداً مكانه بالحضرة ، فأقر فيها أياماً ، ثم أمر بالمسير وراء والده لأمر كُلفَه ، أعجل بالانطلاق له ؛ فمضى بعينه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرَّم سنة ثلاث وستين بعدها. فخلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت إلى سواهم ، فتحدَّث الناس بنبوّ مكان الأديب ابن زيدون لدى السلطان ، وأنَّ استمساكه بعليّ مرتبته ، بعد مختصه المعتضد بالله ، كان من المعتمد على الله رعايةً لخصوصيّة ابنه به يَغَصُّ باستمرارها ثقتاه المختصان به ، الحظيان لديه ، المستهمان لخاصته : ابن مرتين وابن عمار ، إلى أن عملا في إبعاده وإبعاد ابنه الرقيب بعده ، فأمضى خلفه ، فعندها استساغا غصّته ، واستهما مكانه ، واحتويا على خاصّة السلطان وتدبير دولته ولكل دولة رجال ، ولكل مكتفٍ أبدال» .

(أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ،" الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة" القسم الأول ، المجلد الأول ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، ليبيا - تونس ، 1975 ، ص 418 - 419).

القسم الرابع

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

عصر المرابطين والموحدين

تمتد أيام المرابطين والموحدين زهاء قرنين ، انطلاقا من 462 / 1070 إلى عام/ 1269 667 ، وخلال هذه الحقبة ، استمرت الدولتان بالأندلس من تاريخ موقعه الزلاقة 479 / 1082 ، إلى منتصف المائة الهجرية السابعة / 1250.

وكانت الأندلس إلى أيام قوة الموحدين تصل حدودها الى جبال الشارات.

وعلى تباين سياسة الدولتين في عدد من الاتجاهات ، تجمعهما ثوابت تميز عصر المرابطين والموحدين بالاندلس ، وقد انفرد التاريخ الأندلسي في العصرين بما يلي :

1- نظم سياسية ، مخالفة للنظم التي سادت سابقا ولاحقا.
2- انبثاق الحكم السياسي من المغرب على الأندلس
3- التأثير الأندلسي في المغرب ثقافيا وحضاريا بلغ قمته خلال عصري المرابطين والموحدين.
4- عرفت الأندلس خلال العصرين تحولات كبيرة على جميع المستويات :

- جغرافيا
- سياسيا
- اجتماعيا
- اقتصاديا
- ثقافيا وفكريا

وعن النصوص التي نقدم لها ، فهي تعكس صورا من العمل الرسمي لسياسة الدولتين بالاندلس ، الى جانب نماذج من أنظمة الحكم والمعمار ، اقتباسا من وثائق رسمية ، أو نصوص لمؤلفين معاصرين ، مع التركيز - أكثر - على الوثائق لأهميتها ، ولإنفراد عصري المرابطين والموحدين باستمرار وثائقهما أكثر من أية دولة سابقة.

وسيسير عرض النصوص على تمييز كل من الدولتين على حدة مع توزيعها بين نصوص سياسية ، وأخرى اجتماعية ، والله سبحانه ولي التوفيق.

المرابطون

نصـــوص سيـــاسيـــة

1 رســالـــة

كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية. يصف فيها بلاد الغرب ، وجوازه للأندلس للجهاد بها ، وهزيمته للأذفونش أمير النصارى في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

(منقول عن المخطوط رقم 448 الغزيرى بمكتبة الإسكوريال (FoL. 49 R. - 53V.) وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له).

«الحمد لله الذي من علينا بالإسلام ، وفضلنا بمحمد عليه السلام ، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلايه ، والسبوغ من سر الله ونعمائه [كان من قضايه جل شأوه ، وتقدمت أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب ، سبب لنا إليهم المطلب ، فقفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقومنا الدّين ، ومهدنا بها المسلمين ، فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت إلى الله تعالى نياتهم ، وسرايرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب ، وأذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ، لاإله غيره وهو أرحم الراحمين. [ولما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمرهم الله على بلاد الأندلس ومعاقلها ، والزام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال أقالمها ، وإيطايهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان. فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز ، المرة بعد المرة ، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار ، ولم نجد للجواز باباً ، ولا لدخول البحر أسبابا ، فانضم لنا منهم الريس الأجل المعتمد على الله ، المولا بنصر الله ، أحسن الله في كل الأمور عونه ، وأقر بكل صالحة عينه ، فعزمنا على الغزو ، وجوزنا للعدو

أسوداً ضارية ، وسباعاً عادية ، شيباً وشبانا بسواعد قوية ، وقلوب في سبيل الله نقية ، قد عرفوا الحرب وجربوها فهي أمهم وهم بنوها يتلمظون تلمظ الفهود ، ويزء رون إليها زءر الأسود ، فشحنا بهم القوارب وأوسعناهم على ظهور المراكب ، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من ديارء ، وفقه الله ، ففزع الناس من كل أفق إليهم ، ووفدوا من كل قطر إليهم ، متعجبن من هيأتهم ، محتقرين لزيهم ونغصاتهم ، لا يروعهم منهم حاشى الخيل والدرق ، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق ، وقدروا أنهم طعم للسيوف ، وغرض للحتوف ، وسعد للأرماح ، ونهب للسلاح ، فكل استصغرهم ، والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم ، وتنتهى إلينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشا بعد جيش ، بخيول كالفحول ، عليها الكهول ، وعدد من كل أمرد ، على أجرد ، يتسابقون إلى اللقاء في الفضاء ، تسابق الحين والقضاء. ومع هذا كله إن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وإزاحة غمتهم بسببنا ، وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جاز منا ومعنا ، قطعة من صنهاجة بني عمي ، فعسر البحر حينئذ للجواز ، واضطربت فيه الأمواج ، فاستصرخنا الباري تعالى جده ، وعظم اسمه ، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما استكملت من كلامي ، حتى سهل الله المركب ، وقرب المطلب . فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة ، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا ، فعلمنا على السير ، [وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ، ونسلموا إليه الشواني والقوارب ، ليرد علينا ويقاتلنا في مأمننا ، فلم نلتفت إليه ، ولاعرجنا عليه. ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبيننا معه على اللحاق بهم ، والورود عليهم ، ونحن في ذلك كله لما نقل إلينا ، وورد علينا من رؤساء الأندلس ، مستبطئين سريرة المخبتين ، لابسين قسوة الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا إشبيلية حضرته ، عمرت ببقايه ، وقد تجمع له جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد ، فصرنا إلى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها أياماً منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار

الأندلس ، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى ، قد تغلبوهم على حصونهم ، وأذلوهم في بلادهم ، وأضعفوهم ، وشجعوهم على مرادهم ، فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المراد ، واستنقاذ العباد. فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه ، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله ، فسمع بنا ، وقصد قصدنا ، وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظراً لنا ، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام ، ودخوله في ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله تعالى ، وبين لنا في كتابه : من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ، فأبا وتمرد ، وكفر ونخر ، وعمل على الإقبال علينا ، وحث في الورود علينا ، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك ، برزنا عليه أياماً ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلايع إليه ، ونتابع الوثوب عليه ، وبنينا على لقايه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة. [فلما كان يوم الجمعة ثانية ، ورد علينا بكتايب قد ملأت الافاق ؛ وتقلبت الحتوف للأحداق ؛ قد استلموا الدروع للكفاح ، وربطوا في سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأ من الخمور ، يقدرون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن في أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه وجميعنا لاه ، فقصد أشدهم شوكة ، وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم ، لا يقدرون عسكراً إلا عسكره ، ولا رجال إلا رجاله ، ولا عديداً إلا عديده ، وداود من أصحابنا منا إلى إزايه ، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً ، كهبوط السيل ، بسوابق الخيل ، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات ، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع ، استكت آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت أقدامهم ، وطارت قلوبهم ، وصاروا كركب الحمير ، فرّوا يطلبون معقلا يعصمهم ، ولا عاصم إلا الله ، ولا هارباً منه إلا إليه ، فلحقوا من بطليوس بالكرامات ، لما عاينوا من الأمور المعضلات ، وأسلموه أيده الله ، وحده في طرف الأخبية ، مع عدد كثير من الرجالة والرماة ، قد استسلموا للقضاء ، فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرايس ، يعظمون الكنايس ، فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم الأرض ، ولم يبق من

الكل إلا البعض ، ولجأ في الأخبية ، بعد أن عاين المنية ، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يرد عليه ، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه ، لا يروعه منهم فيهزم ، ولا يهابهم فيسأم ، ثم قصدت كتيبته سوداً كالجبل العظيم أو الليل البهيم ، عسكر داود وأخبيته ، فجالوا فيها جولاناً ، وقتلو من الخلق ألواناً ، واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى رضوان الله ، [ونحن في ذلك كله غافلون ، حتى ورد علينا وارد ، وقصد إلينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب ، كقطع اللهب ، بجميع من معنا ، على الخيل المسومة العراب ، يتسابقن الطعن والضراب ، فلما رأونا ، ووقعت أعينهم علينا ، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا ، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ، مبتهلن لله وحده لا شريك له ، ونهضنا للمنون الذي لابد منه ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا ، فلنموتوا شهداء ، فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا ، والملائكة معنا ، والله تعالى ولى النصر لنا ، فولوا هاربين ، وفروا ذاهبين ، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه ولا ضربة تثخنه ، وأضعف الرعب أيديهم ، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر ، وضاقت بهم الأرض بما رحبت ، حتى أن هاربهم لايرى غير شيء إلا ظنه رجلا ، وفكتت فيهم السيوف ، على رغم الأنوف ، فو الله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ، وزرقوا الرجال منا على خيلهم الرماح ، فشكوهم بها فرمحت بهم ، فما كنت ترى منهم فارساً إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكل يجر عنانه ، كأنه معقل بعقاله ، ونحن راكبون على الجواد الميمون ، العربي المصون ، السابق اللاحق ، المعد للحقائق ، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان ، وبيدنا الثالث ، عسى أن يحدث من حادث ، فصاروا في الأرض مجدلين ، موتى معفرين ، وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار ، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم ، يقطعون رؤوسهم ، وينقلون بإزاء المحلات ، حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر، ومدد لا يحزر ، والتجريد فيهم ، والأيدى متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا أكابرهم ، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون. وانقطع من عسكرهم نحو ألفى رجل

أو أقل ، والأذفونش فيهم على ماأخبرنا ، قد أثخنوا جراحاً بإزاء محلاتهم ، يرتادون الظلام للهروب في المقام ، والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم ، ويعثرون في أخبيتهم ، وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزراً نظر التيوس إلى شفار الجازرين ، إلى أن جن الليل وأرخى سدو له ، ولواهاربين ، وأسلموا رحايلهم صاغرين [فكم من دلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد. وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك. وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون في الانتقال ، ولا يسئمون من تشريط الأموال ، ولحقوا قورية ومنها حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فصححنا ضمائرنا ، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى ، وترامیهم للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم ، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن شهدت نجدته في المغرب ، وانقلبت خير منقلب. ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقـايه ، وأقمنا عنده أياماً ، ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع ، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع ، ولحقنا الجزيرة الخضراء ، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها ، وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، وأرجع إلى نفس ، يذكرون مالقوا ، ويتذاكرون مابقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملي لهم أن كيدي متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حي ، ولا يحس منهم أنسي. والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى ، وهذا كله مناً منه علينا لا منًّا عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته».

(محمد عبد الله عنان ، "دول الطوائف" ، الطبعة الثانية القاهرة ، 1969 ، ص.446 - 450).

2 رســالــة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله في فتح أقليش أعادها الله بقدرته

(منقولة عن المخطوط رقم 488 الغزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة - 54 أ 58 ب)

أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين ، عماد الأنام وعتاد الإسلام ، السعيد الأيام ، الحميد المقام ، كبيرى بالقدر ، وظهيرى على الدهر ، الذي أجله بحقه ، وأقر بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الإرادة ، مؤيد السعادة ، مجدد النمو والزيادة. والحمد لله الجبار القهار ، الذي شد الأزر ، وأمد النصر ، وأعطى الفلج عن قسر ، ففلق عنه يد الماطل ، وفرق بين الحق والباطل ، والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الإسلام ، وغاظ به الكفر ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار. والله تعالى يشفع سعوده ، ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه.

ولما أن وضعني أمير المسلمين ، أدام الله نصره ، حيث شاء من آلة [التشريف والعز المنيف ، وألحقني من النعماء سربالها وأسحبني أذيالها ، وصرف إلي من عدده وبلده ما أولاني نعمه ، ووالاني كرمه ، حفظت تلك الحرمة ، وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت في الاجتهاد في الجهاد عالقاً بسببه ، آخذاً بمذهبه ، وهيأت من ماله عندي جيشه الموضوع بيدي ، وأجبت داعي الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة بيمناه رأسها ، وعلى تقواه أساسها وأصلها. وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله في العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم بجيش تصم صراهله ، وتطم كواهله ، راياته خافقة ، وعزماته صادقة ، ونيراته على ألسنة السعد ناقطة. ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين ، على جهات سمعت منادينا وتبعت هادينا ، وانقادت وراءنا اعداد وأمداد ، بروزاً من كمون ، وتحركوا عن السكون ، وانخنا بثغر بياسة ، وقد توافدالجمع ، وملىء البصر والسمع. وأخذت في الرأي أخمره ،

والعزم أضمره ، والذليل أشمره ، وجددت الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهلت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت في جميع أموري على حكمه خاضعاً متواضعاً.

ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان عنوان الأهبة ، والتأم بنيان الرتبة ، وسرنا بجيش يفيض فيضاً ، على أرض تفيض غيضاً ، ولسيول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراق ، وقد نطقت ألسنة الأعنة بقدام قدام ، وأشرقت كواكب الأسنة في غمام القتام ، وسدت الهبوات كل نهج وسبيل ، واستقلت الرايات عن قبيل فقبيل ، وأفضت بنا الخبرة إلى المدينة الحصينة «أقليش» قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد ، والسور المشيد ، فبدر السابق وشفع اللاحق. وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، فدرنا بها دور الحلقة بنقطها ، واكتنفناها اكتناف السبحة بسسطتها ، وبهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحاروا وحاموا ، حين راموا ، وجئنا بكل ضرب من الحرب ، نخسف عاليها ، وننسف هاويها ، ونلزها بالرماح ، ونهزنا هز الغصن في أيدي الريا[illegible] حتى فض الختام ، وعض منهم الإبهام ، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر ، ونفخ في صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحقتهم السيوف محق الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخذة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، فخروا إلى الأذقان ، وسيقوا إلى الموت والإذعان ، فماكدنا ننزل حتى كدنا ذلك المنزل ، وما أنخنا حتى رضخنا ، ولاوصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا.

ولما استحر فيهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبغت ، وشغل الأخيذ عن الملفت ، وألهى الكثير عن من قل ، ونام الجم الغفير عن الفل ، وعادت بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها ، كما يلج العصفور ، ويقوم الشور ، قد غلقوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن نصل الجد ، ونوحر لأقل غرب ، ولاملت حرب ، نجتث الجرائم ، ونحتز الغلاصم ، ونخرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ، ونتعاطوا بهدايا السبايا ، ونتكاشفوا عن بقايا الخبايا ، ونصرعوا بنيانا صدعته الحتوف ،

وغلبته السيوف فلأطلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الإيمان ، وبدل الناقوس بالإذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها ، وطرحت النواقيس عن بيعها ، ولاذ بنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا ، فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلة وسدتها ، وفروا من الحملة إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدهم ، فانجابت كربتهم ، وعادت بعد البوار ومجاورة الكفار بشرٌ دار ملتهم ، وأنار لهم الإسلام على منار الإيمان المجدد ، واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد وكشف الدين عن مضمره ، وخطب الحق المبين على منبره ، وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار ، فعند ذلك أرحنا البواتر ، وغيضت تلك الدماء الهوامر ، وغداً الخميس في الخميس ، مبيناً على ذلك التأسيس ، بحر أذيال الظفر في العدد الأوفر ، يشفع الأوالى بالتوالي ، ويشتري العوالي بالعوالى ، فأصبحنا في عز وأنس ، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس ، وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة ، والقوم في السجن والحصر ، والحصن كالواحد في العالم ، والأصبع في الخاتم ، والمحصور مأسور ، وصاحب الحائط مقهور ، ولم نزل نوسعهم قتالا ، ونوسعهم ضراً ونكالا مسافة اليوم ، إلى أن جزر النهار مده ، وبث الليل جنده ، فعدنا إلى محلتنا ، قد أمل الكال أينه ، وغلبت الساهر عينه ، وكنت لم آل احتراسا للملحة بطلائع تحرس جهاتها ، وتدرأ آفاتها ، وفي القدر ما يسبق النذر ، ويفوت الحذر ، لاكن كفاية الله خير من توقينا. وكان الطاغية زاده الله ذلا ، قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ، وأبعد في الاستصراخ مضماره ، وعبأ جيشاً قد أسره إلى ذمر ، وانطوى على غمر ، فأقدم وصمّم ، وبئس ماتيمم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية أذفونش ، وشيخهم وزعيم فرسانهم غرسية أرذونش ، وصاحب شوكتهم ألبرهانس ، والقمط بقبدره وقواد بلاد طليطلة وصاحب «قلعة النسور» و «قلعة عبد السلام» ، وكا قاص ودان ، وعاجل ووان ، أخزى الله جميعهم ، وطل نجيعهم ، ولا أقام صريعهم.

وهذا دعاء لو سكتُّ كفيته * لأتى سألت الله ربي وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغرة ، ويظهرون صلفاً تحت الغرة ، وتقدموا فندموا ، ودنوا فهووا ، ووصلوا فحصلوا وارسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيراً واقتنوه أسيراً ، ولله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده وبعثا من جنده ، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبئاً بهم دالا عليهم ، وكاشفاً بهم على النبأ العظيم ، ومطلعاً منهم على المقعد المقيم ، فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، ودارت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد ، وأشار البنان والساعد ، وتضام القريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح قد بدأ ، والدياجير ممدودة السرادق ، مجموعة الفيالق ، ولا جار إلا الغاسق ، ولا مار إلا السما والطارق ، وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ، ذوى النصيحة والآراء الصحيحة ، أبا عبد الله محمد بن عائشة ، وأبا محمد عبد الله بن فاطمة وليى أعزهما الله ، فجالا في مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذارع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين ، وخضعنا إلى حكمه مستسلمين ، فعند ذلك حل يده المجتبى ، وقيل يا خيل الله اركبي ، فعادت الآراء بالرايات ، وحكمت النهى في النهايات ، والأسنة تجول في آمادها ، والنصول تصول في أغمادها. وثرنا كما ثار الشهم بفرصته ، وطار السهم لفوضته ، وأمرت رجالا بلزومه المحلة ، فسدوا فرج أبوابها ، ولاذوا بأوتادها وأسبابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسنة من أطرافها ، وأجالوا البواتر في أكنافها ، وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية ، وعبأنا الجيش يمناه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه ، ونهضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لامه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نقتني سبيله ، وتبتغي دليله ، فما رفع الفجر من مجابه ، ولا كثر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقيض الليل خمسة ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ، ولشباب العراك ريعان ، ولأنفاق الإعلام ضراب أو طعان. وعند ذلك نجم «العجم» في سواد الليل وإزباد السيل ، يهبطون إلى داعهم ، ويهرعون إلى ناعهم ، في دروع كالبوارى ، ورماح كالصوارى ، كأنما شجروا باللديد وسجنوا

في الحديد ، يزحفون والحين بعد الحين يعجلهم ، ويركبون والختف يزحلهم ، يلحظون الشيات ، قد تحالفوا أن لا يتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشايعوا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد «أبو عبد الله محمد بن أبي زنفي» مع جماعة ، فصدمهم العدو بصدور غرة وقلوب أشرة ، فانحوا بكلكل ورموا بجندل ، وشدوا فما ردوا ، وصادروا فما صدوا ، وتقهقر القائد « أبو عبد الله » غير مول ، وتراجع غير مخل إلى أن اشتد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود . فتراءى الجمعان ، وتدانا العسكران ، وأمسكنا ولا جبن ، ووقفنا والأناة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فمد يناه ، وأناط الصبر فأشرق محياه ، ونزلت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكينة ، واهتزت الفيالق مائجة ، وهدرت الشقاشق هائجة ، وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبباً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأغماد ، وتصاهلت الخيول ، وتصاولت القبول ، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة العير ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب ، فطعن فارساً منهم فأذراه عن مركبه ، ورماه بين يدي موكبه ، فانتهج ، ما أرتج ، وانفتح المبهم ، وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، واعتنقت الفرسان ، واندقت الأرسان ، ودجا ليل القتام ، وضاق مجال البيض اللهام ، واختلط الحسام بالأجسام ، والأرواح بالأشباح ، ودارت رحى الحرب تفر بنكالها ، وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلشفر الصدور ابتراد ، وللجزم القلوب انتهاد فما وضح النهار ، ولا نسخ الغبار ، حتى خضعت منهم الرقاب ، وقبلت رؤوسهم التراب ، واتصل الهلك بالشرك ، وعادت الضالة إلى الملك ، وقلم ظافر الكفر ، وطالت إيمان الإيمان ، وفر الصليب سليباً ، وعجم عود الإسلام فكان طيباً ، وغمرهم السيف فهمدوا ، واطفأهم الحين فخمدوا ، ومات جلهم بل كلهم ، وما نجا إلا أقلهم ، وعادوا فباتوا وقيل كانوا ، وكشفت الهبوات ، وانجلت تلك الهنات ، عن رسوم جسوم قد تصفحتها البواتر ، ووطئتها الحوافر ، خاضعة الخدود ، عاثرة الجدود ، وأخذت ساقتنا في الطلب ، وضم السلب إلى السلب وملئت الأيدي بنيل وافي النيل ، خيلا وبغالا وسلاحاً ومالا ، ودروعاً ، أكلهم خيلها ، وأثقلهم حملها ، فساعت سليبا وصارت حبيساً ، فطر سورها كأنهم منحوها ، وألقوها كأنهم أعطوها ، احتزناها نهباً ، وأخذناها كأن لم تكن غصباً ، لقطة

ولانكر ، وعطية ولغيرهم شكر ، ثم أمرت بجمع الرؤوس ، فاحتزت الدانية وزهد في جمع النائية ، فكان مبلغها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أرذونش والقومط وقواد بلاد طليطلة ، وأكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم ، فكانت كالهضب الجسيم ، بل الطود العظيم ، وأذن عليها المؤذنون ، يوحدون الله ويكبرون ، فلما جاء نصر الله ، ووهب لنا فتح الله ، شكرنا مولى النعم ومسديها ، ومعيد المنن ومهديها ، وصدرت غانماً ، وأبت سالماً ، وبقي القائدان محاصرين لحصن أقليش آخذين بمخنقهم ، مستولين على رمقهم. فخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ، ووصل حبوره ، معلما بالأمر ، مهنياً بالنصر ، لنحمد الله عز وجل ، على ماوهب ، ونشكره على ماسنى وسبب ، والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد ، ويمن بالظفر والتأييد ، فهو ولي الامتنان ، والمليء الفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه.

3 رسالة

كتب بها قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف تاشفين حين حاصرها ابن رذمير واستغلبها أعادها الله

(منقولة عن المخطوط رقم 488 الغزيري المحفوظ بمكتبة الإسكوريال لوحة 55 أ - 61 ب).

من ملتزمي طاعة سلطانه ، ومستنجديه على أعداء الله ، ثابت بن عبد الله ، وجماعة سرقسطة من الجمل ثيبها من عباد الله.

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والمحل ، لحرم الإسلام يمنعه ، ومن كرب عظيم على المسلمين ، يزيحه عنهم ويدفعه.

كتابنا أيدك الله بتقواه ، ووفقك لاقتفاء دارمسناه ، بمجاهدة عداه ، يوم الثلاثاء

السابع عشر من الشهر المبارك شعبان ، عن حال قد عظم بلاؤها ، وادلهمت ضراوها ، فنحن في كرب عظيم ، وجهد أليم ، قد حل العزا والخطب ، وأظلنا الهلاك والعطب ، فياغوثاه ، ثم ياغوثاه إلى الله ، دعوة من دعاه ، وأمله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الجميل الكرم والعوايد ، ويا الله وياللإسلام ، لقد انتهك حماه ، وفضت عراه ، وبلغ المأمول من بيضته عداه ، وياحسرتا على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ، طال ما عمرت بالإيمان ، وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصلبان ، ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان ، ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ، وقد كان مأنوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها ، ويؤملون أن يدنسوه بقبيح آثامها ، ويعمروه بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ، ومواطن لخماراتها ومواخيرها ، ثم ياحسرتاه على نسوة مكنونات عذارى ، يعدن في أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أضحوا حيارى ، بل هم سكارى ، وماهم بسكارى ، ولاكن الكرب الذي دهمهم شديد ، والضر الذي مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بنيات قد كن من السترنجبان الوجوه ، أن يروا فيهن السوء والمكروه ، وقد كن لا يبدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشئوا في حجور الإيمان ، يصيرون في عبيد الأوثان ، أهل الكفر وأصحاب الشيطان ، فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد الله الجمهور ، بأمة هي وقايد هذه العظام الفادحة ، والنوائب الكاحلة ، هو المطالب بدمايها ، إذا أسلمها في آخر ذمايها ، وتركها أغراضاً لإعدايها ، حين أحجم عن لقايها ، فإلى الله بك المشتكا ، ثم إلى رسوله المصطفى ، ثم إلى ولى عهده أمير المسلمين المرتضى ، حين ابتعثك بأجناده ، وأمدك بالجم الغفير من أعداده ، نادباً لك ، إلى مقارعة العدو المحاصر لها وجهاده ، والذب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته ، والمحتملين السبعة الأشهر الشدايد الهالية في جنب موالاته ومشايعته ، من أمة قد نهكهم ألم الجوع ، وبلغ المدى بهم الضر الوجيع ، قد برح بهم الحصار ، وقعدت عن نصرتهم الأنصار ، فترى الأطفال بل الرجال جوعاً يجرون ، يلوذون برحمة الله ويستغيثون ، ويتمنون مقدمك بل يتضرعون ، حتى كأنك قلت أخسئوا فيها ولا تكملون. وماكان إلا أن وصلت وصل الله برك بتقواه ، على

مقربة من هذه الحضرة ، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة ، بتلك العساكر التي أقر العيون بهاؤها ، وسر النفوس زهاؤها ، فسرعان ما انثنيت وما انتهيت ، وارعويت ، وما أدنيت ، خايباً عن اللقاء ، ناكصاً على عقيبك عن الأعداء.

فما أوليتنا غناء ، بل زدتنا بلاء وعلى الداء داء ، بل أدواء ، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء ، بل آذللت الإسلام والمسلمين ، واجترأت فضيحة الدنيا والدين ، فياالله ويا للإسلام ، لقد اهتضم حرمه وحماه أشد الاهتضام ، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام ، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة قليلة ، وللة رذيلة ، وطايفة كليلة ، يستنصر بالصلبان ، والأصنام ، وأنتم تستنصرون بشعار الإسلام ، وكلمة الله هي العليا ويده الطولا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، وإن من وهن الإيمان ، وأشد الضعف ، الفرار عن الضعف ، فكيف عن أقل من النصف ، فياقبح من رضى بالصغار وسما خطة الخسف ، فما هذا الجبن والفزع ، وما هذا الهلع والجزع بل ماهذا العار والضيع ، أتحسبون يا معشر المرابطين ، وإخواننا في ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقسطة القدر ، بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تبلغون بعدها ريقاً ، وتجدون في ساير بلاد الأندلس عصمها الله ، مسلكاً من النجاة أو طريقاً ، كلا والله ليسومنك الكفار عنها جلاء وفراراً ، وليخرجنكم منها فداراً ، فسرقسطه حرسها الله ، هي السد الذي إن فتق ، فتقت بعده أسداد ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله ، استبيحت له أقطار وبلاد ، فالآن أيها الأمير الأجل ، هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالمنية ولا الدنية ، النار ولا العار ، فأين النفوس الأبية ، وأين الأنفة والحمية ، وأين الهمم المرابطية ، فلتقدح عن زنادها بانتضاء حدها ، وامتضاء جدها واجتهادها ، وملاقاة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا أيها الأجل ، ألا ترغب في رضوانه ، واشتراجنانه ، بمقارعة حزب شيطانه ، والدفاع عن أهل إيمانه ، فاستعن بالله على عدوه وحربه ، واعمد ببصيرة في ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه ، فإنهم أغراض للمنايا والحتوف ، ونهر للرماح والسيوف

ولا ترض بخطة العار ، وسوء الذكر والصيت في جميع الأمصار ، ولاتك كمن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزوا ولا يرزأ من العدو فتيلا

ولن يسعك عند الله ، ولاعند مؤمن ، عذر في التأخر والارعوا ، عن مناجزة الكفار والأعداء وكتابنا هذا أيها الأمير الأجل ، اعتذار تقوم لنا به الحجة في جميع البلاد ، وعند ساير العباد ، في إسلامكم إيانا ، إلى أهل الكفر والإلحاد ، ونحن مؤمنون ، بل موقنون إجابتك إلى نصرتنا ، وإعدادك إلى الدفاع عن حضرتنا ، وأنك لا تتأخر عن تلبية ندائنا ، ودعاينا إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا ، فدفاعك إنما هو ذات الله ، وعن كلمه ، ومحاماة عن الإسلام وحزبه ، فذلك الفخر الأنبل لك في الأخرى والدنيا ، ومورث لك عند الله المنزلة العليا ، فكم تحيى من أمم ، وتجلى من كروب وغمم ، وإن تكون منك الأخرى ، وهي الأبعد عن متانة دينك ، وصحة يقينك ، فاقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة ، عصمها الله ، ليخرج الجميع عنها ، ويبرأ إلى العدو وقمه الله منها ، ولا تتأخر كيفما كان طرفة عين فالأمر أضيق ، والحال أزهق ، فعد بنا عن المطل والتسويف ، قبل وقوع المكروه والمخوف ، والا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسئولون عن صبيتنا وأطفالنا ، لإحجامكم عن أعدائنا ، وتثبطكم عن إجابة ندائنا ، وهذه حال نعيذك أيها الأمير عنها ، فإنها تحملك من العار مالم تحمله أحداً ، وتورثك وجميع المرابطين الخزي أبدا ، فالله الله أتقوه ، وأيدوا دينه وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والذب عن الحرم والديار قال الله ، ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة الآية ، ومهمى تأخرتم عن نصرتنا ، فالله ولى الثار لنا منكم ، ورب الانتقام ، وقد بريتم بإسلامنا للأعداء ، من نصر الإسلام ، وعند الله لنا لطف خفى ، ومن رحمته ينزل الصنع الخفى ، ويغنينا الله عنكم ، وهو الحميد الغنى. ومن متحملى كتابنا هذا ، وهم ثقاتنا تقف من كنه حالنا على مالم يتضمنه الخطاب ، ولا استوعبه الإطناب بمنه ، وله أتم الطول في الاصغاء إليهم واقتضاء مالديهم ، ان شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

4 رســالــة

وله (أي لأمير المسلمين) إلى الفقيه القاضي وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان والكافة ببلنيسية عند نزول ابن رذمير عليها

(منقول عن المخطوط رقم 488 إسكوريال السابق ذكره لوحة 72 - 73أ).

كتابنا أبقاكم الله ، وأمدكم بتقواه ، ووفقكم لما يرضاه ، ولا أخلاكم من لطايف رضاه ، وعوارف نعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله ، لسبع خلون من شعبان المكرم سنة ثلث وعشرين وخمس مائة. وقد وصل إلينا كتاب الفقيه الخطيب القاضي أبي الحسن منكم أعزه الله بتقواه ، مضمنا من ذكر مابلغه الوجل من نفوسكم ، مالانزال نتوخا بحسبه إن شاء الله ما يفى بترفيهكم وتأنيسكم ، فلا يذهبن بكم الجزع لما كان من انكشاف المسلمين هناك عن مراكزهم ، وتصيرهم ماصيروه من محلتهم ، فرصة لمناهزتهم ، وانهزامهم بغير سبب سوى تخاذلهم المعتاد ، مع ماكانوا عليه من تكاثر الأعداء ، وتظاهر الأجناد ، فحسبناهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ولشد ماوعظناهم في ذلك وذكرناهم ، فما نجعت فيهم الموعظة ، ولانفعتهم الذكرى. وبعد فإنا لاندعكم بحول الله لضياع ، ولا نألوكم إلا احتبالا يذهب بمشيئة الله مانالكم من توقع وارتياع ، فطيبوا أنفساً ، واطمئنوا قلوبا ، والله يجعل من دون ماتوقعتموه فتحاً قريباً ، إنه هو الفتاح العليم المنان الكريم لارب غيره. واعلموا أنه قد نفذت الآن كتبنا ثانية ، إلى ولاة أعمالنا كلأهم الله وإياها ، نأمرهم بتسريب الأقوات ، وتعجيل إنفاذها نحوكم من كل الجهات ، وسيرد عليكم منها الكثير الموفور لأقرب الأوقات ، ثم لاتزالون من بالنا بأحق مكان من المراعاة والمحاماة ، إن شاء الله تعالى ، وهو سبحانه يوفقنا لصالح نتوخاه من لم شعثكم ، وسد خللكم ، وإذهاب مكترثكم ، وحسم عللكم ، ويقضى بما يضم نشرهم ، ويشد أزرهم ، ويصلح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ الألفة عليهم ، ويربي النعمة لديهم برحمته ، وتبلغوا أبقاكم الله سلاماً كثيراً أثيراً خطيراً موفوراً.

5 رسالة

وله (أي لأمير المسلمين) إلى المذكورين مجاوباً لهم بهزيمة ابن رذمير إياهم في «القلاعة»

(منقولة عن المخطوط رقم 488 إسكوريال السابق ذكره لوحة 73 ب)

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه ، وكنفكم بعصمته وجعلكم في حماه ، وأسبغ عليكم عوارفه ونعماه ، من حضرة مراكش حرسها الله في الحادي عشر من شعبان المكرم من سنة ثلث وعشرين وخمس مائة ، غب ماوافانا كتابكم الأثير مضمناً وصف اليوم الذي جرت به خزيه المقادير ، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ماحواه ، وفي علمه سبحانه موقع ذلك وعزازة شأنه علينا ، لكن لا مخرج عن القضاء وحكمه ، ولا محيد عن القدر وحتمه ، ولن يرد حول محتال ماسبق في علمه ، وماألونا ، وهو عز وجهه أعدل الشاهدين ، جداً وعزماً وكدحا لإعلاء كلمة الإسلام ، وحزماً ببذل الأموال وتخير الرجال ، واعتيام الأسلحة والأفراس ، والجمع بين الإيحاش والإيناس ، في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكيد ، وعرض الآراء المتخيل فيها السداد ، وبلوغ مدة جهاد في كل نحو والاجتهاد ، لو كان العون موجوداً ، ولم يكن التعذير ... حاضراً عتيداً ، والله يخزي كل خاين ماين بأسخاطه تعالى داين جزاه ، ويرد به برد مضمره ورداه ، ويوشك مقارضته وإرداه بحول وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا أن نكون لديكم حاضرين ، لأسرعنا بذلك مبادرين ، ولما ثنانا عن حمايتكم بأنفسنا ثان ، ولاقعد بنا عن معالجة نصركم تراخ ولا توان. وقد جددنا الآن أحث نظر ، ونحن نردفه بما يكون عليكم ألم وارد ، وأسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم ويسكن مروعكم ، فمالنا والله يشهدهم سوى الذياد عنكم والدفاع ، والانفراد لذلك والاستجماع ، والاجتهاد ، والتوفر عليه بأتم الاضطلاع ، والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على مايرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو.

6 رسالة

كتاب بتقليد خطة الشورى

صادر من أبي جعفر بن أبي جعفر بن أبي جعفر أمير مرسية إلى الفقيه أبي بكر بن أبي جمرة .

هذا كتاب تنويه وترفيع ، وإنهاض إلى مرقى رفيع ، أمر بكتبه الأمير الناصر للدين ، أبو جعفر بن أبي جعفر أدام الله تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الأجل المشاور الحسيب الأكمل ، أبي بكر بن أبي جمرة أدام الله عزه ، أنهضه به إلى الشورى ، ليكون عندما يقطع لأمر ، أو يحكم في نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه ، وجده في اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريقة له ، بل تليدة متوارثة عن أسلافه الكريمة وآبائه ، فليتحملها تحمل المستقبل بأعبائها المحسن بأنبائها ، العالم بمقاصدها المتوخاة المعتهدة وانحائها ، والله يزيده تنويهاً وترفيعاً ، ويبوئه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعاً. وكتب في التاسع لذى حجة سنة 539 ، الثقة بالله عز وجل.

نقلنا هذا الكتاب من التكملة لإبن الأبار (القاهرة) ج 2 ص 526 ؛ وقد فاتنا أن تلحقه بالوثائق المرابطية المنشورة بالقسم الأول فألحقنا هنا بالوثائق الموحدية.

موجهة من أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف إلى الفقهاء والوزراء والأخيار

نصـــوص اجتمــاعيــة

7 رســالــة

والكافة ببلنسية

(منقولة عن المخطوط رقم 538 إسكوريال السابق ذكره لوحة 11 أ - 12 ب).

«بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم تسليما. من أمير المسلمين وناصر الدين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين.

إلى وليه في الله تعالى، الأعز الأكرم الأحظى في ذات الله لديه، أبي زكريا يحيى بن علي، والفقيه القاضي أبي محمد بن جحاف، وساير الفقهاء والوزراء والأخيار والصلحاء، والكافة ببلنسية، حرسها الله، وأدام كرامتهم بتقواه.

سلام مبرور كريم، مردد عميم على جميعكم، ورحمت الله وبركاته، وبعد. فإن كتابنا إليكم، كتبكم الله ممن آثر الحق واتبع سننه، وادّرع الحزم ولبس جننه، وسمع القول واتبع أحسنه، وحافظ على كتاب الله الذي يسره للذكرى وبينه، وجعلنا وإياكم ممن جمله بتقواه وزينه، من مناخنا بكرنطة، في العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثمان ثلاثين وخمس مائة، وبحمد الله من صحيفتنا هذه صدرها الأكرم، وكل قول فبعده يترتب ويتنظم. وقد جاء في الآثار: كل كلام لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أجذم.

وبعد أن نستوفي واجب الحمد والشكر، ونذكر نعمه السابغة، علينا أجمل الذكر، فنسأل الله توفيقاً قايداً إلى الرشد، وقوة على طاعته نحمل بها من تلزمنا رعايته، على المنهج الأفضل والسنن الأحمد، ونستعيذه من قلب لا يخشع ودعاء لا يسمع، وموعظة لا تنفع، وصبيحة لا تطاع، وهواً يتبع، ونصلي على محمد نبيه ورسوله الذي طهره تطهيراً،

وأرسله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ رسالة ربه وهداه ، وصبر على مشقة البلاغ وأذاه ، ولم يخش أحداً إلا الله الذي رجاه ، إلى أن بلغ الكتاب أجله والدين مداه ، وانتهى ملك أمته إلى ماكان الله له زواه ، صلى الله عليه وعلى صحبه الذين ذبوا عن هذا الدين وحموا حماه ، ووالوا من ولاه ، وعادوا من عاداه.

ولما كان أعزكم الله ، الدين ينعت بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين ، والذكرى تنفع المؤمنين ، وجب أن نتخذ لكم من الموعظة به أنفسها الذي مُرُّها في العاقبة حلو ، وأخفض مراتبها في الله علو ، فاعلموا ، أعلمكم الله ، ولا أقامكم مقاما يريدكم ، أن أقرب الناس إلى الله أحناهم على عباده ، وأمحضهم للنصيحة لهم بمبلغ جده واجتهاده ، وأن أولى الناس بنا من طاب خبره ، وكرم أثره ، وحسن مورده في الأمور ومصدره ، وكذلك «العامل» منكم و «القاضي» يقضيانه ، فليقدما أو لا تسديد أمرهما ، ولينظرا في إصلاح أنفسهما ، قبل إصلاح غيرهما ، فمن لا يصلح أمر نفسه لا يصلح سواه ، ومن لا يسدده أموره لا يسدد أمر من تولاه. وعليكم أجمعين بتقوى الله في السر والإعلان ، والتمسك بعصم الإيمان ، والاستعانة على حوايجكم بالكتمان ، والتنزه عن فلتات اليد واللسان ، ولم تخل أمة من جاهل وعليم ، ومعوج وقويم ، فليردع الجاهل العليم ، ولينبه المعوج القويم ، ولن يزال الناس بخير مالم يتساوروا ، فإذا تساووا هلكوا.

وأهم أموركم الصلاة ، التي هي سبيل النجاة لسالكها ، ولاحظ في الإسلام لتاركها ، فالزموها في جماعاتها ، ولا تخلو بشيء من مسنوناتها ، ومفروضاتها ، وأخلصوا فيها لله العلي الأكبر ، واعلموا أنها كما قال سبحانه «إن الصلاة تهنى عن الفحشاء والمنكر».

وعليكم وفقكم الله بإصلاح ذات البين ، وإعتماد الحق المخلص في الدارين ، وتخير الرفقا وانتخاب الجلسا ، فإن مثل الجليس كمثل القين ، والصاحب الصالح قوة في الدين ، وقرة في العين.

وانتدبوا واندبوا من قبلكم للجهاد ، الذي هو من قواعد الإيمان والرشاد ، أمر الرحمن ، وفرض على الكفاية والأعيان ، واتصال الهدو بفضل الله وللأمان. وقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القايم الصايم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام».

والذي نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرعية ، والحكم بالتسوية ، وإجراء أمورها على سبيل الحميدة المرضية ، فهي العنصر الذي منه الاستمداد ، والأصل الذي تعمر البلاد ، وتتوفر الأجناد ، ويتمكن الرباط في سبيل الله والجهاد ، وليعلم أن العدل يقسطها ، والجور يسخطها ، وقلة المساواة تشتها وتقنطها. ولا سبيل أن يستعمل عليها إلا من يستثق جانبه وتحسن الأحدوثة عنه. وأن ظهر أحد منهم بنظر جميل فيه ، وكان في نفسه مايخفيه ، فالبدار البدار إلى عزله وعقابه والتشديد فيما نأمر به.

واعلموا ، رحمكم الله ، أن مدار ومجرى الأحكام والشورى ، في الحضر والبُدا ، على مااتفق عليه السلف الصالح ، رحمهم الله ، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس ، رضي الله عنه ، فلا عدول لقاض ولا مُفت عن مذهبه ، ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم إلا به ، ومن حاد عن رأيه بفتواه ، ومال من الأئمة إلى سواه ، فقد ركب رأسه واتبع هواه ، ومتى عثرتم على كتاب بدعة ، أو صاحب بدعة فإياكم وإياه ، وخاصة وفقكم الله ، كتب أبي حامد الغزالي ، فليتتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ، ويبحث عليها ، وتغلظ الإيمان من يتهم بكتمانها.

والخمر ، نزهكم الله عن خبايث الأمور ، التي هي جماع الإثم والفجور ، والباب المفضى إلى سواكن الفسق والشرور ، فاجتهدوا في شأنها ، وأوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دنانها ،فقد جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لعن الله الخمر وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه».

وكذلك نؤكد العهد فيما نوصي به دايبا ، مما أوجبه الله تعالى في حقوق المسلمين من الأعشار والزكوات ، والأموال المفروضة للأرزاق المسماة ، فليؤخذ مافرض الله منها في نصابها المعلوم ، وعلى سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وكذلك نؤكد عليكم أتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين ، لأنه من فساد الدين.

والسلام الأبر الأكرم الأخطر على جميعكم ، ورحمة الله وبركاته ، وعلى من هناك من المسلمين».

الرسائل من الثانية إلى السابعة عند محمد عبد الله عنان : «عصر المرابطين والموحدين» ص 533 - 544 , 548 - 550 , 741

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1964.

8 أنظمـــة السجـــن أيـــام المـرابطـيـــن

يجب أن يتفقَّد السجن في الشهر مرَّتين أو ثلاثاً ، لينظر فيه أحوال المسجونين إذا كثر الخلق فيه. يجب أن يخرج منه من كان ذنبه خفيفاً ، ويتنفذ عليه الحكم الذي يليق به ويلزمه. يجب أن يستبرأ السجن في كل عامٍ في شهر رمضان ، أو في عشر ذي الحجَّة ، أو في النصف من شعبان ، فإنَّها أيَّام عِظام.

من سُجن ، لا يطول سجنه جداً ، بل ينفَّذ عليه الحكمُ أو يطلق إلا في آجال المحكومات ، فإن لها آجالا طويلة وقصيرة ، على مايوجبه الحكم.

يجب أن لايؤخذ في السجن الا حبّة [؟ ....] وجهه عند إطلاقه على سبيل البشارة بالراحة.

لا يحمل أحد في الخشبة إلاّ من استوجبها من الدُّعرة. لا يجعل في الخشبة إلا رجل واحد ، فإن السجّان يتّكل بذلك على إطلاق أحدهما أجرة. يجب أن يأمر السجان ان يطلق من في الخشبة في أوقات الصلوات ولحاجة الإنسان.

لا يسجن النساء مع الرجال في سجن واحد. لا يكون سجان النسا إلا شيخا مزوّجا عفيفاً. ويتفقّد سيرته فيهن ، ولا يطول سجنهن. يجب أن يسجن القاضي من وجب عليها السجن من النساء ، في حكم من الحكومات ، عند امراةٍ قابلة خيرة ، قد عرف القاضي فضلها ، الى أن تنطلق ؛ ويجعل لها القاضي أجرةً على ذلك بيت مال المسلمين.

لا يأخذ السجان من الصدقات شيئاً. لا يترك مع السجّان رفقاء يجلسون معهف فيقاسمهم في الصدقات ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، لا يترك في السجن من الأمراء إلاّ واحد ، فبكثرتهم يدخل الفساد ، ويعيشون من الصدقات وهو خطاء ، من قُطِعَ ، لا يسجن ، بل يخرج من المدينة ، ويترك يتعطف على الناس ، حتى يبرأ. لا يضرب السّجان أحداً في

السجن باختياره ، يريد بذلك الترويع والاضرار ، ولا يمنع أحداً من زيارة مسجون.

يجب أن يكون لأهل السجن إمامٌ راتبٌ يدخل اليهم في أوقات الصلوات ؛ فيصلي بهم ، ويقطع له القاضي أجرةً مع الأئمّة من بيت المال ، ويكون مأجوراً في ذلك.

لا يصلَّب أحد حتى يشاور السلطان في أمره ثلاث مرأت.

يجب أن يحدَّ للعُمّال ، ويمنع ، ويجدَّ في ذلك ، أن لا يأمروا أن يُضرب أحدٌ بالسوط ، ولا يسجن أحدٌ من الخدمة والعمّال أحداً ؛ ولا يأمر بضرب السوط إلا السلطان وصاحب المدينة والقاضي والمحتسب والحاكم فقط ، ومن فعل غير هذا ينكر عليه ويوبخ ويؤدب ، ولا يسجن أحد من العمال أحداً الاباذن القاضي والسلطان.

«رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة» ص 18

9 وصف الادريسي لقرطبة ومسجدها الجامع

ومدينة قرطبة قاعدة بلاد الأندلس ، وأم مدنها ، ودار الخلافة الإسلامية، وفضايل أهل قرطبة أكثر وأشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تستر ، وإليهم الانتهاء ، في السناء والبهاء ، بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزي في الملابس والمراكب ، وعلو الهمة في المجالس والمراتب ، وجميل التخصص في المطاعم والمشارب ، مع جميل الخلايق ، وحميد الطرايق ، ولم تخل قرطبة قط من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير، لهم أموال كثيرة ، وأحوال واسعة ، ولهم ومراكب سنية ، وهم علية ، [وهي في ذاتها مدن خمس ، يتلو بعضها بعضا ، بين المدينة والمدينة ، سور حاجز ، وفي كل مدينة مايكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وساير الصناعات ، وفي طولها من غربيها إلى شرقيها 3 أميال ، وكذلك عرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود بشمالها ميل واحد. وهي في سفح جبل مطل عليها يسمى جبل العروس ، ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة.

وفيها المسجد الجامع ، الذي ليس بمساجد المسلمين مثله ، بنية وتنميقا ، وطولا وعرضا ، وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة ، وعرضه 80 باعا ، ونصفه مسقف ارتفاع حد الجايزة منه شبر وافرة في عرض شبر إلا ثلاثة أصابع ، في طول كل جايزة منها 37 شبرا ، وبين الجايزة والجايزة غلظ جايزة ... [والسماوات التي ذكرناها هي كلها مسطحة ، فيها ضروب الصنايع المنشأة من الضروب المسدسة والموربى ! وهي صنع الفص وصنع الدواير والمداهن ، لا يشبه بعضها بعضا ، بل كل سماء منها مكثف بما فيه من صنايع قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية ، والبياض الأسفيذاجي والزرقة اللازوردية ، والزرقون الباروفي ، والخضرة الزبخارية ، والتكحيل النقسي ، تروق العيون ، وتستميل النفوس ، باتقان ترسيمها ، ومختلفات ألوانها وتقسيمها. [وسعة كل بلاطة منها- أعني من بلاطات مسقفة - 33 شبرا ، وبين العمود والعمود 15 اشبرا ، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام. وقد عقد بين العمود والعمود على أعلى الرأس قسي غربية ، فوقها قسي أخر ، على

عمد الحجر المنجور متقنة، وقد جصص الكل منها بالجص والجيار ، وركبت عليها نحور مستديرة ناتئة ، بينها ضروب صناعات الفسفس بالمغرة، وتحت كل سماء منها إزاء خشب فيه مكتوب آيات القرآن.

ولهذا المسجد الجامع قبلة يعجز الواصفين وصفها ، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها ، وكل ذلك من الفسيفساء المذهب والملون ، مما بعث صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن المعروف بالناصر لدين الله الأموي. وعلى هذا الوجه ، أعني وجه المحراب ، سبع قسى قايمة على عمد ، وطول كل قوس منها أشف من قامة ، وكل هذه القسي مزججة صنعة القرط ، وقد أعيت المسلمين والروم بغريب أعمالها ، ودقيق تكوينها ووضعها ، وعلى أعلى الكل كتابان مسجونان بين بحرين من الفسيفياء المذهب ، في أرض الزجاج اللازوردي ، وتحت هذه القسي التي ذكرناها كتابان مثل الأولين مسجونان بالفسيفساء المذهب في أرض اللازورد ، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش ، وفي عضادتي المحراب 4 أعمدة : اثنان أخضران ، وإثنان لازورديان ، لا تقوم بمال. وعلي رأس المحراب خصة رخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة منمقة بأبدع التنميق من الذهب واللازود وساير الألوان ، وعلى وجه المحراب مما استداربه حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة [ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثلة صنعة خشب آبنوس وبقس وعود المجمر ، ويحكى في كتب تواريخ بني أمية أنه صنع في نجارته ونقشه 7 سنين ، وكان عدد صناعه ستة رجال ، غير من يخدمهم تصرفا ، ولكل صانع منهم في اليوم نصف مثقال محمدي وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهب وفضة ومسك لوقيد الشمع في ليلة 27 من شهر رمضان المعظم [ومع ذلك ففي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله ، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ، وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه ، وفيه نقط من دمه وهذا المصحف يخرج في صبيحة كل يوم جمعة ، ويتولى إخراجه رجلان من قومة المسجد. وأمامهم رجل ثالث بشمعة ، وللمصحف غشاء بديع الصنعة ، منقوش بأغرب مايكون من النقش وأدقه وأعجبه ، وله بموضع المصلى كرسي يوضع عليه ويتولى الإمام قراءة نصف حزب منه ثم يرد إلى موضعه. وعن يمين

المحراب والمنبر باب يفضي إلى القصر بني حايطي الجامع في ساباط متصل ، وفي هذا الساباط 8 أبواب منها 4 تنغلق من جهة القصر و 4 تنغلق من جهة الجامع. ولهذا الجامع عشرون بابا مصفحة بصفايح النحاس وكواكب النحاس ، وفي كل باب حلقتان في نهاية من الإتقان ، وعلى وجه كل باب منها في الحايط ضروب من القص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك ، أنواعا شتى وأجناسا مختلفة من الصناعات والتريش وصدور البراة وفيها استدار بالجامع في أعلاه لتمدد الضوء ودخوله إلى المسقق متكآت رخام ، طول كل متكأ منها قدر قامة في سعة 4 أشبار في غلظ 4 أصابع. وكلها صنع مسدسة ومثمنه مخرمة منفوذة لا يشبه بعضها بعضا.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة الجليلة الأعمال الرائقة الأشكال التي ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي منها 80 ذراعا إلى الوضع الذي يقف عليه المؤذن بقدميه. ومن هناك إلى أعلاه 20 ذراعا ويصعد إلى أعلى هذه المنارة بدرجين : أحدهما من الجانب الغربي والثاني من الجانب الشرقي إذا افترى الصاعدان أسفل الصومعة لايجتمعان إلا إذا وصلا أعلاها ، ووجه هذه الصومعة كله مبطن بالكذان اللكي ، منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة صنع مثمنة تحتوي على أنواع من الصنع والتزويق والكتابة والملون ، وبالأوجه الأربعة الدايرة من الصومعة صفان من قسى دايرة على عمد الرخام الحسن والذي في الصومعة من العمديين داخلها وخارجها 300 عمودين صغير وكبير [وفي أعلى الصومعة بيت له أربعة أبواب مغلقة ، يبيت فيه كل ليلة مؤذنان. وللصومعة 16 مؤذنا ، ويؤذنون فيها بالدولة لكل يوم مؤذنا على توال ، وفي أعلى الصومعة على القبة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهب ، وتفاحتان من فضة ، وأوراق سوسنية تسع الكبيرة من التفاحات 60 رطلا من الزيت ويخدم الجامع كله 60 رجلا وعليهم قايم ينظر في أمورهم ، وهذا الجامع متى سها إمامه لا يسجد لسهوه قبل السلام ، بل يسجد بعد السلام.

«نزهة المشتاق» للشريف الإدريسي

الـمـوحـدون

نصـــوص سيـــاسيـــة

10 رســالــة الخليفة عبد المؤمن بن علي

«أمره رضى الله تعالى عنه ، بالأمر بالمعروف ، ونهيه عن المنكر وعدله ونهجه مناهج الحق وفضله»

من أمير المؤمنين أيده الله تعالى بنصره ، وأمده بمعونته ، إلى جميع الطلبة الذين بالأندلس ، ومن صحبهم من المشيخة ، والأعيان والكافة ، وفقهم الله تعالى ، واستعملهم بما يرضاه.

سلام عليكم ورحمه الله تعالى وبركاته.

أما بعد ، فالحمد لله ، وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم ، الذي بعدله قامت السموات والأرض وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى الصلاة المباركة والتسليم ، ولأمته المخلصة في عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الذي بعثه رحمة للمؤمنين ، ينيلهم به الروح والنعيم ، ويريهم رحيقها المختوم.

وكتابنا هذا - كتب الله تعالى لكم رأفة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمه من الحضرة العلية بتينمل حرسها الله تعالى في سادس عشر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقد وصلنا - والحمد لله - وجناح الرحمة منضوض ، وطرف المكاره مغضوض ، وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض ، وشأن الظلم - بإذن الله تعالى - مكفوف مقبوض ، والحق أبلج لا كناية ولا تعريض.

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدي ، رضي الله تعالى

عنه ، لتجديد عهد به تقادم ، وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر في بناء مسجده المكرم تمتعاً ببركاته ، ورجاء في تضاعف الأمر بكل لبنة من لبناته ، وحرصاً على أن يتوافر به ، حظ التوفيق وقسمه ، ويعلو في الملأ الأعلى ذكره ورسمه ، ورغبة في رفع بيت من أفضل البيوت ، التي أمر الله عز وجل أن ترفع : ويذكر فيها إسمه ولتنعم الجوارح بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة ، والمواسم المعظمة ، وتتزود بالتطوف على معاهد ماعهدته من العوارف المتممة كل ذلك غرضاً في ذات الله تعالى غرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طلب ذلك الخير ويستنهضه.

وقد تم ـ بحمد الله تعالى ـ هذا الوطر ، واقتضى الإياب إلى النظر في المصالح ، والرأي الجميل النظر ، وتفجرت ـ بحمد الله تعالى ـ منابع الخير وفاضت ، وعادت روابض الأمر إلى أشرف حالاته وآضت ، وانبعثت موارد البركات بعدما غارت في غير هذا الزمن المذكور وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً على شكر هذه النعم التي عمّت ملابسها ، ووعت الأفئدة نفائسها ، وخاب عن رحماها خاسر الكلمة وبائسها.

وإن الله تعالى ، قد قضى بأن يكون شرف صاحبه به وامتساكه ، وبين العدل والجور حياة العالم وهلاكه ، فالسعيد من لقي ربه مبرأ من اتباع الهوى سليما ، والشقى من أتى مليا ، باكتساب الكبائر ملوماً ، «ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه ، وكان الله عليها حكيما»، والله سبحانه يهب الرحمة للمسترحمين ، ويحب ا لرفق ويحل به كنفه الأمين ، وفي الحض على ذلك يقول وهو أصدق القائلين «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» وبرحمته سبحانه لعباده بسط لعباده النعماء ، وبرأفته كشف عنهم العماء ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما يرحم الله من عباده الرحماء .

وقد اتصل بنا ـ وفقكم الله تعالى ـ أن من لايتقى الله ولا يخشاه ، ولا يراقبه في كبيرة يغشاه وتغشاه ، ولا يؤمن بيوم الحساب فيما أذاعه من المنكر وأفشاه ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ، وينتشرون بالقتل بأعراض الدنيا أقبح الانتشار ، يستحلون

حرمات المسلمين من غير حلها ، ويسارعون إلى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة والغلظة بطراً ورياءً في غير محلها ، ويبتدعون من وجوه المظالم ماتضعف شواهق الجبال عن حملها ، ويستنطبون من فواحش الآثام ماتذهب نفوس المؤمنين لأجلها ، ويتسببون إلى قتل المسلمين ، فضلا عن استباحة أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئونها ، ومزورات يضيفونها إليهم ، ينسبونها ، وينظرون إلى اهتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل يعدونها ظلما ويحسبونها ، ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ، ويعيثون فيهم بكل غاضبة للقلوب منتزعة ، والنبي ، صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم يقول :«من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول : يارب سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة» ولا يلتفتون إلى عاقبته ولاينظرون ، ولا يحرون بآذانهم مايفعل الله بأمثالهم ولا يخطرون «يخادعون الله والذين آمنوا ، ومايخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون». هيهات هيهات ، إنهم ساء ماكانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد مايهدهم هداً ، وجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سداً ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئاً إداً. أما عملوا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويوقعهم في مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استهواهم الشيطان به واستغواهم. أما عملوا أن أمر المهدي رضي الله تعالى عنه تساوي في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ، ألم يقل رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : «المسلمون تتكفى دماؤهم ويسعى لذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم». لقد أمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداماً ، وأعمت الشهوات بصائرهم إذهابا لنور الحق من نفوسهم وإعداماً ، وتا لله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولاتخلص ، ولسارع إليه من أسرع عقابنا ما يمحو رسمه محو الفنا ، ويكتب يديه مما قدمتا من الخنا. لقد ذكر لنا من تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآتم ، الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، أن أولياءك الخائضين في غمرات أبحرها ، المثيرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة ، القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط ، إبلاغاً في الانهاء بكثرتها وإمجاشا ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال

الناس إيغالا للصدور وإيحاشاً ، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله ، أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل . أصلحكم الله تعالى . عن هذه الأمثال والأشباه.

وقد علمتم أن عادتنا فيما يستوجب الضرب أو يستحقه ، ممن يظلم الأمر الشرعي أويعقه بحدود معلومة ، دون إفحاش ولا انتهاك ، ومواقف مرسومة تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثيم أو أفاك.

ولقد ذكرنا لنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات ، وتحجير المراسى وغيرها مارأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاه دماراً وهلكاً ، وأكثرها في نفس الديانة عبثاً وفتكاً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون. هل قام هذا الأمر العالي ، إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ، وسد سبيل الحق وطرقه ، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه. اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعيذك مما استعاذك منه محمد رسولك. روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «أعوذ بالله من المغرم والمأثم» تنبهاً على مافي أغرام الناس من الظلم المظلم. و لئن نقل إلينا . والله الشاهد . أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هنالك من البشر أو يأمر بشيء من ذلك الفعل المستنكر ، لنعاقبه بمحو أثره عقاباً يبقى [عظة] لمن اتعظ ، وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ.

وإن من ذلك الرأي الذميم والسعي المنقوم ، ماذكر لنا في أمر المسافرين ، الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها ، والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء ، الذين يضعون الغش طى مايوهمون به النصيحة ، ويستنبطون المكر في تصافاتهم القبيحة ، فيقولون للرجل منهم عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع مابه أتيت ، وقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ، مايرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم منالة ، وإنها لداهية عاقرة ، قاصمة للظهر فاقرة ، وياعجبا لكم معشر الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ، فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم وماأنتم على حق ، كيف تتكيف هذه الكبائر

وأنتم للأمور هنالك رصد ، أم كيف تجرى هذه الظلمات وقد قام للحق أود ، أم كيف تكون الدماء على هذه الصورة تسفك والحرمات تنتهك ، ولايمتعض لذلك منكم أحد ، كلا ليعاقبن كل من جنى ، وليظهرن ما قصد القاصد وماعنى ، وإن من وراء قولنا لتتبعا يبحث عن ذلك ويمحص ، ونظراً يفرق بين المشكل ويخلص .

ولاشك ـ والله أعلم ـ في أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعى تغير تلك الأحوال المتغيرات ، قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ، ويقولون مالا يفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ، ويجعلون النفير بالظلم والعدوان بدلا من العقل والقول الجميل والإيناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدكم عن مشاهدة الأمور ومعاينتهما ، والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفاسدها واختلالها ، وسبب قوى في انتفاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بانهماكها في البواطل واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولا تبعدوا بغلط الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم ، وباشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهد المتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا في جانب المسلمين من كل خفيف المقال ، كثير الاضطراب في الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال ، وتثبتوا وفقكم الله تعالى في الأحكام ، التي لابد لكم من النظر فيها تثبت الحث [البحث] عن حقائق الأمور والاستقصاء ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد في الخصام وبالغوا في الإيصاء .

ولاتظنوا أن الاجتهاد في الأمور يؤدي إلى الهجوم عليها والاقتحام ، ويخرج النظر عن التثبت في القضايا والأحكام ، فاذهبوا فيها مذهباً وسطاً ، واقصدوا الاعتدال مقصداً مقسطاً ، ولاتجتهدوا في شيء لاتعلمون فيه حكماً ، وشاورونا فيما يخفى عنكم وجهه ، لنرسم لكم فيه رسما ، فليس كل مجتهد مصيباً برأيه ، ولاكل هاجم على رأي منجحاً في سعيه ، وبين طرفى الأحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها ، وخير الأمور ـ قال عليه الصلاة والسلام ـ أو ساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أو لئك المسببين لتلك القبائح ، الساعين في صدما يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم بعد تثقيفهم ، لنشرد بهم من خلفهم ، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم ، وقد استخرنا الله ، في سد تلك الذريعة ، وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين للكبائر ، وتعلمونا بنبأكل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ، ولاسبيل لكم إلى قتل أحد من كل من هو في بلاد الموحدين وأنظارهم ومن هو منهم وداخل في مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ، ممن يريد المكر في أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه ، وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، لينفذ فيه من قبلنا ما يوجه الحق ويقتضيه ، ونمضي في عقابه ماينفذه الشرع ويمضيه ، فإياكم من مخالفة أمرنا هذا في قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ، ولتبادروا إلى أعلامنا بذنبه بعد سجنه وتثقيفه ، لنقابله بما نراه ، ونجرى الحق في مجراه.

وأنه أعلمنا بأن من يرضى بتلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ، ولايبالي احسن الفعل فيه أم قبيحه ، يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء ويعبث في ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجتراء ، ولا يتحفظ من مواقعة الزنا المحض ، ومخالفة الواجب مع الفرض ، وأن في ذلك اطراح ماأمر الله تعالى به من اتباع الشرع وإفساد الأصل من السنة والفرع ، مالا يحل سماعه ، ولا يستقر بنفس مؤمنة استطلاعه ، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً منهن أو يبيع ، حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ ، لئلا يذهب الحق في ذلك ويضيع ، ولتقدموا للنظر في أسواقهن من ترضون دينه وأمانته ، وتتحققون ثقته وصيانته ، فمن أبيح له البيع والابتياع ، أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشكل والنزاع ، وتجرى السنة مجراها ويمتثل الأمر المطاع. وكذلك فلتوقفوا عن بيع النساء في جميع من تفنموه منهن في تلك الأرجاء ، حتى تخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته ، وتعلمونا من ذلك بجليته ، لنرسم لكم فيه مايكون عليه اعتمادكم ، ويجرى إليه اقتضاؤكم.

واللهَ اللهَ في البحث على الخمور ، وتقديم النظر في أمرها ، فهو من أهم الأمور ، فإنها مفتاح الشرور ، ورأس الكبائر والفجور ، وهي رابطة أهل الجرم ، وجامعة أشتات الظلم. قال النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : «الخمر جماع الإثم» فجدوا في طلبها في المواطن المهتمة بشأنها ، واجتهدوا في إراقتها وكسر دنانها ، واعمدوا إلى السبب الذي يؤدي إلى التمكن منها ، فارعوه ، والحظوة ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب ، يكون بالمحافظة على ذلك محل المكالىء الرقيب ، ولا يكن منهم إلا من يفرق بين الحلال ويميز ، ويعرف مايجوز شربه ، ومالايجوز ، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرُّب واعتصاره ، وخذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصاره ، فما حل منه أباحوه ، وماكان غير ذلك قطعوه أصلا وفرعاً وأراقوه ، (الحلال بين والحرام بين) ولقضايا الشرع نظام. قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : «ماأسكر كثيره فالجرعة منه حرام».

وإن من يسعى في نوع من أنواع الفساد ، ويستصحب الأضرار بالمسلمين في الإصدار والإيراد ، هؤلاء الراقصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون ، فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ، ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها ، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها ، وأن من جملة ماحكى عنهم أنهم يتألفون في الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعاً ، يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى أنهم لا يرضون في ضيافاتهم. إلا بأسمن الجزر ، وناهيكم بهذا الاجتراء العظيم الضرر ، فسارعوا وفقكم الله تعالى ، إلى حسم هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخيروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا ، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المجيىء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها ، إلى مواقف رسائلهم ،

ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ، نستعيذ به سبحانه من الخور.

وكذلك ذكر لنا - وفقكم الله تعالى - من التحكم في الأموال ، وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، أن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصفت غرضهم الذميم ومنزعهم ، يفعلون في أموال الناس ماتقدم ذكره ، وشرح فكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هنالك ، فيعيثون فيها ويتحكمون ، ويجرؤون في التعدى عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها ، فإنها أمواله المخزونة في أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ، ولا سبيل لكم أن تنفذوا منها قليلا ولا كثيراً ، إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هناك ، وهذا أمر منا لكم ، ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة أمراً لازماً ، سنته بالاستمرار مستظلة ، وصحته بفضل الله لا تدخلها تعله.

وقد خاطبنا بمثل ماخاطبناكم به ، جميع الطلبة الموحدين ، وكافة البلاد التي هي بالدعوة المهدية معمورة ، وبكلمة الإيمان مشرقة منيرة ، فأمرنا بجميع فصول كتابنا هذا إليكم ولسواكم شامل ، وفي كافة أقطار الموحدين نافذ عامل ، فمن خالفه بوجه من وجوه الخلاف ، فقد تبين عناده وساء في العاجل والآجل مآله ومعاده ، ومن يمتثله ، بواجب الامتثال ، ويكف يده عما رسمنا في كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه ، واستقبل من ارتكاب النهي مايصده الانتقام به عن سواه منحاه ، فاستصحبوا حدنا هذا استصحابا مؤيداً ، واتخذوه في كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً ، وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد ، الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير - أيده الله تعالى - على بسط العدل وإفاضته على الكل ، ورفع العبد المثقل ، وكل أن يسلكوا في جميع تصرفاتهم سبيل الاستقامة ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة لذلك والاستدامة ، ويتجافوا عن مواقع الظلم ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وإسراعاً ، ويكونوا في

التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تألفاً واجتماعاً.

ولما كان هذا الأمر عندنا - وفقكم الله تعالى - أهم أمر وأوجبه ، وأحق ماأدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به قد جعله على كل حالة مقدماً ، وأنفذه بأمر الله تعالى إنفاذاً ملتزماً ، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بخط يدنا ، وهاهي قد رفعت الإشكال رفعاً بيناً ، وأرتكم فرط اهتبالنا حقاً مبيناً ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسارعة ، وصلوا ابتدار شأنها بالمواصلة والمتابعة ، وأحضروا للاجتماع على هذا الكتاب جميع من في تلكم البلاد من الطلبة والعمال وكافة المقدمين للأعمال ، ولا تقدموا أمراً من الأمور على إنفاذ جميع ماتضمنه ، والاعتمال بكل ماشرحه وبينه ، ولاتشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعد ومبانيه ، ومخاطبتنا بما يكون منكم في تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، واقرأوه على الكافة أعالي المنابر ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادى والحواضر وأسمعوا به إفصاحاً وإعلاناً ، وأشربوه قلوب الناس جماعات ووحدانا ، وأحسنوا إيصال أغراضه إليهم ، فإن الله تعالى يجزي الإحسان إحساناً.

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير وبلغتم صحته بواجب التبليغ والتقرير ، فاكتبوا منه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكدوا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه من تقديم العمل فيه على كل الوجوه ، وامتثال مغنمه ، على مايحبه الله تعالى ويرتضيه ، وحذروهم من التعرض لمخالفته ، فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصد التطلع والتسمع لما يكون منكم ومنهم ، لنقابل بالواجب مايصدر عنكم وعنهم.

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان ، وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان ، ولدينا من التراؤف بهم والرفق بجانبهم ، شأن لا يفارقه من فضل الله تعالى شأن ، وقد علمتم ذلك منا واختبرتموه ، وجربتموه على مر الزمان وصبرتموه ، فلتتقوا كل من استرعاكم الله تعالى أمره بكل طلاقة ويسر ، ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر ، ولتعلموا - رعاكم الله - آن من شملته كلمة التوحيد ، في العهد القريب أو البعيد ، في مضمار

واحد من العدل محمولون ، وأنكم عن كل من هنالك مسئولون ، ولفظ الموحدين بيننا وبينهم جميعاً ، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلكاً مشروعاً ، وقد ألفت الكلمة العلية بينهم ، فبعضهم لبعض في الخير أسوة ، وقد قال الله تعالى «إنما المؤمنون إخوة» فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل ، قصداً إلى مرضاة الله تعالى وإيقانا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، وحسنوا بهم رعاكم الله ـ ظناً ، وعودوهم الخبر لفظاً ومعنى ، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسناً ، واستألفوا الناس بالتي هي أحسن ، وابذلوا لهم من المساعدة في ذات الله تعالى غاية مايتمكن ، وانهجوا لهم من المبرات منهجاً يبدو به مضمركم الجميل ويتبين ، وسروا بصالح عملكم وبشروا ويسروا ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ ولا تعسروا وسكّنوا ، ولا تُنفِّروا.

واعملوا أن السعي في هذا الغرض واجب ، والاعتمال في رفع ذلك المانع الحاجب ، لايتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متآلفة عليه متساعدة ، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع في الصلاح آراؤكم ، ويضمن التجمع التام لكم ولمن وراءكم ، فعليكم بالمظافرة والمناصرة والمؤازرة ، فهي سواعد السعد وقواعد الود ، وشيم الكرام المحافظين للعهد ، وبها يعمر محل الرضا ونديه ، وبه أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه.

وقد نصحنا لكم فاقبلوها نصيحة ، قصدت في ذات الله تعالى قصدها ، وذكرنا لكم بهذه التذكرة ، فاستقلوها رشدها ، ونبهناكم تنبهاً بالغاً وللحال مابعدها ، جعلنا الله وإياكم ممن امتثل أمره المطاع بخالص نيته ، وأفرغ الرحمة على قالب سحبته ، وحفظ مااسترعاه الله تعالى ، فكل راع مسئول عن رعيته.

وكان مما بعثنا ـ وفقكم الله تعالى ـ على تنبيهكم وإذكاركم ، وإيقاظكم للنظر في تلك المصالح وإشعاركم ، =ماألفيناه بحضرة مراكش ـ حرسها الله تعالى ـ من بعض تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة ، ومايجرى مجراها في وجوب الإزالة ، والإحالة، فإنا كنا لا نبحث عن ذلك ، لتخيلنا أنه لا يجرؤ أحد أن يسلك في هذا الأمر الذي

أظهر الله تعالى تلك المسالك ، فلما كان الحث عما يجب ، وأزال عن وجه المشاهدة ماكان يحتجب ، طلعنا على ذلك فأنكرنا ماكان نكيراً ، وأزلنا بعون الله تعالى ماكان محذوراً بالشرع محظوراً ، حتى تطهر ثوب الأمن من دنسه ، وتجلى الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مقتبسه ، وجرت الأمور على ماعهدنا عليه من الاعتدال والقوام ، يحكم ماأحكمه الإمام المهدي رضي الله عنه في القضايا والأحكام ، وإذا كان الافتيات في شيء من هذا ونحن على اقتراب ، فكيف الأمر فيمن هو في حكم بعد عنا واغتراب.

فانظروا هذا ـ وفقكم الله تعالى ـ نظرة أولى الألباب ، ولتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه ، على موجب الكتاب.

والسلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

«نظم الجمان » لابن القطان ، المطبعة المهدية ـ تطوان ص 150 - 167

11 رسالة

الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

إلى أخيه السيد أبي سعيد عثمان وأصحابه الطلبة بقرطبة ، يوصى فيها بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل وتحري الدقة ، وألا يقضي في أمر الدماء إلا بعد رفعه إلى الخليفة.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآلله وسلم والحمد لله وحده

من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره ، وأمدهم بمعونته ، إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا ، الأكرم لدينا ، أبي سعيد وأصحابه ، الطلبة الذين بقرطبة أعزهم الله ، ودام كرامتهم بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإنا نحمد إليكم الله

الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونرضى عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم نجله وسليله ، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله. وإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه ، وكلأ جانبكم وحماه ، من حضرة مراكش حرسها الله. والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته الاستعانة به والتوكل عليه ، وموالاة شكره على ماهدى أولياء أمره ، وأنصار دعوته ، وحماة كلمته من صرف أعنة المحبة والاهتمام ، وإحكام منابر الأحكام ، فيما وكله إليهم من أمور الإسلام ، إلى أن تجرى على السداد ، وتنسق على سبيل الإرشاد ، وتقسيم على المهيع ، وتمضى على المنهج ، وتسير في الواضح ، وتهدى على اللاحب ، ويسلك بها في الحدد ، الذي من سلكه أحمدت منه الآثار وأمن عليه العثار ، وارتضى له الإيراد والإصدار ، فيكون العمل فيها على اليقين ، الهادي إلى الصراط المستبين ، المأمون في سلوكه من المزلة والضلال ، المرجو في الاهتداء به حسن العاقبة وصلاح الحال ، فنسئله تعالى جده عونا من قبله على هذا الغرض العام الجدوى يصاحب ، وتوفيقاً من لدنه في هذا النظر الشامل المنفعة يجاور ويصاقب

وأنه أدام الله كرامتكم ، لما كانت مباني هذا الأمر العزيز أدامه الله على التقوى مؤسسه ، وأوامره ونواهيه على أمر الله ورسوله جرية مترقبة ، وإليها في الأخذ والتركة مستندة ، وبمقتضياتها في جميع الأحكام آخذة عاملة ، إذ هي نور الحق وسراجه ، وعمود الصدق ومعراجه ، وسبيل الفوز ومنهاجه ، ورائد الثواب وبشيره ، وقائد العقاب ونكيره ، فمن ائتم بكتاب الله ، الذي هو الإمام المنادى والحق الواضح البدى ؛ وبسنة رسوله صلعم ، التي جعل العمل بها كالعمل بكتابه ، والوقوف عند حدها كالوقوف عند حده ، أمن من الغوائل ، في العاجل والآجل ، وبلغ من السلامة في الحالين إلى أقصى أمد الآمل ، ولم يوجد للباطل إليه سبيلا ، ولم يتمكن للشيطان أن يجد في تضليله واستهواءه صرفاً ولا حويلا ، فتوفرت الدواعـي على الدعاء إليها ، وحمل الكافة عليها ، وأخذ الجميع بما يفقههم لديها ، وقد أمر الله تعالى ، من أمر الناس بطاعته ، أن يحكموا بالعدل ، ويضعوا للعبد موازين القسط ، فلم يكن لهم بد من امتثال أمره ، والاستناد إلى حكمه ، وكانت الوجوه التي تفضي إلى الحق ،

في فضل قضايا العباد متنقبة ، والطرق المؤدية إلى مغنى الصدق ومعناه ملتبسة ومتشعبة ، فخرج فيها بنيات تخطىء الصراط المستقيم ، وتضل الضلال البعيد ، فصار امضاءها من غير استناد إلى هذا الهدى المتبوع ، والعلم المرفوع ، خطرا على ممضيها ، وإنفاذها على غير هذا السنن غرارا على منفذيها ، ولما كان الأمر كذلك ، تعين ووجب وثبت وترقب ، أن نخاطب جميع عمال بلاد الموحدين أعزهم الله ، شرقاً وغربا وبعداً وقربا ، خطابا يتساوى فيه جميعهم

ويتوازى في العمل فيه كافتهم ، بألا يحكموا في الدماء حكماً من تلقائهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم ، ويتقرر فيما يروقه لديهم ، إلا بعد أن تُرفع إلينا النازلة على وجهها ، وتؤدى على كنهها ، وتشرح حسب ماوقعت عليه ، وتنتهي بالتوثق والبيان إلى ماانتهت إليه ، وتقيد بالشهود العدول ، المعروفين في واضعهم بالعدل والرضا ، الموجبين للقبول ، وتكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين في مقالتهم واستظهارهم في بيناتهم ، معطى كل جانب حقه ، موفى كل قائد قوله ، فتكون مخاطبتهم أعزكم الله ، ومخاطبة من يتناول هذا الكتاب وتوجه إليه هذا القصد ، خطاب من تَحمّل الشهادة ويؤدي فيها الأمانة ، على مايجب من البيان الذي لا يعتوره التباس ولا يطمس وجهه إشكال ، ويتوثقون في المطلوبين بالدماء بحسبهم وتثقيفهم ، ويتوكفون ماتصلكم به المخاطبة ، فتقفون عند مقتضاه ولا يعدلون عن شيء من معناه ، مراقبا كل منكم إلاهه ومولاه ، علما بأنه يعلم سره ونجواه ، وأنه يسمعه ويراه ، واعلموا وفقكم الله وأسعدكم ، أن هذا الحكم عام في جميع النوازل ، التي أطلقت السُّنة فيها القتل وسنته ، وحكمت به وشرعته ، كمن قتل نفساً وأقر بالقتل ، أو شهد العدول عليه به ، ومن بدل دينا وارتد عنه ، ومن أتى الفاحشة بعد الإحصان ، باعتراف أو دليل أو شهادة مقبولة ، وماخير الأئمة فيه من قتل المحاربين والساعين في الأرض بالفساد ، والمتأملين أمر الله بالاستهزاء والعناد ، سواء سُنَّ ذلك كله أو وقع فيه ضرب يشاكله مجراه ، واحد في التوقف عن إمضاءه ، والتأخر عن تنفيذه ، إلا بعد المطالعة ، وتعرف وجه العمل من المجاوبة. وكذلك وفقكم الله يكون التوقف فيما عدا المذكور من النوازل ، التي يكون [فيها] أحكام دون

النفوس من قتل الخطأ وديات الشّجاج وعقول الأعضاء ، وأورش الجراحات ، ووجه القصاص ، والقطع في السرقات ، إلى غير ذلك من القضايا المشكلة في الأموال وإطلاقها واستحقاقها ، وفي الرقاب وإعتاقها واسترقاقها ، وملتبسات المناكحات والمعاملات ، وماأشبهها من الأمور التي الإقدام على الحكم فيها تهجم ، والعمل بغير استناد إلى مايجب تسور ، فتوقفوا أعزكم الله عن جميع مافسر لكم ، ولو أخفه توقف الساعي في نجاته ، العامل لدنياه وآخرته ، وقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله من الحظر الوكيد ، والوعيد الشديد ، في إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات إلا بوجه صحيح ، لايسلم إلا من طريق العصمة ، ولاتهتدي إليه إلا أنوار الحكمة ، مايزع العقلاء ، ويكف الألباء ، ويحذرهم من سطو الله وعقابه ، ويخوفهم من أليم عذابه ، فعولوا على رسم في هذا الكتاب ، من التعريف بما يبطن ، وانهاء كلماينزل ، ليتصلكم من التوقيف ، والبيان والتعريف ، لما يظهر لكم به بركة الاقتداء ، وتستبرق منه عليكم أنوار الائتمام والاهتداء ، ويتراءى لكم به الحق في صوره الصادقة ، ومثله المطابقة ، ومناظره الموافقة ، ومطالعه المشرقة ، بفضل الله ورحمته ، وملاك مايسدد مقاصدكم في جميع أحوالكم ، ويوجب لكم الرضا في كافة أقوالكم وأفعالكم ، تقوى الله في السر والجهر ، وخيفته في الباطن والظاهر ، وقدع النفس عن هواها ، وكبحها بلجام النهى عن الركض ، في ميدان رداها ، وطاعة أمره العظيم والجرى على سننه المستقيم ، فذلك عصمة من الزلل وتوفيق في القول والعمل بفضل الله ، وقد وجب أكرمكم الله لهذا الكتاب ، بما انطوى عليه من الأغراض الشاملة المنفعة ، العامة المصلحة ، أن يعطى حقه من الإشاعة والتشهير ، وينهض مقتضاه إلى الصغير والكبير ، ويجمع الناس لقراءته وتلقى مضمنه ، ويساوي فيه بين الغائب والشاهد والبادي والحاضر ، بإسماع من حضر ومخاطبة من غاب ، ممن يتعلق بنظركم ويدخل تحت عملكم ، فتوجهون بنسخ منه إلى كل جهة من جهاتكم ، وعمل من أعمالكم ، ليأخذ الجميع بقسطه من المسرة ، وتعرف بركته واستشعار عائدته ، وأنسه بما أمر به هذا الأمر العزيز ، من إفاضة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعين ، وسننه الواضح المبين ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى

وبركاته ، كتب في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وستين وخمسمائة.

«المن بالامامة » تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي ؛ دار الحرية للطباعة . بغداد 1979 : ص 728 - 731

12 رسالة

بيعة أهل إشبيلية للخليفة أبي يوسف يعقوب

استكتبها ولده والي إشبيلية السيد أبو إبراهيم إسماعيل ، ووجهها إلى الحضرة مع بعض أشياخ إشبيلية ،

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الحمد لله الذي جعل الإمامة قواما للحق ، ونظاما للخلق ، وتماما على الذي أحسن رعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها ، والانتظام بجماعتها ، والصلاة على محمد نبيه المبتعث بنور الحق ، الساطع الأضواء ، المبلغ عن الله سبحانه بأكمل وجوه التبليغ والإنهاء ، وعلى آله وأصحابه الذين والوه بالنصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المخصوص بأثرة الاصطفاء والاجتباء ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى ، متمم انوار الهدى ، ومجلى غياهب الظلماء والامام الأعدل الأهدى ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء ، واستصحاب الظهور والاعتلاء. أما بعد فإنه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين يحضرون من الله حاضرة التوفيق ، وينظر إليهم نظر الاقتداء والاهتداء من وراءهم من أهل الحق والتحقيق ، على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين خلد الله أمرهم ، وأعز نصرهم بالإسم المبارك الكريم ، الذي أول من دعى به الفاروق رضوان الله تعالى عليه ، فعرف الله من يمنه مافتح لملة الإسلام شرقاً وغربا ، وأحال الدلو بيد ساقيهم فاستحالت

غربا ، حتى ضرب الدين بجرانه ، وألقى الناس بعطن من يمنه وأمانه ، جددنا من بيعته على الإسمية المباركة ، فرضا أوجبه الشرع وجوب الإلزام ، واقتضى الوفاء بشروطه المؤكدة على الكمال والتمام ، فبايعنا على السمع والطاعة بيعة أمان وإيمان وعدل وعبادة ، والتزمنا بها ، في اليسر والعسر ، والمنبسط والمكروه ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا بها بالعروة الوثقى ، والعصمة التي من يعلق بحبلها ، وأوى إلى ظلها ، فقد اعتصم بالجانب الأمنع الأوفى ، علما أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التي تتكفل بنصرها وإعلاء أمرها ، العناية الربانية ، علينا بذلك عهد الله الأوكد الألزم ، وميثاقه الأغلظ الأعظم وذمته التي لا يقطع حبلها على مرور الزمان ولايصرم ، مستبصرين في هذه البيعة الكريمة بنور الاهتداء ، سالكين في التزام الطاعة على الحجة البيضاء ، عارفين بما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء ، والله سبحانه يحفظ بها أكناف الإسلام ، ويجعلها كلمة باقية على مرور الأيام ، بفضل الله ويمنة ، وعلى مضمن مانص فوق هذا ، التزم أهل إشبيلية كافة ، وكتبوا على ذلك شهادتهم في النصف من جمادى الآخرة سنة ثلث وستين وخمس مایة.

المصد الأخير ص 356 - 358

13 رســالــة

من الخليفة أبي يعقوب يوسف

إلى الطلبة الذين بغرناطة ، يشير فيها إلى وصول بيعتهم من أشياخ غرناطة ، وينوه بولائهم ووفائهم ، ويوصي بإكرامهم وبرهم.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده. من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأعزه بمعونته.

إلى الطلبة الذين بأغرناطة أكرمهم الله بتقواه. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ونشكره على آلايه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القايم بأمر الله ، والداعي إلى سبيله ، ونوالي الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مسنى أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله ، فإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه من حضرة مراكش حرسها الله. والذي نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته ، والاستعانة به والتوكل عليه. وقد وصلنا كتابكم من عند الشيوخ من إغرناطة ، حرسها الله والموحدين ، وفق الله جميعهم ، ووقفنا عليه ، ورأينا ماتحملوه عن الموحدين بأغرناطة وجيرانهم من انعقاد إجماعهم على أجمع عليه شيوخ أهل [الهدى] وأعيانهم من الأمر الذي أوجبوا على أنفسهم المبايعة عليه ، وأعطاه صفقة اليد فيه ، وقد وفقهم الله لما وفق إليه أهل أمره ، وذوى العصمة من طايفته ، والله تعالى يتقبل منهم عملهم ويعرفهم بركة ما التزموه ، ويعينهم على القيام بواجبهم والوفاء بحقه. وقد انصرف هؤلاء الأشياخ المذكورين بعد إقامتهم بهذه الحضرة ونيلهم بركاتها ، مايجدون أثره في أحوالهم [وسريان] الانتفاع به في أقوالهم وأعمالهم ، فأعرفوا لهم حق وفادتهم ومكان رفادتهم وأحملوهم. خيراً بهم على الرعاية المتصلة ، والمبرة الحافلة المشتملة ، إن شاء الله تعالى ، والله ولي عونكم وصونكم ، لا رب غيره والسلام الكريم العميم عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الثاني عشر من شوال عام ثلثة وستين وخمس مائة.

نفس المصدر ص 362 - 363

14 رسالة

موجهة من السيد أبي إسحق إبراهيم بن الخليفة أبي يعقوب يوسف إلى الحافظ أبي عبد الله بن أبي ابراهيم والى غرناطة يبلغه فيها بدخول ابن همشك في الدعوة الموحدية.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الشيخ الأجل الحافظ الأعلى ولينا في الله تعالى ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم أدام الله عزه وكرامته بتقواه.

وليكم في الله تعالى ابراهيم بن أمير المؤمنين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد حمد الله على ماأولى ومنح ، والصلاة على محمد نبيه الذي تبين به دين الحق ووضح والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، معيد دين الله ، بعدما عفى رسمه ومضى ، والدعاء لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الذي طهر بعدله البلاد وفتح ، ولسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الذي أثمر سعيه وأنجح ، وكمل فيمن جلا فيه الأمور الدينية وأصلح ، فكتبناه إليكم أدام الله كرامتكم بتقواه ، من قرطبة حرسها الله ، ولاجديد إلا ماعود الله بركة هذا الأمر العزيز من فتح ، لاتزال تفتح أبوابه وتتصل أعتابه ، وترفع قبابه ، وتتعرف مع كل حين انهلال مافيه وإسكانه. والحمد لله على ذلك حمداً كثيراً ، يصفو به سربال إحسانه وجلبابه. وإن من النعم التي ببركة هذا الأمر العزيز حديدها ، واقتضى بسعادته مزيدها ، واتبع بطريقها تأييدها ، وانجرفيها لأولياء الأمر العزيز الموعود ، ووافقهم فيها الحد المصحب المسعد. وإن الشيخ أبا اسحق ابراهيم بن همشك وفقه الله ، كشف له عن وجه هداه ، وجلى عن موارد رواه ، وتبين له أن هذا الأمر العزيز هو المركب المنجى ، السابق له السعادة الباقية المزجى ، الذي لايؤخر عثار من صدف عنه ولا يرجى ، فبادر إلى الدخول فيه بدار من خلصت سرائره ، وطويت على موعبة ضمايره ، ورأى أن تلك يمحى به خطاياه ويغفر جرايره. وأذاع الدعوة المهدية في جميع بلاده ، وأعلن بها ، وأبدى الاعتلاق بعصمتها ، والتمسك بسنها ، ولقي الموحدين أيدهم الله بتقواه ، ملاقاة اللايذ بظلهم ، المتمسك بحبلهم ، المستنيم ، المنطوى على الولاء الأخلص ، والود الأسلم ، والحمد لله على ذلك حمداً تتوالى به فتوحه ، ويتصل به مبذول إحسانه وممنوحه ، وخاطبنا كم بذلك أدام الله كرامتكم لتجروا شكر الله تعالى على ماأسبغ من نعمه وأولى ، وتسلكوا معه سبيلا يكون أحرى بازديادها ، مامن عفا

وولى ، والله تعالى يوالي لديكم آلاه ، ويسبغ عليكم ظاهره وباطنه نعماه ، والسلام الأتم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كتب في شهر رمضان المعظم عام أربعة وستين وخمس ماية.

المصدر ص 415 - 416

15 رسـالـة

الخليفة أبي يعقوب يوسف

إلى الطلبة والموحدين بجزيرة الأندلس ، ينبههم فيها باهتمامه بأمر الأندلس ، والعمل على نصرتها ، ومجاهدة أعدائها ، ويطمئنهم على تنفيذ هذا العزم ، بما بعثه من عسكر موحدى تحت إمرة الشيخ أبي حفص ، تمهيداً لجواز الموحدين إليها.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده. من أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأمده بمعونته. إلى الطلبة الموحدين من الذين بجزيرة الأندلس أدام الله توفيقهم وكرامتهم. سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد فانا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ونشكره على آلايه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القايم بأمر الله تعالى ، والداعي إلى سبيله ، ونوالي الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ، ممشى أمره العزيز إلى غاية تتميمة وتكميله. وأنا كتبناه إليكم وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه ، من حضرة مراكش حرسها الله. وهذا الأمر العزيز بما وعده الله من النصر ، وضمن له من التأييد ، وتكفل له من التمكين ، وزاد من تبسطه وامتداد علوايه ، واتصال مضامره وخلوصه ، إلى كافة الأرجاء ، وتغلغله في كل الأنحاء ، لإكمال دينه وإتمام

نوره ، وبث دعوته وتصديق وعده ، لاتزال [موارده] الحافظة لصوره ، المبقية لأثره ، المثبتة لأركانه ، الممكنة لقواعده ، تشيع من الأسباب القوية واللطائف المنهضة ، والمعاني على سريانه ، المزعجة لتشربه وجريانه ، مما يؤذن له بإنجازه مواعداته ، وتتبع مضموناته ، حتى يستوى على مداه الذي لاغاية بعده ، ويقف على منتهاه الذي لامطلع وراءه ، يقينا اطمأنت بمقدمات العابه القلوب ، وقرت على ظهور براهينه النفوس ، وعضدته الآيات البينة ، ونطقت به الآثار المفصحة ، وناقدت شد أحواله لمن ألقى السمع وهو شهيد ..

ومازلنا وفقكم الله ، على أتم العناية بتلكم الجزيرة مهدها الله ، والحرص على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة اشفاقا على ما استضام منها جيرتها الأعداء ، وأبناؤها الأغفاء ، مجمعين وردها ، وماكادوها به من التلف والتحفيف والتنقيض ، وفغر الأفواه ، وكسر الثيوب والأرصاد ، لغيض مافض فيها من نور التوحيد ، وخفض مانصب من أعلام هذا الأمر ، والمناصبة للمنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستذمين بذمته ، ممن صح ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السبك ، ونصح على السبر ، ونجعل لها من الفكر حظا ، يستحق الصدق على ماسواه ، من الأفكار ، ويأخذ السبق على غيره من معينات الأمور ، ونراه من الأهم الأغنى ، والأول الأولى ، قياما بحق الله في جهاد أعدايها ومكابرى مناويها ، ومن لم تنفعه العبر على مرورها على بصره، وتواردها على مشاهدته ، وإدايتها به ، ولم يرع سمعا دعوة الحق التي ملأت الخافقين ، وقرع صوتها مسامع الثقلين ، وتمكن أسباب التفرغ لذلك ، والتوسع فيه ، والنظر في أحكامه ، فيعترض من أهل هذه المغارب ، شواغب يثيرها الجهال ، ويبغيها النعقة الضلال ، فلا يسمع أسمالها ، ولايسوغ الإضراب عنها ، قيامابحق الدين ، وتوقياً من استشراء الشر ، وتوقد أسباب الفتنة ، فينصرف إليها من الالتفات والقصد ، لحسم عللها ، وإبراء أدوائها ، مايقشع غياباتها ، ويطهر أقذاءها ، ويفضي إلى المقصود ا لأول من التفرغ للجزيرة مهدها الله ، والتوطيد لأمرها دوما .. الاشتغال بهذا الغرب يلط بأرجائه ، ويشتمل على جوانبه ، ويتخلل

زواياه ، وينتظم أو عاره وسهوله ، حتى صفى الله مشاربه ، وخلص من الشوب مشارعه ، ووقف بأهل الانزاء من أصناف مشغبية على تايب أنات بقلبه ، وندم على مافرط من ذنبه ، وعلى شقى تمادى في غلوايه ، ولج في تمرده فولى كل مااستحق ، وسهم خطة مارضى ، ووجد التايب برد الأمان ، وتبوأ كنف الإحسان ، وحقت على العاصي كلمة العذاب ، وأخذه التباب ، والصيرورة إلى سوء المآل ، وشر المآب ، وربك بظلام للعبيد. ولما تولى الله هذه الجهات منة التمهيد ، وبسط لها نعمة التمكين والتوطيد ، انعطف النظر إلى محل مثاره ، وسال سيل الاعتقاد إلى قراره ، وتوجه حفل الاشتغال إلى الجزيرة مهدها الله ، وتوفرت دواعي الاستعداد لنصرتها وجهاد عدوها ، ورأينا في أثناء مانحاوله من مروم هذه الغزوة المتممة المباشرة ، أن نقدم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبى حفص أعزه الله ، يكون تقدمه لجواز جمهور الموحدين ، ومؤديا بما عزمنا عليه ، والله المستعان ، من التحرك لجملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذي جعلناه نصب العين ، وتجاه الخاطر ، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم ، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أغراضها ، التي انعقدت بها النية ، واحتدمت لها في ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله في تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والروية ، وإنا لنرجو من المبلغ لآمال القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون مايتمم مبدأها ويكمل منشأها ، وتشفى به صدور أوليائه ، بالنعمة في أعدايه ، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وثنية ، فما ذلك على الله بعزيز ، وإذا طالعتم وفقكم الله هذه الأنباء ، واستعلمتم مافي ضمنها من البشائر ، وعنوانات الفتوح ، وآثار هذه القصود ؛ وحملتم ذلك على الثقة بما وعد الله هذا الأمر ، والتفت إلى ماعودة رأيتموها نعمى تحولتكم ، ورحمى انتحتكم وأتتكم ، وشرحتم لها صدوركم ، وعمرتهم بها أحناكم ، وشغلتم بها مشاهدكم ، وسررتم غايتكم وشاهدكم ، وأذعتموها إذاعة تثلج بها صدور الأولياء ، وتخرج منها صدور الأعداء ، ويكون للمؤمنين منها مطلع أمل ، وللكافر

مطلع هول ووجل ، عرفكم الله شكر النعمة بها ، وأعانكم على أداء واجبها ، وبلغكم الغاية الجميلة منها بمنه ويمنه.وإذا وصلكم هذا الكتاب ، فأشيعوه قراءة على من حضركم من أصناف الناس ، وإرسالا بنسخه إلى من نأى عنكم ، حتى يجد أثر الاستبشار به ، ويترقب بمودعه الغايب والشاهد ، والحاضر والناءى انشاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كتب في الحادي والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس ماية.

المصدر ص 399 - 304

نصـــوص اجتمــاعيــة

16 أنظمة الحسبة

فصل في تقسيم وجوه الحسبة في تغيير المنكر وبيانها

تغيير المنكر يفتقر إلى علم يحقّقه ، ومعرفةٍ تمنع الإنكار على فاعله ، وإلى صبرٍ ورفقٍ في تولّي ذلك بحسب ممكنه ، وإلى قوة وجزالة فيما لا ينجح الرِّفق في مثله ، وينحصر ذلك كلّه في ثلاثة أصول وهي :

المحتسب ونفس الأحتساب. والمناكر المحتسب فيها.

فمهما آنتفض أصل واحد منها آختل وجه الحسبة ، وفائدة تغيير المنكر ، إذ قد يؤدّي / ذلك إلى منكر مثله ، أو أشدّ ممّا يحتسب فيه ، وسنبيّن كلّ واحدٍ منها ، ونذكر من شروطه وأحكامه مايكون إن شاء الله أصلاً في آستعماله ، وتنبيهاً على ماوقع من آمتثاله ، والله المسدّد لا ربَ غيره.

الفصل في المحتسب

وشروطه أربعة :

أن يكون مسلمًا. مكلّفاً. عالماً بما يحتسب فيه. قادراً على التّغيير والقيام به.

فأمّا الإسلام ولعلمٌ بما يحتسب فيه ، فشرطان في صحّة القيام بالتّغيير ، لا يجوز ولا يتوجّه مع عدمها ، إذ لا يصحّ تغيير الكافر وآحتسابه ، لأنّه ليس من أهله ، إذ التّغيير آنتصارٌ لدين الله تعالى ، والكافر جاحد له ، وآنتصاره لما جحده وكابر عليه محالٌ وآستخفافٌ

بأمر المسلمين ، إذ لعلّه إنّما يريد بذلك التوصّل إلى إذلالهم والتسلط والآستطالة عليهم ، فلايصحُ تمكينه منه لقوله تعالى : (وَلَنْ يَجْعَلَ اللّه للكافرينَ على المؤمنين سبيلا). وقال صلى الله عليه وسلم : «لن أستعين بمشرك».

وكذلك الجاهل يرجوه القيام بالحسبة والتّغيير ، لا يصحُ قيامه فيما جهل حقيقته من المناكر ، أو جهل مايجب عليه فيه من الإنكار ، فإنّ ذلك مختلف بآختلاف المنكر وفاعله والمحتسب عليه ، فلا يستوى إنكار الولد على أبيه ، والعبد على سيّده ، والرعيّة على الأمير ، وما في معنى ذلك مع غيرهم ، إلى نحو ذلك ممّا قد يؤول القيام به إلى ما هو أنكر من الأوّل ، فمن كان يجهل هذه الأشياء ، فلا يجوز قيامه فيما جهل منها ، ويجوز فيها علم وجود الشّرط في ذلك الشيء.

وأمّا الشّرطان الآخران وهما : التّكليف والقدرة على التّغيير ، فهما لإيجاب القيام عمّن دخل فيه الشّرطان الأوّلان ، لأنّ غير المكلّف من صبيٍّ أو مجنونٍ ونحوهما لا يتعيّن عليه خطابٌ ولا يلزمه قيامٌ ، إلاّ أنّ من نهض من الصّبيان إلى حدّ العقل والتّمييز ، وعرف المنكرات ووجه التّغيير ، فتبرع بالحسبة ،فقيامه صحيحٌ ، وأجره على ذلك عند اللّه جزيلٌ ، وهو إن لم يقم في ذلك غير آثم ، بخلاف المكلّف ، وكذلك غير القادر على التغيير ، إمّا لأنّه يُوقن أو يقوى عنده وقوع المكروه به الذي أباح اللّه له معه التّرك ، أو لأنّه علم أنّ قيامه ذلك لاينفع ولا يؤثر شيئاً ، فمن كانت هذه سبيله ففرض القيام ساقطٌ معه ، وإنّما على من شاهد ذلك الإنكار بقلبه ، والفرار ماأمكنه عن مشاهدته ، ويصحُ مع ذلك قيامه أن يبرع به باذلاً نفسه للّه تعالى في موطن المخافة ، أو قاصداً لإظهار / شعائر الدّين في موطن الإعراض عن آحتسابه والإضراب عن الآنتفاع به ، لأن في ذكر ذلك والقيام به فائدة أخرى غير زوال المنكر من حيث التّنبيه على حدود اللّه تعالى ، والإعلان بشعائر الدّين ، والآنتقال من دربة اللّسان في التّغيير ، إذ التمالؤ في مثل ذلك على السّكوت لكون القائم بعمله لا ينفع فيه قد يوهم الرّضا بذلك ، ويشتبه على من قلّ علمه ودينه التّساهل بمثل ذلك وآعتقاد جوازه ، فإذا قام أحدٌ بمثل

هذا متبرّعاً ، صحّ آحتسابه ، وعظم عند الله تعالى أجره ، وهو في سعةٍ من التّرك إن شاء الله تعالى ، بخلاف آنخرام الشّرطين الأوّلين ، فإنّ القيام مع عدمهما أو عدم أحدهما باطلٌ لا يصحّ.

فصل

وآختلف هل العدالة شرط في القيام بالحسبة في تغيير المنكر أو لا ؟ فأوجب ذلك قوم ، ورأوا أنّ الفاسق لا يحتسب ، وآحتجّوا على ذلك بأشياء تلزم لظهور الآنفصال عنها ، والصّحيح وجوب ذلك عليه كما قدّمناه ، إذ وجدت الشروط المتقدمة ، وصحّة فعله منه إذا وقع ، أمّا وجوبه عليه ، فلأنّه مكلّف عَلِمَ مُنْكَراً يقدر على تغييره ، فتعيّن عليه القيام به لقوله صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليُغَيِّره ... الحديث» وليس كونه فاسقاً في غير ذلك ، أو ممّن شأنه فعل ذلك المنكر بعينه ، مخرجه عن خطاب التّغيير فيه على غيره ، لأنّهما فرضان متغايران لا يسقط أحدهما العصيان بترك الآخر ، وأيًّا قام به وأدّى فرضه فيه فقد سقط عنه إثمه ، وذلك أولى من آجتماع الإثمين وآرتكاب المعصيتين.

وأمّا صحّة فعله منه إذا وقع ، فلأنّ المقصود إزالة عينِ المعصية على طريق حماية الدّين ، فإذا كان ذلك ، فهو آحتسابٌ صحيح ، بخلاف تغيير الكافر ، وأيضاً فلا يوجد معصوم عن جميع المعاصي ، إلاّ من قرّر له ذلك شرْع.

وفي بعض ذلك خلاف.

ويروى عن سعيد بن جبير أنّه قال : إنّ لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر إلاّ من أنكر فيه شيء ، لم يأمر أحد بشيء. وأعجب مالكاً ذلك من قول سعيد.

فصل

وكذلك آختلف هل من شرطه أن يكون مأذونا له في الحسبة من الإمام أو أحد الحكّام ، فرآه بعضهم ، ومنع آحاد الرعيّة من ذلك ، وهذا قولٌ فاسدٌ إذا حمل على إطلاقه وعمومه.

والصّحيح أنّ ذلك ليس بشرطٍ ، وأنّ القيام بالتّغيير على كلّ من شاهد المنكر واجبٌ على الشّروط التي ذكرناها ، بدليل ماتقدّم من عموم آي القرآن وصحيح الآثار ، قال اللّه تبارك وتعالى : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون على المنكر). وقال صلى الله عليه وسلم : «من رأى منكم منكراً فليغيِّره ... الحديث».

إلاّ أنّ تغيير المنكر ينقسم على أقسام ، فمنها :

التّنبيه والوعظ باللّسان.

ومنها المباشرة في إذهاب عين المنكر باليد كَكَسْرِ الملاهي ، وجرارِ الخمرِ ، ونحو ذلك.

ومنها الإرهاب والتّخويف بالضّرب والقتل وما أشبهه ، ممّا لعلّه يؤدّي إلى قتال وجمع أعوان وفتن وآستطالة على السّلطان. فهذا النّوع خاصّة ينبغي أن يتوقف عنه من لو يؤذن له فيه خشية ممّا يؤول إليه ويستدعيه من المناكر. فإن دعت إلى ذلك ضرورة يتعقّبها الفوات ، وتعذر لدن السلطان. كالقوم يكونون في البادية ، والرِّفاق في الطرق ونحو ذلك ، يروم أحدٌ منهم أو فيهم غصباً أو فتكاً أو قتلاً. وما أشبه ذلك ممّا لا ينبغي إقراره وإهماله ، فوجب القيام في تغييره ، ودفعه بما أمكن ودعت الحاجة إليه على كلّ حال.

الفصل الثاني

في كيفية الآحتساب ، وحقيقة القيام في اللّه تعالى غضبا له وآنتصاراً لحدوده ، وحماية وذبّاً عن محارمه

وأحكامه ثلاثة : حسن التّناول في الحسبة. وفهم مراتب التّغيير. ومعرفة وجوه الكشف عن المنكر.

فـصـل

في وجه تناول الحسبة

فأما التّناول في القيام بتغيير المنكر والآحتساب على فاعله ، فينبغي للقائم فيه تحسين المأخذ ، وتقديم الرِّفق والتلطُّف ، فيعلِّم من جهل برفقٍ ولينٍ ، وينبِّه من جار أو غفلٍ بلطفٍ وتبيينٍ ، حتَّى يستوي من زل ، ويهتدي من ضلَّ ، إذا كان الرِّفق في ذلك كلِّه مؤثّراً ، والوقوع من فاعله نادراً ، أو كان من الجهالة بحيث يعذر ، أو من العزَّة والظلم بحيث يجور ، فإنَّ الرِّفق في نحو هؤلاء أدعى للقبول ، وأوقع في درك المأمول ، ولا ينبغي له أن يرجع إلى العنف في شيء مهما أمكن الرِّفق ورجيت منفعته ، ولم يكن داعيًا إلى التّهاون بالدّين ، وآستخفاف من أسرف من الفاسقين ، قال الله تعالى (وَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لعلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْيخْشى) . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كان آمرا بالمعروف ، فَلْيَكُنْ أمْرُهُ ذَلِكَ بِمَعْرُوفٍ». وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنَّ الله تعالى رفيق يحبَ الرِّفق ، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه»

وكذلك فعل صلى الله عليه وسلم إذ جاء أعرابيٌ فقام يبولُ في المسجد ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : مه ، مه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا تزرموه دعوه ، فتركوه حتَّى بال. ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه فقال له : إنَّ المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر ، إنَّما هي لذكر الله والصَّلاة وقراءة القرآن ، ثم أمر رجلاً من القوم فجاء بِدَلْوٍ فَشنَّه عليه».

وحكى حمَّاد بن سلمة : أنَّ صلة بن أشيم مرَّ عليه رجلٌ قد أسبل إزاره، فهمَّ أصحابه أن يأخذوه بشدَّة ، فقال : دعوني أنا أكفيكم ، فقال : ياآبن أخي ، إنَّ لي إليك حاجة ، فقال : وماحاجتك ياعمّ ؟ فقال : أحبُّ أن ترفع من إزارك ، قال : نعم وكرامة ، فرفع إزاره ، فقال لأصحابه : لو أخذتموه بشدَّة لقال : لا ولا كرامة ، ولشتمكم.

وأما إن خيف مع الرِّفق فوات عين المنكر ، أو آتصال الآستطالة على مثله لآستخفاف المقوم عليه وقلّة آلتفاته ومبالاته ، وعلم أنَّ الرِّفق لا ينفع في مثل ذلك ، وأمن أن يثير الإغلاظ منكراً أشَدَّ من الحاضر ، فينبغي المعالجة بما يقاومه ويصلح به ذلك الأمر من الشدَّة والعنف ، ويحسب عظم المنكر ومايليق في مثله ، ويؤدِّي إلى إزالة فعله على ما سنبيِّنه إن شاء اللّه تعالى ، قال اللّه تعالى في صفة القوم يحبّهم ويحبونه ويجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لومة لائم : ذلك فضل اللّه يؤتيه مَنْ يشاء»

فصل في مراتب التّغيير

وأمّا مراتب التّغيير للمنكر ، فمختلفة بحسب الفاعل وفعله ، ويجب فهمها على المحتسب ليضع كلاً منها موضعه ، وهي على خمسة أقسام :

أولهما : التّعريف والبيِّنة ، وذلك فيمن يعلم أنّه جهل ما يحقُ عليه ، وإنّما وقع في ذلك المنكر على غرَّةٍ من نكرةٍ وجهالةٍ من أمره ، كالعامّي يقع في دقائق الرِّبا والبيوع الفاسدة التي قد تخفى ، وكالبدويّى الجافي لا يقيم أركان الصّلاة وشروط العبادات ، فهؤلاء ومن أشبههم ممّن يعذر بالجهالة أو الغفلة يجب تنبيههم على الصواب ، وتعليمهم مواقع السّداد ، مع التلطُّف والاستمالة بالرِّفق ، لينشطوا للقبول بالبِشْرِ ، ويتلقوا ذلك بالفهم ، فتنسرح الفائدَةُ ، وتقل الكلفة ، كما أخبر شيخنا الفقيه القاضي أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه المشتهر بآبن أبي درقة رحمه اللّه قال : كنت مرّة في غرّة الشبّاب ومبادي الطّلب ، فتشاغلت عن إحدى صلاتَيْ العشاء إلى أن شارفت الفوات ، فأتيت عجلا إلى بعض المساجد ، وآعتمدت بعض زواياه ، فصلّيتها مبادراً متجوِّزاً في بعض أركانها ، وإذا بعض الشيوخ يسارقني النّظر ، بحيث لم أشعر به ، فلّما أتممت صلاتي ، وهممت بالآنصراف آستدعاني ، فأتيته ، فسألني قليلاً ، ثمّ قال : يابنّي ، رجلٌ تَسَلَّف دراهم إلى وقتٍ ، فلّما حلّ الأجلُ ، والغريم موسرٌ قادرٌ على الأداء ، تهاون بذلك وآستخفٌ ، ولم يزل يتراخى به إلى أن آستحق ذَمَ التأخير ، ثمّ أتاه بها بعد ذلك ناقصةً ، زُيُوفاً. فجميع بين جِنْسَيْ الإساءة في القضاء ، فهل

يكون لهذا حظٌ في القبول ؟ فما أتمَّ كلامه حتّى فهمت مقصده وتعريضه بما فعلت في صلاتي ، فخجلت ، ثمّ قلت له : فهمت ياعمُ فما زاد على أن قال : قم يابنّي بارك الله فيك ، فَعُدْتُ لإتمام صلاتي ، وأثّر ذلك عندي خير تأثير.

فهذا النّوع من الرّفق والتلطّف في التعليم بحسب فهم صاحب النّازلة وما يليق به ، أوقع في النفوس وأقرب إلى الإجابة من كثير من العنف والشّدّة.

الثاني : الوعظ والتّخويف بالله عز وجلّ ، والتّحذير من آستحقاق وعيده ، والتذكُّر بشدّة عقابه ، وذلك فيمن علم أنّ شأنه الوقوع في المناكر على علمه بها ، كمُدْمِن شرب الخمر ، والمواظب على الغيبة والنّميمة ، ونحو ذلك من أنواع المعاصي التي لا يجهل تحريمها ، فالواجب تعهّد من آتصف بذلك بالوعظ والتّخويف من الله تعالى ، والتلطّف في إيصال ذلك إليه ، وتذكيره بالله سبحانه وتعالى فيما يحقُّ عليه ، فلعلَّ الله سبحانه سيقبله بذلك. ويلهمه رشده ، ويبصّره قصده ، قال الله تعالى : (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكرى تَنْفَعُ المؤمنين) .

الثالث : الزّجر والتّقريع باللّسان ، والشّدّة في القول والإنكار ، وذلك فيمن ظهرت منه مبادىء الوقوع في المنكر وهمَّ به ، ولم ينفع فيه وعظ ولا نهنهةُ رفقٍ ولا لطفٌ ، فيجب حينئذٍ زجره وردعه بالقول الصّارف له والمرهب عليه ، ممّا يليق في مثل ذلك كقوله : ياجاهل ، ياأحمق ، لئن لم نتته لأوقعنَّ بك ، وما أشبه هذا ممّا يصدّق في نوعه ويكون أهلاً لقوله. ولا ينبغي له أن يتعدّى إلى السبِّ الفاحشِ ، والذمِّ الذي لايكون من صفة ذلك الفاسق ، فإنَّ ذلك إذا فعله كان منكراً ، يجب الآحتساب فيه على المحتسب.

الرابع : التّغيير بمباشرة اليد ، وذلك فيمن رآه يحمل خَمْراً ، أو يلبس ثوب حريرٍ ، أو خاتم ذهبٍ ، أو قابضاً على مالٍ مغصوبٍ ينازعه ربّه أو مواقعاً لمعصيّةٍ ما ، فمثل هذا إذا أعوزه صرفه عن ذلك المنكر بالزّجر ونحوه ، فواجب عليه بيده ، فيريق الخمر ، وينزع ثوب الحرير ، وخاتم الذّهَبِ عنه ، ويختطف الشيء المغصوب من يده ، فيرده على مالكه ، وما أشبه

ذلك من أنواع السّعي في صرف ذلك المنكر ، وإذهابه ودفعه عن تلك المعصيّة وآستدامتها. قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : «من رأى مكنكم منكراً فليغيّره بيده» الحديث.

فــقـــه

إذا لم يمكنه إراقة الخمر إلاّ بأن يكسِّر إناءها ، أو يقطع أوْ عيِبَتَها فعل ، ولا ضمان عليه ، وإن أمكنه مع ذلك إبقاء الظّرف ولم يخش تغلُّباً عليه ، ولا فوتاً لشيء ، فآفتات بذلك ، ضمن قيمة الظّرف إن كان لمثله قيمة ، وصحَّ به آنتفاعٌ في غير (الخمر).

الخامس : التّغيير بالضّرب وإيقاع التّنكيل والعقوبة بالفاعل ، وذلك في حقّ من تلبّس ولم يقدر على دفعه عنه إلا بذلك ، فواجب الوثوب عليه حتّى يزايله ، فإن دعت ضرورة إلى قتاله بالسِّلاح وحشد الأعوان ، فذلك أيضاً واجب إذا لم يقلع عن ذلك المنكر إلاّ به. ولكن مثل هذا النّوع قد تقدّم أنّ الأولى رفعه إلى الإمام ، أو إلى أحد الحكام ، ليكون ذلك عن إذنه وبأمره ، لما يتوقّع في نوعه من الفتنة بغير أمر السلطان ، مالم يكن في موضع لا يمكن فيه الآستئذان إلاّ وقد فات فعل ذلك المنكر ، فتجب مبادرته والسعي في صرفه.

تنبــيــه

إذا لم (يعلم) بالمنكر حتّى فات ووقع ، أو علم به فلم يقدر على دفعه بشيء من الوجوه الّتي ذكرناها حتّى آنقضى وآنفصل ، فلا يصح القيام في مثل هذا إلاّ بالأدب وإقامة الحدّ عليه بحسب مايتقاضاه منكره ، وذلك أمرٌ يرجع إلى الولاة والحكّام ، ولا يكون لآحاد الرعيّة النّظر فيه ، لأنّ فيه ، لأنّ بابه الأحكام لا التّغيير ، لآستحالة رفع منكرٍ قد آنقضى.

فإن كان ممّا فيه حدٌّ متقررٌ بالشرع كالزّنى وشرب الخمر والسّرقة والقصاص وما أشبه ذلك ، فعلى السّلطان القيام بذلك ، وإمضاء حكم اللّه تعالى في الفاعل إذا ثبت ذلك عليه.

وإن كان ممّا لا حدَّ فيه متعيّن ، كالغصب وفعل الرّبا ، والخلوة بآمرأة أجنبيّة ،

والتّعريض للكشف على النساء في المآتم وعند أبواب الحمّامات ، والمؤلف بين الرِّجال والنِّساء على الفاحشة ، وبائع الخمر وحاملها ، وصانع آلات اللّهو ، والتّصاوير المحرّمة ، وما أشبه ذلك ، فينبغي معاقبة كلٍّ واحدٍ من هؤلاء بقدر جريرته ، وبحسب الآجتهاد في نازلته.

فصـــل

في معرفـــة وجـــوه الكشـــف عـــن المنـــكر

وأمّا وجه تعرف المنكر والكشف عنه ، فيفتقر إلى نظرٍ وآجتهادٍ بحسب قرينة الحال وظواهر الآستدلال ، فالذي يجب أوّلا ترك التَجَسُّس والتَّعَرُّض للوقوف على ذلك بالمباحثة آبتداءاً من غير سببٍ ظاهرٍ ، كآستراق السَّمع والتّعريف بما عليه أهل دارٍ أو محلّة من منكرٍ يتوصّل إلى علمه بنغمات الملاهي ، وأصوات السُّكارى ، وآنتشار رائحة الخمر ، وما أشبه ذلك ، فهذا في نفسه حرام ومنكر ، يجب تغييره على فاعله أو مريده ، قال اللّه تعالى : (ولا تجَسَّسُوا).

وكذلك لو رأى أحداً معروفاً بالفسق وقد أخفى شيئاً تحت ثوبه ، فلا يجب كشفه ، ليتعرف هل هو خمرٌ ، أو آلة لهو ، أو غير ذلك من أصناف المناكر ، فلعلّه كما ظنّ ، وفي ذلك أذًى للمظنونين ، واللّه تعالى يقول : (إنّ بعض الظّنّ إثم) ، فترك التعرّض لمن يستتر ولم يظهر عليه شيء من دلائل تلك المعصيّة واجبٌ ، وإن ظنّت به.

فأمّا إن ظهر منه ما يدل على المنكر من غير تجسُّسٍ ولا بحثٍ مبتدأ ، كما لو مرّ على دارٍ ، فسمع أصوات السُّكارى وآلات المنكر ، أو غلب عليها رائحة الخمر ، ونحو ذلك من الاطلاع بغير قصد على ثبوت المنكر لا محالة ، فواجب القيام في ذلك ، والهجوم على مثل هؤلاء ، والوقوف على مادلّ عليه الدّليل من تلك المناكر ، حتّى تزال فاحشتها ، ويرفع نكيرها. فإنّ دلالة ذلك قد ظهرت من غير تجسُّسٍ ولا آرتكاب نهي ، لأنّ الّذي حرّم في الأول التجسس لإزالة المنكر المظهور عليه ، لأنّه واجب بعد الظّهور.

فصـــل

وكذلك ينبغي للقضاة أو الحكام البحث والكشف عمّا آشتهر ذكره من المناكر ، وعرف بالجملة ظهوره وآنتشاره ، وأنس النّاس به ، كآتخاذ النّساء في السُّرور والحزن والمآتم يجتمعن لأنواع الملاهي والمناكر في الدّيار والمحلأت ، وبعض الشّوارع والحمّامات ، وما أشبه ذلك ، وكذلك الفحص عمّن شهر بالفساد من بيع الخمر ، وجمع الفسّاق ، ومتّخذي الدّيار المعدّة لذلك ، وكالملهين بما لايحل ، وأهل صنائع المنكر ، ونحوهم ممّن يتّصف بإدمان المعاصي في ذلك ، وآرتكاب المحظور بالإعانة ، ومن هو كالآلة لوقوع المنكر على يديه ، ففي مثل هؤلاء يجب آجتهاد الولاة والفحص في ذلك وآرتكابه عنهم ، وتفقد مظانٌ ذلك منهم ، وآستعمال الحدّ في ردعهم ، وآستيلاء القهر والإخافة عليهم ، وإذا ظهروا من ذلك على مايوجب العقوبة والتّنكيل فعلوه بهم على أعين النّاس ، ففي ذلك إن شاء الله ردع لظهور المنكر ، وتطهيرٌ لمواضع الفساد ، وإظهار لشعائر الإسلام ، فواجب الآن على الحكّام الآبتداء بالكشف والبحث في مثل هؤلاء لأنّ الشّرّ والفساد قد كثر جداً وآنتشر ، وتحقّق صحّة كون ذلك مشتهراً في المواضع ، فلا ينبغي للقاضي التّهاون به وترك القيام فيه حتّى يرفع إليه ، إذ قد لا يرفعه أحد لما أنس النّاس اليوم من كثرته ، وآعتادوا من ملازمته ، حتّى لا يكاد أحدٌ ينكره ، فإهمال البحث عن ذلك مؤدٍّ إلى استمراره وآستدامته مع قلّة القيام به ، وليس آبتداء البحث في مثل هذا محظوراً من جهة أنه يظنّ من قبيل التجْسيس ، بل هذا هو الواجب إن شاء الله تعالى ههنا ، لأنّ البحث والكشف إنّما يكون تجسيساً محظُواراً فيمن آستتر ولم يشتهر عنه ذلك بكثرة الظُهور عليه ، أو آتخاذه ذلك المنكر كسباً ودأباً حتى عاد أمره بذلك مَعْلُوماً بالإغضاء عن مشتهرات المناكر ، وترك البحث عن قطع موادُها إلى وعيد قوله صلى الله عليه وسلم لمّا سألته زينب : أنهلك وفينا الصّالحون ؟ ، فقال صلى الله عليه وسلم : «نعم إذا كثر الخبث».

فصل

من آطلع على منكرٍ قد آنقضى ، وفات بالوقوع ، بحيث لا يمكن تغيير الفائت ، إلاً أنّه يتعلق على فاعله حدٌ مشروع كالزّني وشرب الخمر ، أو عقاب مجتهدٍ من الحكام كمعارضة النّساء وحمل الخمر وما أشبه ذلك (بما آنقضى فعله) آنقطعت مدّته ، (ولم) يعلق به سبب لآستدامة تلك المعصية ، فإن كان فاعلُ ذلك مّمن شأنه التسترُ والمراقبة من مشاهدته على تلك الحال ، فلا حرج (على) من رآه وباشر ذلك منه في ترك الشّهادة بذلك عند السُّلطان ، بل هو أولى لأنّه ستر عليه ، وذلك مندوب إليه ، وحسنٌ مع ذلك أن يعظه ، ويتقدم إليه من القول بحسب مايليق بالفاعل وفعلته ، على نحو ماقدّمناه.

وإن كان الذي فعل ذلك من شأنه المجاهرة والآنهماك وقلّة المبالاة بمن آطّلع عليه ، والإقدام على الآستخفاف والتّهاون بمن شاهده ، فالأولى في مثل هذا إن شاء اللّه إقامة الشّهادة للّه ، ليستولي عليه من حدود اللّه تعالى مايدعوه إلى حفظ شعائره ، ويردعه عن الآستهانة بمحارمه ، وتصرّفه عن الإعلان بفسقه والفرق بينهما أنَّ من تعرّض بالمجاهرة وآستخف بآطلاع المسلمين على فواحشه ، قد حاول خرم قانون الحقّ وآستباح حمى آداب الشّرع وذلك منكرٌ آخر أفحش ممّا وقع فيه ، فيجب تغييره عليه ، لأنَّ آنتهاك معالم الشّرع بإبداء الفواحش وإعلانها كبيرة ، غير مواقعة المعصية نفسها ، فوجب أن ينتهي فيمن فعل إلى حكم قوله صلى الله عليه وسلم : «من أصاب من هذه القاذورة شيئاً ، فليستتر بستر اللّه ، فإنّه من يبدي لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب اللّه». فدلَّ أمره صلى الله عليه وسلم بالآستتار ، على أنَّ المجاهرة بالمعصية معصيةٌ أخرى ، ودلَّ قوله صلى الله عليه وسلم «من يبدي لنا صفحته نُقِمْ عليه كتاب اللّه» ، أنّه لا ينبغي تركه ، بخلاف المستتر بذلك ، فكان القبض عليه هو نفس تغيير منكر المجاهرة وكفُّ آنتشارها ، ودفع آستحقاق ما دلَّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم : «فإذا عمل المنكر جهاراً آستحقوا العقوبة كلهم».

وليس كذلك من ظهر عليه نادراً بغير آختياره ، فإنه لم يقصد إلى إبداء صفحته ،

اللّهم إلاّ أن يبلغ ذلك إلى الحاكم ويثبت عنده ممّا فيه حَدٌّ ، فلا يجوز له تركه بوجهٍ ، ولا يحلّ له العفو عن حدود اللّه بحالٍ من الأحوالِ ، ولو كان الواقع في ذلك أفضل النّاس وأرفعهم ، فزلّ مرّة في عمره ، وبادر بالإقلاع والتّوبة ، فلا يغنيه ذلك بعد بلوغه الحاكم من إقامة حدود اللّه تعالى عليه.

والفرق في ذلك بين الشّاهد والحاكم قوله صلى الله عليه وسلم : «من يبدي لنا صفحة وجهه نقم عليه كتاب اللّه».

وقوله صلى اللّه عليه وسلم لما كلّم في أمر المخزوميّة التي سرقت في غزوة الفتح : «أيْ والذي نفسي بيده ، لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت لقطعت يدها» ، ثمّ أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها ، فهذا تجريح على الحاكم في إسقاط ماظهر عليه من الحدود ، فلا يجوز له فيه عفو أصلاً ، لأنّه حق اللّه تعالى تعيّن عليه تنفيذه ، وليس كذلك غير الحاكم بدليل قوله صلى الله عليه وسلم لهزال : «يا هزال هلاّ سترته بردائك».

وعلى نحو ذلك فعل أبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما. فهذا يدلّ على أنّ الستر على المسلم إذا لم يجاهر بالمعصية ولا آستخفّ بالآطلاع عليه ، أولى من فضيحته إذا فاتت ، مالم يبلغ الحاكم.

فصــــل

وأما إن كان المنكر الذي ظهرت عليه ممّا يستدام فيه من مواقعه الحرام ، ويتكرّر ذلك المنكر مع التّرك ، كالرجُل يطلق آمرأته ثمّ يقيم معها ، أو يعتق عبده ثمّ يستصحب التمسك برقّه ، وماأشبه ذلك ممّا يكون تركه سبباً لبقاء ترك المعصية وآستدامة ثبوت المنكر ، فواجب على من علم ذلك القيام بالشّهادة ، وأداؤها عند من يقبلها من الحكّام ، وسواء آستتر بذلك فاعله ، أو جهر على كلّ حالٍ ، وفي أسرع أوقات الإنكار ، لأنه مستصحب للمنكر بإقامته على آستدامة المعصية والملك ، وتركه أو إهماله إعانة على الآستكثار من المحظور ، فإن أهمل

الشهود ذلك ، ولم يقوموا بتلك الشّهادة مع التمكن والقدرة ، فهي جرحة بهم ، وسقوط لعدالتهم ، لما قد توجّه عليهم فتركوه من فرض القيام بتلك الشّهادة الّتي فيها تغيير ذلك المنكر وحسمه ، وقد شاركوا في تلك المعصية إذا لم يفعلوا.

فصـــل

وينبغي للقاضي إذا خاف أن تتعذّر عليه الإحاطة بحفظ الحوائز والأسواق وشوارع المسلمين ومجتمعاتهم من وقوع المناكر ، وتعرّف ما يعرض في ذلك من النّوازل ، أو خشي أن يتشاغل عن آستيفاء البحث والكشف والنّظر بما يتشابه من أمر الخصوم ونوازل الأحكام ، وأن يختار أمناء عُدُولاً عارفين في ذلك ، يتفقّدون ما جعل إليهم من الحوائز والمواضع ، ويرفعون إليه مايتعذّر عليه النّظر فيه من ذلك ، وإن أفرد لكلّ سوقٍ وحومة أميناً منها ينظر في ذلك فعل ، بحسب آجتهاده ، وحاجة النّاس إلى ذلك ، ووجود القائم به فإنّ ذلك من التّعاون على الخير ، الواجب على كلّ / منهم لقوله تعالى : (وتعاونُوا على البرِّ والتّقوى).

الفصـل الثـالث

فـي الـمنـاكر الـمحتسب فيهـا

قد تقدّم القول في بيان تأكيد الوجوب في القيام بتغيير المناكر ، وحماية معالم الشّرع ، وحفظ شعائر الإسلام على الولاة والحكّام ، فإنّه يجب عليه من تفقّد أحوال النّاس ، وتعرف مايكون من المناكر ، والبحث عل مظانّها ، والسعي في حسم موادها ، وقطع علائقها ، وإظهار الترهيب في ذلك ، والتنكيل في العقوبة ، والقهر المانع من التّهاون بها ، والمجاهرة بأسبابها ، ما لا يجب على غيرهم من آحاد الرعيّة ، ونحن ذاكرون في هذا الفصل إن شاء الله تعالى أنموذجا ممّا آعتيد وقوعه ، وكثرت المجاهرة بنوعيه من المناكر المألوفة في هذا الوقت ، لتكون المبادرة مصروفة إلى إزالتها ، والعناية موقوفة على تفقدها وإحالتها ، وتطهير المواضيع ونفوس العوام من ملازمتها ، وأيضاً في الآطلاع على مانرسمه من معتادها

، تنبيهٌ على مانذكره من أشباهها وأمثالها ، يتقيظ لذلك من علم حدود الشّرع ، وسعى في مصالح الخلق ، إذ الإحاطة بجيمع محدثات المنكر ، أو محاولة آستقصائها محالٌ لا يمكن ، لأنه لا يجري على قياس ، ولا يرجع إلى أصل ، فنذكر الأهم ، والله المستعان ، ومنه النّصر والإحسان.

المناكر المعتادة في معاهد الصلوات ، ومعالم الديانات

فمن ذلك ماآشتهر كونه ، وعرف بضرورة الأحوال وجوده ، من ترك كثير من النّاس وجمهور العوام القيام بصلاة الفرض التي هي الدّين ، وفصل مابين الكفرة والمؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بين الرّجل وبين الشرك ، أو قال : الكفر تركُ الصلاة» ، وهذا أهمُّ ماينبغي الآهتمام به ، ويحق على القضاة وسائر الحكّام وآحاد المسلمين القيام فيه ، وبذل الجدّ والآجتهاد في تفقُّد أحوال من ظاهره التّقصير والإهمال ، وعلى الحكامّ موالاة أخذ النّاس بذلك ، والاشتداد على الكافة فيه قبل كلّ شيء من سائر الأحكام.

ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى عماله : إنّ أهمّ أموركم عندي الصّلاة ، فمن حفظها وحافظ عليها حفظ دينه ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيعُ.

وكذلك يجب عليهم المبالغة في التنكيل والعقوبة لمن تعرف منه الإضاعة والتّفريط وقلة المواظبة ، وحدّ / ذلك من الضّرب الشّديد إلى السّيف ، وذلك بسبب التّرك القليل والكبير ، والإباية من فعلها ، فهذا يترك حتّى يخرج وقت صلاة واحدة ، ثمّ يقتل في قول كثير من أهل العلم.

وإذا علم أحد من أهل الجفاء (والبداوة) ومن يتوهّم فيه ترك الصّلاة والجهل بإقامتها ، فينبغي للحاكم مباحثته ، وينزل إلى سؤاله في ذلك بالرّفق والهون ، حتى يتعرّف هل يحسن القيام بها (وما) لا بدّ من وظائفها من حيث يفهم العاصي عنه ذلك ، لا من حيث سياق الفقهاء وتقاسيمهم ، فإن آطّلع من مساءلته على معرفته بذلك ، كما لو أخبره المسؤول بعدد

ركعات كلِّ صلاةٍ ، وما تشتمل عليه الركعة من قراءة وفعلٍ ، وما يراد بتكبيرة الإحرام والتَّسليم وما كان مثل هذا فليخلُ عنه ، فإنَّ ذلك دليل على إقامة الصلاة ، وإن تحقَّق عند آختباره أنه غير عالمٍ بها ، فإن كان لجهل يعذر في مثله ، كما لو كان حديث عهد بالإسلام أو كـان الذي جهل مِمَّا يخفى مثله جفاة العوامِّ ، وما أشبه ذلك من الأعذار التي يكون لها وجهٌ ، ولا يفهم منه تهاونه ، فينبغي أن يعلِّمه ويأمر بتعليمه حتَّى يحسن ذلك ، وإن كان جهله لقلَّة صلاته وكثرة آستهزائه ، فليحسن أدبه ، ويجتهد في عقوبته ، ثمَّ ينظر في تعليمه أيضاً ، فربَّما وجد اليوم أشياخ ذوُو كبرة ولعلَّهم ما صلُّوا قطُّ ، فما أشق أن يكون اليوم عقوبة هؤلاء إن لم يكن قتل.

وكذلك يجب تعليم من يراه يصلِّي ، ولا يحسن أراءها ، ولا يعرف إقامة أركانها في الركوع والسجود ونحو ذلك ، فيتعيَّن على كلِّ مسلمٍ علم هذا أو باشره ، القيام به ما أمكنه ، فإن هو أقرَّه بعد علمه فهو آثم ، وأشد ما يتأكَّد ذلك على الحكَّام كما قدَّمناه.

ومن ذلك مايخصّ الرَّجل من أهل داره وحشمه وأصاغر بنيه من لدن سبع سنين فصاعداً ، من أخذهم بإقامة الصَّلاة ، والمحافظة على أدائها في أوقاتها. وكما يجب من معرفة مفروضاتها ، وتعليمهم مالا تستقلُّ إلاَّ به ، كأحكام الوضوء والغسل ، ومايوجبهما وينقضهما ، ودخول الوقت ، وإثم الفوات ، وما يتعلَّق به صحَّة الصَّلاة وفسادها ، كلّ ذلك فرضٌ على ذي العيال والأهل ، يجب فيه تعهّده لهم ويشتدّ إثمه ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كُلُكُمْ راعٍ وكُلُّكم مسؤول عن رعيته» ، الحديث.

فينبغي الآن للقضاة والحكَّام تنبيه النَّاس على ذلك ، ووعظهم فيه ، وتذكيرهم ، فإنَّه قد علم وتحقَّق إغفال الجمهور بل الكافَّة تفقد من أحوال أهليهم وعامَّة عيالهم ، وصار أعلى مرتبة أهل الدِّين والفضل مراعاة أنفسهم وحفظ ذواتهم ، فضاع الأهل والعيال ، فقلَّما توجد اليوم آمرأة أو عبدٌ أو وليدةٌ فوق السبع تصلِّي إلاَّ نادراً ، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

ومن ذلك إهمال كثير من النّاس وأهل الأسواق والحرف والأجراء شهود صلاة الجمعة ، وهي من فروض الأعيان على كلّ رجلٍ مكلّف وغير مريض ولا مسافر ، لا يسع أحد من أهلها التخلّف عنها لغير عذر ، وقد تمالى كثير من أهل الصنّائع اليوم ، والأجراء وغيرهم ، على تركها وآطراح حضورها ، وساعدهم على ذلك كثير من الخاصّة والأعيان الذين يستعملونهم آستكثارا بعملهم في الوقت المستحقّ لحضور الصّلاة ، وربّما كان في هذا النّوع من لا يصلّي ألا ، جمعةً ولا غيرها ، مادام على شغله ، فيجب على الولاة البحث عن هؤلاء ، والتّنقيب عمّن عرف عنه ذلك ، والآشتداد على فاعله ، والمساعدة عليه ، وآضطرار الكافّة إلى شهود الجمعة بما يؤدي إليه الاجتهاد ، ويقتضيه النّظر والحال إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك إسناد الإمامة في الصّلاة في كثير من المساجد إلى العوام والجهّال ، وقد لا يحسنون شروط الإمامة ، ولا يعرفون أحكام الصّلاة فيما تصحّ به وتبطل ، وربّما وجد فيهم من لا يقيم القراءة لكثرة اللحن وتحريف بعض الحروف ، فهولاء ينبغي منعهم من ذلك حتى يتعلّموا ، بل يجب منع اللحّان من القراءة ، وإن كان وحده في صلاة أو غيرها حتّى يتعلّم إن كان يمكن ذلك فيه ، لأنّ تغيير القرآن باللّحن ونحوه منكرٌ ، لا يحلُ إقراؤه. وأمّا إن كان لا يقدر على التّعلم لآعوجاج لسانه بعجْمَةٍ أو نحوها ممّا لاتكون في وسعه معه إقامةٌ أصلاً ، فليجتهد في تجويد أمّ القرآن وسورةٍ إن أمكنه بحسب وسعه ، ويقتصر على ما أحكم من ذلك في صلاته لنفسه إن شاء الله تعالى.

ومن كان لايحسن القراءة ، ولا يحفظ شيئاً البتّة ، كمبتدىء الإسلام ونحوه ، فليصلّ مأموماً إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك قراءة القرآن بالألحان المطربة ، والتّرجيع المشبّه بالغناء ، الملهي لسماعه عن الخشوع والآعتبار ، وتجويد (...) عند مواعظ القرآن ، فهذا منكرٌ يجب المنع منه ، وتنزيه القرآن عنه ، بل الألحان نفسها ممّا ينكر في الشعر ، وينبغي التنزّه عن الحضور لها وسماعها ، فكيف بآيات الله تعالى ومقدّس كلامه.

فأمَّا إيراده على التَّجويد والصَّوت الحسن فمرغَّب فيه ، لأنه من أحكام التّلاوة ، وفيه من التَّشويق إلى الخير ، والتَّذكير بالله تعالى أجمل موقع للقلوب الخالصة للذكر. فقد قال عمر بن الخطاب لأبي موسى رضي الله عنهما : ذكرنا لحسن صوته بالقرآن ، وتجويده لقراءته.

ومن ذلك حضور بعض النّساء المتوقَّى أمرهنَّ كالشَّابات الممتلئات لحما ، اللّتي تتوقَّع الفتنة مساجد الجماعات ، وفي ذلك ضررٌ كثيرٌ ، وفساد كبيرٌ ، وإذا أدَّى حضورهنَّ إلى هذا ، فهو منكر يجب قطعه ، ومنعهنَّ المسجد لأجله. فقد منعتهنَّ عائشة رضي الله عنها من دون هذا فقيل لها : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنعهنَّ من الجمعات ، فقالت : لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماأحدث النِّساء بعده لمنعهنَّ ، فأين زمانها رضي الله عنها حين قالت ذلك من هذا الزّمان ، وآنتشار البدع والحدثان ، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

فصـــل

ومن ذلك ماقد كثر الآن وآنتشر حتَّى عمت به البلوى ، وتلاعب قوم فيه لفاسد الفتوى ، كالحلف بالطّلاق ، والأيمان اللازمة ، وكتطليق الرَّجل آمرأته ثلاثاً في كلمة واحدةٍ مؤثراً لذلك ، وكلّه منكر وتحريف لسنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتغيير لشعائر الدّين يجب منعه في الآبتداء ، ويلزم جميعه إذا وقع على كلِّ حالٍ.

فأمَّا الحلف بالطّلاق والأيمان اللاّزمة أو عتق ، فآرتكاب لنهيه صلى الله عليه وسلم إذ قال : «لا تَحْلِفُوا بالطَّلاقِ ولا بالعتاق ، فإنَّها من أيمان الفسَّاق».

وقال صلى الله عليه وسلم «من كان حَالِفاً فَلْيَحْلِفْ باللهَ أو لِيَصْمت ». وفيه مع ذلك تعريض للوقوع في منكر آخر ، وهو أنَّ الحالف بالطّلاق إذا حنث فقد لزمه الطّلاق. وقال الله تعالى : (ياأيها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود). وهذا عقد على نفسه . طلاقاً بشرط ، فوجب مع وجوده ، فإذا وجب فإنّما يقع عليه حين الحنث ، وربّما كان في حال حيض المرأة ، أو دم نفاسها ، أو في طهر قد مسَّ فيه. وهذه الأحوال لا يجوز آبتداء الطّلاق فيها ، ولا تعتمد

إيقاعه ، فكذلك لا ينبغي له التعرّض للوقوع فيما يحرم عليه ، وهذا كلّه إذا كان الحالف يجتنب الحنثَ ويتوقّاه ، ويعلم محافظته على حدود اللّه تعالى ، كما قال مطرف وآبن الماجشون : من آعتاد الحلف بالطّلاق فذلك جرحةٌ فيه ، وإن لم يعلم له حنث فيه والعلّة في ذلك ما قدّمناه من آرتكاب النّهي ، والتعرض لما لايجوز.

فأمّا من يتّهم بإخفاء الحنث في ذلك ، والبقاء على حكم الزّنى ، فهو في حقّه أشدُّ وأدهى ، فينبغي ويجب على الحاكم الآشتداد في ذلك ، والتّجريح على من عرف بالحلف به ، والعقوبة له بما يستحقه على حسب وقوعه منه في إكثاره وإقلاعه ، ومايعرف من توقّيه وآستسهاله ، فقد روى زياد عن مالك : أنّه يؤدّب من حلف بالطّلاق.

وأمّا تطليق الرّجل آمرأته ثلاثاً في كلمة واحدةٍ ، فمنكر يجب توقّي فعله آبتداءاً ، ويلزم إذا وقع. قال اللّه تعالى : (يَا أيُّها النبيُّ إذا طلّقتم النِّساء فطلّقوهنَّ لعدَّتهنَّ) إلى قوله: (وتلك حدود اللّه ومن يتعدّى حدود اللّه فقد ظلم نفسه ، لا تدري لعلَّ اللّهَ يحدث بعد ذلك أمراً قيل : يعني الرَّجعة ، فأمر تعالى بالطّلاق المشروع وهو واحدة ، فالثّلاث في كلمة تعدٍ لحدوده تعالى ، وظلم من فاعله ، وهو مع ذلك لازم بما دلَّ عليه في الآية قوله تعالى : (لاتدري لعلَّ اللّه يحدثُ بعد ذلك أمراً) . فكان المتلقى من عموم ذلك أنَّ من تعدّى ما حدَّ اللّه له من طلاقِ السنّة فطلّق ثلاثاً ، فقد سدَّ على نفسه باب الآرتجاع ، إن حدثت له نيّة في ذلك بما لزمه من طلاق الثّلاثِ ، لأنه لو لم يلزم لما حذّر فوات الرَّجعة بقوله تعالى : (لا تدري لعلَّ اللّه يحدثُ بعد ذلك أمراً) . والتّطويل في الآستدلال على ذلك موجود في كتب الفقهاء وعليه جميعهم ، وكافّة أهل العلم ، لا يخالف في ذلك أحد ، إلاَّ من لا يتعدُّ بخلافه.

وكثيراً ما يقع النّاس اليوم في التّساهل في ذلك ، ويطلب الفتوى أن تحلَّ في واحدة ، وهذا من أمرهم أنكرُ وأشد بلاءاً من الأوّل ، فينبغي للحاكم حسم ذلك كلّه بمنع النّاس آبتداءاً من آستعمال لفظ الثّلاثِ ، والآشتداد عليهم في قصده ، وإن أدّى الآجتهاد إلى أدب فاعله ، بحسب مايليق بمثله فحسنٌ.

فقد روى عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أنّه أخبر عن رجل طلّق آمرأته ثلاثاً جميعاً ، فقام غضبان ، فقال : « أيلعب بكتاب / اللّه وأنا بين أظهركم؟ » .

وكان عليٌّ بن أبي طالب وعمر آبن الخطاب رضي اللّه عنهما يعاقبان الذي يطلّق ثلاثاً في كلمةٍ. وهو قول مالك.

والذي ينبغي من عقوبة من يطلب الفتوى في ذلك ، أو أفتى بحله في واحدةٍ ، أشدُّ وأبلغ في التّنكيل والرّدعِ الزّاجر لأمثاله ، لأنّ هؤلاء أهل الوسوسة والتشغيب على الضعفاء ، فواجب تفقد مثل هذا ، وإزالته من نفوس العوامّ ، فهذا اليوم فاشٍ ، ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم.

المنكرات المعتادة في الشّوارع والمحلات

من ذلك آسترسال السّكارى في مخالطة النّاس ، والآستطالة بآثار السكر من العبث والهجر ، ومأشبه ذلك من منكرِ أحوالهم ، وكذلك غيرهم من أصناف الفسّاق والمجاهرين بأنواع المناكر ، كآسترسال النّساء حالتي السّرور والحزن في الإعلان بأنواع الملاهي البادية ، و إظهارها على الأصوات العالية في أسراب يتهادين على تلك الحال من موضع إلى آخر ويتعارفنه بينهنّ بالزّحف ، وربّما اجتمع إليهن الرجال للنظر والتعرض ونحو ذلك ، فواجب مهما عثر على شيء من ذلك القبض على فاعله ، وإبلاغ العقوبة فيه من مثله ، إلاّ أنّه ينبغي من جميل الأخذ فيما آعتاد النّساء من ذلك ، أن يتقدّم الحاكم إلى النّاس في مثله ، بآلإعلان بالنّداء وإشهار العقوبة ، ليتسامع النّساء بذلك فيجتنبنه ، ويَكُنّ على حذرٍ من الوقوع بهنّ ، فيزعهنّ وازع الخوف ، فمثل هذا واجب قبل القبض عليهنّ ، لأنّ النّاس قد آعتادوا ترك القيام فيه والإنكار ، فإغفالهم داعٍ إلى أخذ النّساء على حال غرّةٍ ، وقد يكون في ترك ذلك بعض الفتنة ، وضدّه كثير من الأماثل والمستترات اللاتي لو تحقّقن ذلك ما أقدمن عليه ، أو لمنعهنّ منه أولياؤهنّ ، ولما تساهل فيه من عادته التّساهل بحرمات اللّه ما لم يزعه قهر السّلطان.

فينبغي تفقّد مثل هذه الأنواع في الشوارع والمحلاّت وحيث يبدو أثر المجاهرة به ، تفقداً كافئاً لأهله ، ورادعاً عن مثله ، يعظّم الله به الأجر ، ويدرأ به علائق الشرّ.

ومن ذلك ما اشتهر عن قوم بأعيانهم من منكرٍ عرفوا به ونسبوا إليه ، كمتّخذي الملاهي وأنواع الغناء المحرّم والآلات والزّمر صناعةً وحرفةً يكتسبون بها ، ويستأجرون عليها عند السّرور والحزن مثل الزفّانين والمغنين وسائر الملهين بما لا يحلُّ لهم ، فهم أعوان الشّياطين في تحريك النُّفوس لكلّ شرٍّ ، وتوثيب أهل / المعاصي على كلّ نكرٍ ، فينبغي للقاضي آبتداء البحث والكشف عمّن شهر بذلك وآرتسم به ، والقبض عمّن وجد منهم ، وإبلاغ الزّجر فيهم ، والوعيد إلى ما يرْجى به توبه من يغلب على الظنّ إنابته ، ويعاقب في كفّ هذا الصّنف من الرِّجال والنِّساء وتفقد حالهم أبداً ، فهم منشأ الفتنةِ ، ومثار أسباب الفسادِ.

ومن ذلك تعرّض الفسّاق وأهل الشرّ والدّعارة لحرم المسلمين وأعراضهم ، بآتخاذهم المجالس على قوارع الطُّرق لأذى المارِّين من المسلمين ، إمّا بإطلاق القول فيهم من الغيبة ونشر العيوب ، والهجن في المنطق. وإمّا بالتعرّض للنّساء ، والكشف عن عوراتهنّ ، والآطلاع على محارمهنّ بالجلوس في مظانّ ذلك من أبواب الحمّامات ، ومواضع تكررهنّ ، طلباً لمخاتَلةِ الكشف عليهنّ ، وآستمالتهنّ بالتّعريض ، والمخالسة بالكلام ، وما أشبه ذلك من صنوف المنكر ، فواجب فيمن عرف بمثل هذا المبالغة في نهيه وزجره ، والعنف عليه ، والعقوبة إن كان لذلك وجه ، ويمنع هؤلاء الصِّنف ومن يتّهم بمثله من آتخاذ المجالس في مثل طرق المسلمين ، ويستظهر عليهم بالوعيد الصّادقِ والقهر المانعِ.

ومن ذلك الدّيار المعروفة بالفساد وإلف المعاصي ، كبيع الخمر ، والجمع بين الفسّاق ونحو ذلك ، فما عرف منها بهذا وجب البحث عن سكّانه ، ومن يتّهم بذلك من أهلها ، وآجتهد في تنكيله وعقوبته بما ثبت عليه من ذلك ، ثمّ إن أمنت عودته وإلاّ كلف الانتقال والجلاء عن موضعه الذي عرف فيه بالشرّ ، وآعتيد غشيانه لذلك ، وجلب إليها أهل الصّلاح والخيرة ، ففي مثل هذا حسمٌ لمادةِ هذا المنكر إن شاء الله تعالى.

ومن ذلك تبرّج النّساء المتصرّفات بأنواع الزّينة البادية ، وأساب التجمّل الظّاهرة على حال آختيال في المشي ، وآستعمال منتشر الطّيب ، وآستظهار مايستدعى الفتنة ، فمثل هؤلاء ينبغي منعهنّ من التّصرف على هذه الحالة.

وكذلك يجب منع النّساء فيما بينهنّ (في) المآتم والحمّامات ونحوها من الآسترسال في إظهار ما يخفى من محاسنهنّ ومصون أجسامهنّ ، ومايدعو إلى آطّلاع بعضهنّ على ما لا يحلّ لها من الأخرى ، فإنّ المرأة أكثر محاسنها وخفايا جسمها ، يحكم له بحكم العورة ، فيجب ستره عن النّساء ، كما يجب عن الرّجال.

ومن ذلك آجتماعهنّ في الجبّانات والمواضع التي تتّخذنها مجالس للتنزّه / على من يمرّ عليهنّ من شبّان الرّجال ، وقد يعارضهنّ بتلك الحالة كثير من الفسّاق ، وربّما جلبهم على المرور عليهنّ ما آعتيد من آجتماعنّ ، وعرف من أغراضهنّ ، وقد يعمدنّ إلى نصب الأخبية على الجبّانات تباهياً وزعماً أن تستتر من تطيل الجلوس منهنّ ، وهذا أدعى إلى الشهرةّ والشرّ ، وأشدّ لصرف أعين الفسّاق وقلوبهم إلى من فيها ، مع ما يتوقع من جرأة من لايتّقى الله تعالى على موافقة المعاصي بها ، لآستتار الكائن بها عن كثير من الآطلاع عليه ، فهذا كلّه من المناكر التي يجب الآشتداد عليها ، والمنع منها بحول الله تعالى.

وكذلك آجتماعهنّ في بعض الأسواق التي يضطرون إليها ، كسوق الغزل ونحوه ، وربّما خالطهنّ الرّجال وسفلة السماسرة ، وحادثوهنّ وتمازحوا بما لا يحلّ ، وذلك منكرٌ ظاهرٌ ، ومدعاةٌ إلى الشرّ ، وآرتكاب محارم الله تعالى ، فينبغي لآظطرارهنّ إلى ذلك أن يقدّم هناك أمناء ويختار ثقات السماسرة ومسنّوهم ، ويمنع من كان متّهماً من التصرف لهنّ ، ويعيّن للنّساء موضع مستترٌ يخصّهنّ للجلوس في قضاء ما يحتجن إليه من ذلك ، بحيث لا يخالطهنّ فيه من يجتاز أو ينصرف من الرّجال.

ومن ذلك آتخاذ بعض النّاس مايؤول إلى أذى المسلمين ، والتّضييق في الشّوارع عليهم

كتكادس المرحاضات المستخرجة من سُروب المحلّة وقنوات تلك الحومة ، وتركها كذلك في المواضع الضيِّقة بحيث يتنجّس المارُّ ، وقد يقع فيها الصّبيان ، والماشي ليلاً ، وربّما كان المطر ومال بعض ذلك مع الماء وخالط كثيراً من طرقات المسلمين ، فعظمت المضرّة ، وآشتدّت المصيبة.

وكذلك مايكون في بعض السّطوح من قطر ميازيب تجري بغسالة ونجاسةٍ في موضعٍ ضيِّقٍ ، لا يكاد المارُّ يسلم من شرارِهَا.

وكذلك آتخاذ مرابط الدوابّ على الطرق ، وبحيث ينال المارِّين من (ضيق) الموضع بها وتعذّر الجواز ، ورَوع كثير من النّاس مضرّة ظاهرة ، وربّما عاد تنجيسهم وتلويث ما يكون من أرواثِهَا وأبوالِهاَ.

وكذلك آتخاذ الكلاب العَادية في الحوماتِ ، وعلى أبواب الدِّيار ، فقد تعْدُو على كثيرٍ ، ويراع لها الجمّ الغفير.

وكذلك مخالطة النّاس وآزدحامهم ، إذ لا يتّسع ذلك ، كالأسواق وضيق الأزقّة ، فقد يفضي إلى أذَى المسلمين في تخريق أثوابهم وتلويثها ، وتكليفهم المشقّة في التحرّز منها.

فجميع ماذكرناه من هذه الأصناف / التي شأنها الإباحة في الآبتداء ، لولا ما يعترضها من أذيّةِ المسلمين التي نبّهنا عليها ، فواجب أن يمنع على الصِّفة التي تؤذي ، لأنّه حينئذ منكر يجب تغييره ، والتقدم إلى النّاس في آجتنابه.

وأمّا إن أمن الأذى أو خفّ ، كما لو جمعت الرّحاضة بقدر ما ينقل من غير تراخ يكثر ، أو أوقف رجل دابتّه على الطّريق بقدر ما يركب أو ينزل ، أو يشدّ عليها حملا أو يضعه ، أو لو مرّ رجلٌ يباح له آتخاذ الكلاب بكلب موثوق في يده ، أو ضمّ صاحب الشّوك أو الحطب أطرافه وشدّها ، بحيث لا تؤذي في الغالب ، أو مرَّ بها في المواضع الواسعة التي يمكن

التحرّز منها ، ولا يتعذّر العدول عنها ، فكلّ ذلك على هذه الصّفة مباحٌ ، لأنّ للنّاس ضرورة إلى مثل ذلك ، فلا يصحُ منعه على الإطلاق ، إلاّ بشرط وجود الأذى. أو غلبة وقوعه لعرف العادة.

ومن ذلك ما يستخفه بعض النّاس من أذى البهائم ، والعنف على الدوابّ ، كإثقالها بالأحمال التي لا يستقلّ بها ، وإرهاقها في سرعة المشي بالضرب والزّجر الشّديد ، حتى يستخرج منها فوق وسعها ، مثلما آعتيد فعله الآن من حمّالي الزّرع ، ونقالّي الحجارة والجصّ ، والخدمة من الزمّالين وغيرهم ، فهذا من المناكر التي يجب الآحتساب فيها ، ومنعهم منها ، وصرفهم على كلّ حالٍ عنها ، وسواء كانت الدابّة لمُثقِلهَا أو لغيره ، ولا حجّة له في كونها ملكه ، فإنّ الحيوان محترم ، وحفظ النُّفوس واجب ، حتّى لو آتفق أن يرى أحد وقد حمّل نفسه فوق ما يطيق من ذلك ، وعنّف عنها عنفاً يظهر منه سوء نظره لها ، لمنع من ذلك ، وقهر على إزالته ، وجُوهِدَ عليه إن أباه.

«تنبيه الحكام» لابن المناصف دار التركي للنشر - تونس 1988 : ص 314 - 341

خبر ابتداء بناء الجامع الكبير الجديد باشبيلية ومساق الخبر على [330] اختلاف السنين.

وفي هذه السنة من شهر رمضان ابتدأ أمير المؤمنين باختطاط موضع هذا الجامع العتيق الانيق ، فهدمت الديار في داخل القصبة له ، وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل إشبيلية ، وجميع عرفاء أهل الاندلس ، ومعهم عرفاء البنائين من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة ، فاجتمع باشبيلية منهم ومن أصناف النجارين والنشارين الفعلة لأصناف البناء أعداد ، من كل صنف صناعٌ مهرة في كل فن من الأعمال أفراد وكان الذي دعا أمير المؤمنين لبنائه ما خصصه الله به من الدين والورع ، وأن يخص اشبيلية بالتمصير والتسكين بأشرف مرأى ومسمع ، ولإن كان قد قطنها في مصيف

ومربع ، وكان الموحدون الفاتحون لها قد اتخذوا في قصبتهم بداخل اشبيلية جامعاً صغيراً لصلاتهم في أيامهم وجمعهم ، فضاق عند استيطانهم عنهم لتناسلهم وترادف وفود الموحدين إليهم بالعساكر ، وكان أيضاً جامع مدينة اشبيلية المعروفة بجامع العَدَبَّس قد ضاق باهلها ، فيصلون في رحابه وافنيته ، وفي جوانب الاسواق المتصلة به فيبعد عنهم التكبير بالفريضة ، فربما فسدت صلاتهم ، ولم تمتد قط فيما سلف من الأمنة همم ملوكهم وأمرائهم في السيِّرات إلى توسعته والزِّيادة فيه ، للذي كانوا عليه عاكفين من تهالكهم في الإمارة وهويهم في ضلال الفتنة بينهم ، وإهمال المسلمين بغير حماية ، لعمارة في دار قراره إلى أن جمع الله تعالى الإسلام بهذا الأمر العزيز بالتَّوحيد بعد فترة ، وبهذا الخليفة الامام أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم الذي سمت به الخلافة ، وأنافت به المعالم والديانة أعظم إنافة ووصل لنصر جزيرة الأندلس بعساكره المنصورة ، فحاز الذخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلاطاته تحت الأرض أطول مما فوق الأرض ، وجمع الفعلة بكثرة الرجال ، والخدام وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة ، بما لم يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته وصقل صفحته بالاءتقان لشييده وتوثيقته ، وأنفذ أمره العالي ببنائه في شهر رمضان من سنة سبع وستين وخمس مائة المؤرخة ، لم يرفع البناء عنه قط في فصل من فصول السّنين مدة إقامته بإشبيلية إلى أن كمل بالتسقيف ، وجاء في أبهى المنظر الشريف ، وأعجز في بنائه من تقدمه ، وبقي في ميزانه ذخيرةً رحمة له [332] مقدمّة ، قارب به جامع قرطبة في السعَة ، وليس في الأندلس جامع على قدِّره وسعته ، وعدد بلاطاته ... وكان الناظر على البنائين والعرفاء العريف أحمد بن باسه ، وصاحب تقييد الإنفاق أبو داود يلول بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ومشرفه على الأعمال ، ومن الحفاز على هذا البناء من أهل إشبيلية أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر اليناقي ، ثم شركهم في النظر عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد العنسي الغرناطي فظهرت على كتابه وأصحابه خيانة ، فعزل وعزلوا واستبدلوا ، ورجع النظر إلى أبي داود

واستبد به مع خاصته تحت أمره ابراهيم الدباغ مع مشاركة ابن زهر المذكور ، وكانت سُرب المدينة تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع فنكّبت عنه ، وأخرجت بطريقها منه وصرفت إلى جهة الجوف منه على أوسع مجرى وأوثق مَسْرَى على سَرَب واسع وعمل بأعداد من الرجال على أوثق البناء تحت الأرض جارٍ إلى الوادي تحت الأرض قاطع.

واهتبل العرفاء واستعرفوا ، وتحدقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الاهتبال ، في العمل بصنعة الجبس والاقباء بالبناء وتجارة الخشب بغاية الاحتفال ، وأقبوا يسار المحراب ساباطاً في الحائط يمشي في سعةٍ فيه الماشي معداً لخروج الخليفة عَلَيْه من القصر إلى هذا الجامع لشهود صلاة الجمعة ينذر منه المنذر على بابه الخاص الرفيع ، وعلى يمين المحراب إقباء في حائط الجامع معقود بالبناء لكون المنبر فيه عند اخراجه للخطبة وادخاله فيه ، وصنع هذا المنبر من أغرب ماقدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ، اتخذ من أكرم الخشب مفصّلاً منقوشاً مرقشاً محكماً بأنواع الصنعة والحكمة في ذلك ، من غريب العمل ، وعجيب الشكل والمثل ، مرصعاً بالصندل ، مجزعاً بالعاج والأبنوس ، يتلألأ كالجمر بالشعل ، وبصفائح من الذهب والفضة ، وأشكال في عمله من الذهب الاءبريز يتألق نوراً ، ويحسبها الناظر لها في الليل البهيم بدوراً ، ثم أردفت له بالعمل المقصورة من أحسن الخشب مختصرة من قضبه ، وثيقة لحجبه ، وكان الخليفة يتطلع بناءه في أكثر الأيام بنفسه ، فيصل لرؤيته ومعه أخوه السيد الأعلى أبو حفص ، مع أعلام إخوته وأشياخ مملكته ، ووزيره ووجوه رجاله من طلبته وأهل دولته ، ويشير لهم بالجد في البناء ، والوثاقة فيه والاستعلاء ، والعكوف بعمل الأمانة والديانة وترك الأهواء ، ويعطيهم البركات ، ويعدهم على ذلك العمل بالصّلات ، حتى انكملت جهاته الأربع بالبناء ، وعقد الأقواس منه بالاقباء ، وكمل التسقيف ، ثم حان انصراف أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى حضرته مراكش في الرابع عشر[334] من شهر شعبان المبارك من عام أحد وسبعين وخمس مائة ، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصباغ إلى مواطنهم ، فكانت المدة في بنائه ثلاثة أعوام وأحد عَشر شهراً قمرية وتحرك أمير المؤمنين إلى حركته المذكورة.

قال المؤلف : وفي المثل «الحديث شجون» ولما ذكرت بناء هذا الجامع الكبير اندرج مع ذكره جامع إشبيلية المعروف بجامع عدبّس عند أهل إشبيلية فدامت الخطبة فيه على ما كانت في مدة إقامة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بالاندلس إلى ماأذكره.

ذكر الامر بالخطبة يوم الجمعة في الجامع الجديد الكبير بالقصبة وانتقال الخطبة من الجامع المنسوب لعمر بن عدبس باشبيلية.

قال المؤلف ولما انصرف السيد الوالي على اشبيلية : أبو اسحاق ابراهيم بن أمير المؤمنين أبي يعقوب بن الخليفة أمير المؤمنين رضي الله عنهم من زيارة أبيه من حضرة مراكش الى اشبيلية يوم السبت الثامن عشر من ذي الحجة ، بموافقة الرابع والعشرين من أبريل العجمي ، من عام سبعة وسبعين وخمس مائة أنفذ أمر أبيه الذي أَمَرَ به من الزام الناس حضوره صلاة الجمعة والخطبة في الجامع المذكور ، فكانت أول خطبة خطب فيها على منبره الرفيع يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذي الحجة ، والموفي ثلاثين من ابريل العجمي المؤرخ ، من عام سبعة وسبعين وخمس مائة ، وكان أول خطيب فيه السيد المذكور وأقامَ الصلاة للناس فيه أبا القاسم عبد الرحمن بن عفير اللبلي أحد خدام السيد الناسخين له كتبه ، وارتفعت في هذا اليوم الخطبة والجمعة من جامع عمر بن عدبّس المذكور باشبيلية وأزيل منبره من موضعه ونُحِّي إلى جانب الحائط الغربي من الجامع المذكور. وكانت المقصورة أزيلت أيضاً من موضعها عنه قبل ذلك ، وفرقت في بلاطات السقائف الجوفية والشرقية ، وذلك يوم الجمعة التاسع عشر من شعبان سنة سبعين وخمسمائة ، وكان القاضي عمر بن عَدبّس قد ابتناه عام أربعة عشر ومئتين للهجرة. والحديث شجون يوجب ادخال ماتقدم مع ما تأخر : ووجد الناس في السارية في البلاط الثاني من جهة الشرق المقابل لمحراب الجامع : جامع ابن عدبُس مكتوباً في السارية المذكورة بخط قديم : يرحم الله الامام عبد الرحمن بن الحكم الامير العدل المهتدي الامر ببناء

هذا المسجد على يدي عمر بن عدبس [336] قاضي اشبيلية سنة أربع عشر ومائتين. وكتب عبد البر بن هرون. ووصل الأمر أمير المؤمنين أبي يوسف بقراءة سورة اذا جاءك المنافقون في الركعة الثانية من صلاة الجمعة. فصلى بها الخطيب يوم الجمعة الحادي عشر من ربيع الاول عام احد وتسعين مائة.

ذكر بنـاء صومعة هذا الجـامع

قال المؤلف : وهذه الصومعة الفايت وصفها للناطقين ، السابق حديثها إلى المخبرين لا صومعة تعدلها في جميع مساجد الأندلس : سمو شخص ورسو أصل ، ووثاقة عمل ، وبنيان بالآجر ، وغرابة صنعة ، وبدائع ظاهرة ، قد ارتفعت في الجو ، وعلت في السماء ، تظهر للعين على مرحلة من اشبيلية مع كواكب الجوزاء أمر ببنائها أمير المؤمنين أبو يعقوب بن أمير المؤمنين رضي الله عنه عندَ وصوله الى إشبيلية في غزوته إلى شنترين في الثالث عشر من صفر من عام ثمانين وخمسمائة. ونزل خارج إشبيلية في البحيرة بمجشر ميلين. فعندما تحرك من اشبيلية إلى الغزوة المذكورة أمر عاملة أبا داود يلول بن جلداسن أن يشتغل مدة مغيبه في الغزوة ببناء سور حصين على قصبة إشبيلية يمر من مبدأ بنائه [337] أمام رحبة ابن خلدون داخل اشبيلية وببناء صومعة للجامع تكون في اتصال السور مع الجامع المذكور ، وبناء دار صنعة للقطائع تتصل من سور القصبة الذي على الوادي بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل فابتدأ أبو داود بهدم الديار وحفر أساس السور أمام الرحبة المذكورة فلم ترم الحال الا نحو شهر ونصف وتوفي أبو داود ، ثم توفي اثر ذلك الخليفة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين في الغزوة المذكورة على حسب ما اشرحه رضي الله عنه ، فلما بويع أمير المؤمنين أبو يوسف باشبيلية بعده أعرض عن بناء سور للقصبة وأمر العامل الذي ولي باشبيلية عوضاً من أبي داود : محمد بن أبي مروان الغرناطي ببناء الصومعة المذكورة وامضاء أمر أبيه في بنائها والجد في عملها ، وقد كان العريف أحمد بن باسة فتح أساسها لصق الجامع فوافق فيه بئراً معينة

الماء فردمها بالاحجار والجيار ، وبلط فوق الماء حتى أمن قعود الأساس المذكور. ونظر في تقييد الانفاق على بنائها العامل المشرف محمد بن سعيد المذكور. فابتدأ بناءها فبناها العريف بالحجر المسمى بالطجون العادي المنقول من سور قصر ابن عباد ! وصنعها بغير ادراج ، انما يصعد اليها في طريق واسعة للدواب والناس والسدنة [338] ثم عزل ابن سعيد عن العمل بإشبيلية بعد شهور ، وتعطل بناؤها إلى أن وصل أبو بكر بن زهر من حضرة أمير المؤمنين في عام أربعة وثمانين وقد أمر بإعادة بناء الصومعة المذكورة ، وبناء مااختل في الجامع ، فشرع فيها بعمل العريف علي الغماري بالآجر الذي هو حد من بناء الحجر المذكور ، وأصلح مااختل في الثلاثة بلا طات في الجامع من جهة الشرق وجهة الغرب والجوف وأتقنها ، وحصن بناءها ، وعدل الجامع بالأدراج من جهة الغرب ، وسطح حواليه بالحجر الكدان ، وصنع في داخل المسقّف شمسيّات من زجاج وسطحه بالآجر وفي خارجه. ودام في ذلك أعواماً يعمل في الصومعة أحياناً ، ويسافر عن إشبيلية إلى الحضرة فيتعطل ، ثم يعود البناء في الصومعة وفيه لازم الجلوس بنفسه على البنائين في المُدَدِ التي كان يعاود فيها البناء ، فلما وصل أمير المؤمنين وهزم الله اذفونش الطاغية أهلكه الله على ماذكرته أمر رضي الله عنه في مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنْعة ، العظيمة الرفعة ، الكبيرة الجرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الإسم والجسم ، فرفعت في منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون في إعلائها على رأيه وبلوغ وطره مُركبَّة في عمود عظيم من الجديد مُرسى [339] اصله في بنيان أعلى صومعة الصومعة أعلاها ، زنة العمود مائة وأربعون ربعا من حديد ، موثقاً هناك في تلاحك البنيان بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح وصدمات الأمطار ما يطول التعجب منه من مقاومته وثباته ، وكان عدد الذهب الذي طليت به هذه التفافيح الثلاث الكبار والرابعة الصغرى سبعة آلاف مثقالاً كباراً يعقوبية عملها الصناع بين يدي أمين أمير المؤمنين وحضوره ، ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان لئلا ينالها الدنس من الأيدي والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة بالتكبير عليها والتهليل حتى وصلت ، ورفعت بالهندسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ووضعت في العمود وحصلت

فيه وحصنت بمحضر أمير المؤمنين أبي يوسف المنصور رضي الله عنه ، وبمحضر ابنه ولي عهده أبي عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضي وطلبة الحضر وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك في يوم الاربعاء عقب ربيع الآخر ، وبموافقة التاسع عشر من مارس العجمي ، من عام وتسعين وخمس مائة ، ثم كشفت عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الابريز [340] وبشعاع رونقها ، ويتداخل الخبر مع الخبر.

ذكر بنيان الاسواق حوالي الجامع المذكور وانتقالها من جانب جامع ابن عدبس اليه.

أمر أمير المؤمنين أبو يوسف رضي الله عنه بتوسعة رحاب للجامع حيث يصلي الناس ان احتاجوا الى ذلك. فهدمت الديار والحوانيت والفنادق المضيقة عليه من السويقة المعروفة عند الناس باشبيلية بسويقة المسمار قديماً ، وابتدأ الهدم فيها يوم السبت السابع من ربيع الأول عام اثنين وتسعين وخمس مائة وأمر بتقدير قيم الدور المهدومة والرباع التي للناس فيها ، فحضر المقدرون عن الامر العالي من أهل اشبيلية لذلك ، فمنهم من قدر بحسب ديانته وأمانته ، ومنهم من قدر بشهواته ، فامضى الأمر تقديرهم ، ودفع أمير المخزن عن الأمير القيم فيها لاصحابها على حسب ماذكرته واتصل الهدم حتى الى الروضات المتصلة بمسجد اليتيم ، فابتنيت الأسواق والحوانيت في المواضع المذكورة بأوثق البنيان ، وأحسن نوع في ذلك الشان ، عجيبة غريبة في الزمان ، وجعل لها أربعة أبواب كبار تحوطها من جوانبها الأربع : أكبرها الباب القبلي والجوفي تقابلان باب الجامع الجوفي [341] منه ، فلما كملت هذه الاسواق بحوانيتها بالبناء نقلت اليها سوق العطارين وسوق التجار من البزازين وسوق المركطيين والخياطين ، وتزاحم الناس باعتباطهم في المزايدة في كرائها ونما الخراج في ذلك نمواً غالياً ، واعتباطاً متماديا. وعمر الجامع بالصلوات الخمس فيه لزاما ، واستبق الناس اليه ركعاً وسجراً وقياماً ، فضخم شأنه ، وعظم مكانه ، ومر أمير المؤمنين على هذه الأسواق عند انتفاله من

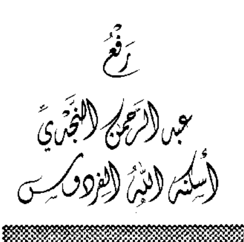
صلاة احدى الجمعات فسر بما رآه من عمارته ، وبدار الناس إلى طاعة الله وطاعته ، وشكر الله تعالى وحمده ، واغتبط بما بناه لله تعالى وخلده.

ابن صاحب الصلاة ، «تاريخ المن بالامامة على المستضعفين ...» تحقيق د. عبد الهادي التازي ، العراق ، 1979 ، ص 509 - 523)

القسم الخامس

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

عصر بني نصر



عصـر بنـي نصـر

يدور موضوع هذه النصوص عن مملكة غرناطة خلال حكم بني نصر ، هذه المملكة التي نشأت بعد سقوط المدن الاندلسية في يد الاسبان ، فأعلنت وجودها مايقرب من ثلاثة قرون (منذ تأسيسها على يد الغالب بالله أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر 629 هـ /1232م إلى أن تم تسليمها إلى القشتاليين سنة 898 / 1492).

تواكبت عوامل كثيرة جعلت هذه المملكة تصمد أمام هزات كثيرة ، أهمها :

ـ موقعها الجغرافي وتوفرها على سلسلات جبال تُتَّخَذُ حصونا للدفاع عن حوزتها ، كجبال البشرات ، وسينير امورينا ، وسيير انيپادا ...

ـ خصوبة أرضها وتنوع إنتاجها وثروتها المعدنية وماتمتاز به أرضها من كثرة العيون والأنهار ، ساعد على الرفع من اقتصادها ، فتفوق الغرناطيون في ميداني الصناعة والفلاحة وتربية المواشي وتنظيم قنوات الري واستعمال الطواحن المائية والهوائية.

أما كيفية توزيع هذه الاراضي واستغلالها فسنجد الاشارة اليه في النصوص .. التي تبرز إلى جانب ذلك واقع مملكة غرناطة السياسي الذي كان يطبعه التقلب والاضطراب ، فما إن تنعم بالاستقرار قليلا حتى تهب فتن إما داخلية أو خارجية

ـ داخلية : نتيجة الصراعات القائمة بين افراد اسرة بني نصر عن عرش غرناطة فجل الملوك الذين تعاقبوا على عرشها خلعوا او قتلوا من طرف إخوانهم أو أبناء أعمامهم ،

ـ خارجية : لأن المسيحيين كانت أطماعهم ممتدة للحصول على ماتبقى من الأندلس في قبضة المسلمين ، الذين كانوا يدفعون الجزية لموك قشتالة رغبة منهم في السلم ، في حين يرفض بعض

الملوك اعطاء الجزية فتهب الحروب بينهما.

في غمرة هذه الاحداث الداخلية والخارجية التي تنعكس آثارها على اقتصاد البلاد ترتفع أصوات ملوك غرناطة مستنجدين بملوك المغرب - بني مرين - الذين لم يكونوا يتأخرون عن بعث امدادات عسكرية ومادية اليهم ، وسنجد رسالة - ضمن النصوص الواردة - من انشاء ابن الخطيب على لسان ابي الحجاج النصري الى ابي عنان المريني ، تبرهن على ماقلنا وتمثل مدى العلاقات الدبلوماسية بين المغرب وغرناطة آنذاك.

نستشف من هذه النصوص مدى ماوصلت اليه مملكة غرناطة من تقدم حضاري سواء في فن العمران أو تنظيم الحفلات الى غير ذلك من مظاهر الحضارة ولاغرو ، فغرناطة هاجر اليها جل المثقفين والفنانين واصحاب الفكر والأدب من المدن الاندلسية الاخرى الذين رفضوا العيش تحت سيطرة المسيحيين ، وبذلك أصبحت مركزا ثقافيا وحضاريا من أهم المراكز في العالم آنذاك ، وإطلالة على كتب التراجم التي ألفت في ذلك العصر كنثير الجمان في شعر من نظمني واياه الزمان لابن الاحمر والاحاطة والكتيبة الكامنة لابن الخطيب الخ ... كافية للبرهنة على ماحققته مملكة غرناطة من ازدهار ثقافي ، حيث يلاحظ القارىء أن كل ترجمة تتضمن مؤلفات عديدة لصاحبها ، خضم زاخر ، وتراث فكري يتناول شتى فروع المعرفة ، ماوصلنا منه لا يمثل الا النزر اليسير ، الذي استقينا من بعضه هذه النصوص ، ولكنه يشكل أهمية كبرى ، خصوصا أن مؤلفات ابن الخطيب عن غرناطة تعتبر المصادر الاساسية ، يزيد من أهميتها أن مؤلفها كان وزيرا لدولة بني نصر ومعاصراً لأحداثها ، وعنها اعتمد المؤرخون المتأخرون.

أما المصادر التي انتقينا منها هذه النصوص فهي :

1- الاحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب (713 - 776 / 1313 - 1374) حققه د. عنان ونشره بالقاهرة سنة 1973 - 1977 ، في اربع مجلدات الكتاب بمثابة موسوعة عن تاريخ غرناطة منذ نزلها العرب الاوائل حتى عهد الغني بالله محمد الخامس ، كما يورد المؤلف

حوالي خمسمائة ترجمة من بينها علماء وأدباء الاندلس.

2 - اللمحة البدرية في الدولة النصرية . تح محب الدين الخطيب ، ط 2، بيروت 1978 لنفس المؤلف ، وفيه تلخيص لاهم الاحداث السياسية في عصر بني نصر حتى عهد الغنى بالله

3 - نفاضة الجراب في علالة الاغتراب (لابن الخطيب) ، يتكون من ثلاثة أو أربعة أجزاء ، الجزء الاول والرابع لازالا مفقودين ، الجزء الثاني حققه د.أحمد المختار العبادي ونشره بالقاهرة 1968. الجزء الثالث حققته دة. السعدية فاغية ونشرته بالدار البيضاء سنة 1989.

يتضمن الكتاب احداثا مغربية واندلسية ، ومايتعلق بالاندلس تدور أحداثه مابين سنتي 760 هـ 764 - أي منذ خلع الغنى بالله ولجوئه الى المغرب صحبة ابن الخطيب حتى عودتهما الى غرناطة واسترجاع الغنى بالله لملكه ، والكتاب يصور واقع غرناطة السياسي والاقتصادي والاجتماعي خلال هذه المدة.

4 - لنفس المؤلف ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ، تح.د عنان القاهرة 1980 ، جزءان.

والكتاب يضم مجموعة كبيرة من الرسائل الدبلوماسية المتداولة بين مملكة غرناطة وغيرها من الدول ، ولاتخفى أهمية هذه الرسائل في ابراز جوانب متعددة عن الوضع العام لمملكة غرناطة.

5 - جبنة الرضى في التسليم بما قدر الله وقضى ، لابن عاصم مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 2648 ، يتضمن بعض الاخبار عن غرناطة .

6 - لايمكن أن نغفل تاريخ ابن خلدون ولو أنه غير أندلسي. كما تجدر الاشارة الى مصدر متأخر اعتمد صاحبه على مؤلفات ابن الخطيب وغيرها من مصادر ضاع جلها وهو نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقرى (ت 1041 / 1631) تح. احسان عباس . بيروت 1968 ، 8 اجزاء.

بقي أن نشير الى ملاحظة وهي اختلاف هذه النصوص عن غيرها من النصوص التاريخية من حيث أسلوبها الذي تطغى عليه الصنعة والزخرف اللفظي ، فإبن الخطيب كان

احسن من يمثل اتجاه الصنعة في النثر ، الذي كان شائعا في عهد بني نصر ، ومادامت كتبه هي المورد الذي لا غنى عنه لكل باحث في تاريخ غرناطة فما عليه إلا أن يتكلف عناء قراءته.

فـي ذكـر الـمدينـة التي اقتعد هذا الـملك سريرهـا وأحكـم تدبيرهـا (1)

قال المؤلف : هي غرناطة وأغرناطة اسم أعجمي ، مدينة كورة إلبيرة ، وتسمى سنام الأندلس. وإلبيرة ـ التي انتقل منها الملك اليها عام أربعمائة من الهجرة الكريمة ـ على نحو فرسخ وثلث فرسخ ، ولها من الشهرة بنفسها وأعلامها ماهو معلوم.

وأغرناطة من معمور الاقليم الخامس : يبتدىء من بلاد يأجوج ، ثم يمرُّ على خراسان ، ثم يمر بسواحل الشام ، ثم على كثير من بلاد الأندلس الى البحر المحيط الغربي. فهي قريبة من الاعتدال ، شامية في أكثر الأحوال. بينها وبين دار الملك الأول قرطبة ـ أعادها الله ـ تسعون ميلاً ، وهي منها بين شرق وقبلة ، والبحر الشامي بين غرب وقبلة على أربعة بُرُد ، والجبال بين شرق وقبلة ، والبراجلات بين شرق وجوف والكنبانية بين جوف وغرب ، فهي لمكان جوار الساحل ممارة بالسمك والبواكر ، طية للتجار ، ركاب للجهاد في البحر. ولمكان استقبال الجبال مقصودة بالفواكه المتأخرة اللحاق متماسكة في الجدوب معللة بالمدّخرات. ولمكان استدبار الكنبانية واضطبان البراجلات بحر من بحار الحنطة ، ومعدن من معادن الحبوب المفضلة (والحرير والسكر). ولمكان جبل الثلج شلير الشهير في جبال السفرة اطرت بها المياه وصح الهواء وتعددت البساتين والجنات والتف الدوح وكثرت الأعشاب الطبية والعقاقير الدوائية.

ومن فضائلها أن ارضها لا تعدم زريعة ولاريعا أيام العام.

وفي عمالتها المعادن الجوهرية من الذهب والفضة والرصاص والحديد والتوتيا والمرتشيشا والازورد. وبجبالها وبطاحها الاندارسيون والسنبل والجنطيانا. وبشعرائها القرمز الى غلة الحرير الذي فضلت به تجراً وقنيةً هذه الكورة فلا يشاركها في ذلك إلا البلاد العراقية مقصرة عنه رقة ولدونة وعتاقة.

وفحصها الأَفْيَحُ ـ المشبه بالغوطة ـ حديث الركاب وسمر الليالي. قد دحاه الله في بسيط تخترقه الجداول والأنهار ، وتتزاحم به القرى والجنات : في أحسن الوضع وأجمل البناء ، ذرع أربعين ميلا ، تحدق الهضاب والجبال المتطامنة منه بشكل ثُلثي دائرة ، فعدت المدينة منه فيما يلي المركز مستندة الى أطوادٍ سامية ، وهضاب عالية ، ومناظر مشرفة.

ويشتمل شكل هذه المدينة العظيمة ـ ومايرجع اليها من أرباضها ـ على جبال خمسة ، وسهل فسيح الساحة ، بعيد الأقطار ، متراكب العمارة ، لايتخلله خراب ولا بياض على حد ما ـ عليه كُور النخل. قد ضم من النسم مالا يحيط به إلا من كتب الحركات وأحصى الأنفاس. إلى الجسور المحكمة ، والمساجد العتيقة ، والأسواق المنتظمة. يشق البلد النهر الشهير المسمى بهدارة آتيا من جهة الشرق ، ويجتمع بخارجها بوادي شنجل الآتي من قبليها ، فيشق الفحص الأفيح ولايزال يعظم مدُّه بما ينضاف اليه من فضول السقي ومواقع الأنهار بأحوازها ، الى أن يمر باشبيلية وقد صار نيلاً عظيما.

ومدينة (الحمراء) دار الملك مطلة على معمورها في سمت القبلة : تشرف عليه منها الشرفات البيض ، والأبراج السامية ، والمعاقل المنيعة والقصور الرفيعة ، تعشي العيون ، وتبهر العقول. وتنحدر من فضول وأفياض حوائرها في سفحه جداول تسمع على البعد أمزاجها مياهها وأفياض حوائرها وبركها في سفحه جداول تسمع على البعد أهزاجها.

ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلصة ، والادواح الملتفة ، فيصير من ذلك خلف سياج تلوح لجوم الشرفات البيض أثناء خضرائه فلا تعرى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين.

وأما ماحازه السهل من جوفيّه فمنى عظيمة الخطر ، متناهية القيم ، تضيق جدة من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها. منها ما يغل في السنة شطر الألف من الذهب على خمول أثمان الخضر بهذه المدينة ، يختص منها بمستخلص السلطان مايناهز ثلاثين منية. ويحيط بها

ويتصل بأذيالها من العقار الثمين الذي لا يعرف الجمام ولا يفارق الريع ماينتهي المرجع العملي منه الى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب لعهدنا هذا ، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً وغبطةً وانتـظاماً ، يرجع الى دور ناجمة وبروج سامية وبيادر فسيحة وقصاب للحمائم والدواجن ماثلة ، منها في حمى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ماينيف على العشرين ، بها الجُمُل الضخمة من الرجال ، والفحول الفارهة من الحيوان للاثارة وعلاج الفلاحة ، وفي كثير منها الحصون والارحاء والمساجد. ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذي هو لباب الفلاحة وعين هذه المدرة الطيبة سائر القرى والبلاد التي بأيدي الرعية ، مجاورة لحدود ماذكر بلاد عريضة وقرى آهلة : منها ماانبسط وتمدّنَ فاشترك فيه الألوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال ، ومنها ما انفرد بمالكٍ واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثمائة تنصب في نحو خمسين منها منابر الجمعات وتمدُّ الأكف البيض وترفع الأصوات الفصيحة لله. ويشتمل سور هذه المدينة وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رحى.

1) ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص 21

ابن الخطيب : اللمحة البدرية ص 22

فصل

فيما اشتمل عليه خارج المدينة من القرى والجنات والجهات (1)

قال المؤلف رحمه الله : ويحف بسور هذه المدينة المعصومة بدفاع الله تعالى البساتين العريضة المستخلصة ، والأدواح الملتفة ، فيصير سورها من خلف ذلك كأنه من دون سياج كثيفة ، تلوح نجوم الشرفات أثناء خضرايه ولذلك ماقلت فيه بعض الأغراض :

بلد يحف به الرياض كأنه * وجـه جميـل والرياض عذاره

وكأنما واديه معصم غادة * ومن الجسور المحكمات سواره

فليس تعرى عن جنباته من الكروم والجنات جهة ، إلا مالا عبرة به مقدار غلوة ، أما ما حازه السَفل من جَوْفيه ، فهي عظيمة الخطر ، متناهية القيم ، يضيق جدُه من عدا أهل المُلك ، عن الوفاء بأثمانها ، منها ما يغل في السنة الواحدة نحو الألف من الذَهب قد غُصَّت الدكاكين بالخضر الناعمة ، والفواكه الطيبة ، الثمر المُدَّخرة ، يختص منها بمستخلص السلطان ، المرور طوقاً على ترائب بلده مابينهن منية ؛ منها الجنة المعروفة بفدان الميسة ، والجنة المعروفة بفدان عصام ، والجنة المعروفة بالمعروى ، والجنة المنسوبة إلى قداح بن سحنون ، والجنة المنسوبة لابن المؤذن ، والجنة المنسوبة لابن كامل ، وجنة النخلة العليا ، وجنة النخلة السفلى ، وجنة ابن عمران ، والجنة التي إلى نافع ، والجرف الذي ينسب إلى مقبل ، وجنة العرض ، [وجنة الحفرة] ، وجنة الجرف ، ومدرج نجد ، ومدرج السبيكة ، وجنة العريف : كلها لانظير لها في الحسن والدَمانة والريع ، وطيب التربة ، وغرقد السقيا ، والتفاف الأشجار واستنجادة الأجناس ، إلا مايجاورها ويتخلَلها ، مما يختص بالأحباس الموقفة ، والجنات المتملكة ، ومايتصل بها بوادي سنجيل مايقيد الطَرف ، ويعجز الوصف ، قدمنك منها على الأنهار المتدافعة العُباب ، المنارة والقباب ، واختصت من أشجار العاريات ذات العصير الثاني بهذا الصُقع ، ماقصرت عنه الأقطار. وهذا الوادي من محاسن هذه الحضرة ، ماؤه رقراق من ذوب

الثلج ، ومجاجة الجليد ، ومرُّه على حصى جوهرية ، بالنبات والظلال محفوفة ، يأتي من قبلة علام البلد إلى غربه ، فيمر بين القصور النَّجْدية ، ذوات المناصب الرفيعة ، والأعلام المائلة.

ابن الخطيب : الاحاطة 115/1

فصـــل

فيمن تـداول هذه المدينـة

مـن لـدن أصبحت دار إمـارة باختصـار واقتصـار (1)

قال المؤلف : أول من سكن هذه المدينة ، سكنى استبداد ، وصيرها دار ملكه ومقرَّ أمره ، الحاجبُ ، المنصور أبو مُثْنى زاوى بن زيرى بن مناد لما تغلب جيش البربر ، مع أميرهم سليمان بن الحكم على قرطبة ، واستولى على كثير من كور الأندلس ، عام ثلاثة وأربعمائة فما بعدها ، وظهر على طوائف الأندلس ، واشتهر أمره ، وبعد صيته. ثم اجتاز البحر إلى بلد قومه بإفريقية ، بعد أن ملك غرناطة سبع سنين ، واستخلف ابن أخيه حَبُّوس بن ماكسن ، وكان حازماً داهية ، فتوسع النظر إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة. وولى بعده حفيده عبد الله بن بلكين بن باديس ، إلى أن خلع عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة ، وتصير أمرها إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ملك لمتونة عند تَمَلُّكه الأندلس ، ثم إلى ولده علي بن يوسف. وتَنَوَّب إمارتها جملة من أبناء الأمراء اللمتونيين وقرابتهم كالأمير أبي الحسن على بن الحاج وأخيه موسى ؛ والأمير أبي زكريا يحيى بن أبي بكر بن إبراهيم ؛ والأمير أبي الطاهر تميم ؛ والأمير أبي محمد مزدلي ؛ والأمير أبي بكر بن أحمد محمد ؛ وأبي طلْحة الزُّبير ابن عُمر ؛ وعثمان بن بدر اللمتوني ؛ إلى أن انقرض أمرهم عام أربعين وخمسمائة.

وتصير الأمر للموحدين ، وإلى ملكهم أبي محمد عبد المؤمن بن علي ، فتناوبها جملة

من بنيه وقرابته ، كالسيِّد أبي عثمان بن الخليفة ؛ والسيد أبي إسحاق ابن الخليفة ؛ والسيِّد أبى إبراهيم بن الخليفة ؛ والسيد أبي محمد بن الخليفة ؛ والسيد أبي عبد اللة ؛ إلى أن انقرض منها أمر الموحدين.

وتملكها المتوكل على الله ، أمير المؤمنين ، أبو عبد الله محمد يوسف بن هودْ في عام ستة وعشرين وستمائة ، ثم لم يَنْشبِ أن تملكها أمير المسلمين الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر الخزرجي ، جي هؤلاء الأمراء الكرام. والينا ، رحم الله من دَرَجَ منهم ، وأعان من خلفه ، إلى أن توفى عام أحد وسبعين وستمائة. ثم ولى الأمر بعده ولده وسميه محمد بن محمد فقام بها أحمد قيام ، وتوفى عام إحدى وسبعمائة. ثم ولى بعده سميه محمد إلى أن خلع يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة ، وتوفى عام أحد عشر وسبعمائة في ثالث شوال منه. ثم ولى بعده أخوه نصر بن مولانا أمير المسلمين أبى عبد الله ، فأرتب أمره ، وطلب الملك اللاحق به مولانا أمير المسلمين أبو الوليد إسماعيل بن فرج ، فغلب على الإمارة ، ثاني عشر ذي القعدة من عام ثلاثة عشر وسبعمائة ؛ وانتقل نصر إلى وادي آش مخلوعاً ، موادعاً بها إلى أن مات عام [اثنين وعشرين] وسبعمائة. وتمادى ملك السلطان أمير المسلمين أبى الوليد إلى السادس والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة ، ووثب عليه بعض قرابته فقتله ، وعوجل بالقتل مع مَنْ حضر منهم. وتولى الملك بعده ولده محمد ، واستمر سلطانه إلى ذي الحجة من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ، وقتل بظاهر جبل الفتح. وولى بعده أخوه مولانا السلطان أبو الحجاج لُبابُ هذا البيت ، وواسطة هذا العقد ، وطراز هذه الحلية ، ثم اغتاله مَمْرُور من أخابيث السوقة ، قيضة الله إلى شهادته ، وجعله سبباً لسعادته ، فأكبَّ عليه في الرَّكعة الآخرة من ركعتي عيد الفطر ، بين يدي المحراب ، خاشعاً ، ضارعاً ، في الحال الذي أقربُ مايكون العَبْدُ من ربه ، وهو ساجد ، وضربه بخنجر مهيء للفتك به ، في مثل ذلك الوقت ، كان ، زعموا ، يحاول شخذه منذ زمان ضربة واحدة ، على الجانب الأيسر من ظهره ، في ناحية قلبه ، فقضى عليه ، وبودر به فقتل.

وولى الأمر بعده محمد ، ولده أكبر بنيه ، وأفضل ذويه ، خَلْقاً و خُلُقاً وحياءً وجوداً ، ووقاراً وسلامة وخيريه ، ودافع دولته من لايعبأ الله به ؛ ثم تدارك الأمر سبحانه ، وقد أشفى ، ودافع وكفى ، بما يأتى في محله إن شاء الله. وهو أمير المسلمين لهذا العهد ، متع الله به ، وأدام مدته ، وكتب سعادته ، وأطلق بالخير يده ، وجعله بمراسم الشريعة من العاملين ، ولسلطان يوم الدين من الخائفين ، المراقبين ، بفضله.

وقد أتينا بما أمكن من التعريف بأحوال هذه الحضرة على اختصار. ويأتى في أثناء التعريف برجالها كثير من تفصيل ماأجمل ، وتَتْميم مابدأ ، وإيضاح ماخفى ، بحول الله تعالى.

فصل

وقد فرغنا من ذكر رسوم هذا القطر ومعاهده ، وفرغنا من تصويره وتشكيله ، وذكر قراه وأجناته ، وقصوره ومتنزهاته ، فنحن الآن نذكر بعضا من سير أهله ، وأخلاقهم ، وغير ذلك من أحوالهم بإجمال واختصار ، فنقول :

أحوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد ، أحوال سنية ، والنحل فيهم معروفة ؛ فمذاهم على مذهب مالك بن أنس إمام دار الهجرة جارية ، وطاعتهم للأمراء محكمة ، وأخلاقهم في احتمال المعاون الجبائية جميلة ، وصورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادّة ، وشعورهم سود مرسلة ، وقدورهم متوسطة معتدلة ، إلى القِصَرِ ، وألوانهم زُهْر مُشْرِبة بحمرة وألسنتهم فصيحة عربية ، يتخللها غرب كثير ، وتغْلِب عليهم الإمالة ، وأخلاقهم أبيَة في معاني المنازعات ، وأنسابهم عربية ، وفيهم من البَرْبَرَ والمُهاجرة كثيرة ؛ ولباسهم الغالب على طبقاتهم الفاشي بينهم ، الملف المصبوغ شتاء ، وتتفاضل أجناس البز بتفاضل الجدة ،

---

1) الاحاطة 1 / 140

والمقدار ؛ والكتان والحرير ، والقطن ، والمرعزى ؛ والأردية الإفريقية ، والمقاطع التونسية ، والمآزر المشفوعة صيفا ، فتبصرهم في المساجد ، أيام الجمع ، كأنهم الأزهار المفتحة ، في البطاح الكريمة ، تحت الأهوية المعتدلة.

وجندهم صنفان ، آندلِسي وبربري ؛ والاندلسي منها يقودهم رئيس من القرابة أو حضي من شيوخ الممالك. وزيُّهم في القديم شبه زي أقتالهم ، وأضدادهم ، من جيرانهم الفرنج ، إسباغ الدُّروع ، وتعليق الترسة ، وجفاء البيضات ، واتخاذ عراض الأسنة ، وبشاعة قرابيس السروج ، واستركاب حملة الرايات خلفهم ، كل منهم بصفة تختص بسلاحه وشهرةٍ يعرف بها. ثم عدلوا الآن عن هذا الذي ذكرنا ، إلى الجواشن المختصرة ، والبيضات المرهفات ، والسُّروج العربية ، واليلب اللمطية ، والأسل اللطيفة والبربرى منه ، يرجع إلى قبائله المرينية ، والزناتية ، والتجانية والمغراوية والعجيسية ؛ والعرب المغربية إلى أقطاب ورؤوس ، يرجع أمرهم إلى رئيس ، على رؤسائهم ، وقطب لعرفائهم ، من كبار القبائل المرينية ، يمت إلى ملك المغرب بنسب.

والعمائم تقل في زى أهل هذه الحضرة ، إلا ماشاد في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم ، والجند العربي منهم. وسلاح جمهورهم العصّى الطويلة ، المثناة بعصى صغار ذوات عرى في أواسطها ، تدفع بالأنامل عند قذفها تسمى «بالأمداس» ؛ وقسى الإفرنجة يحملون على التدريب بها على الأيام ؛ ومبانيهم متوسطة ، وأعيادهم حسنة ، مائلة إلى الاقتصاد ؛ والغناء بمدينتهم فاش ، حتى في الدكاكين التي تجمع صنائعها ، كثيراً من الأحداث ، كالخفافين ومثلهم.

وقوتهم الغالب ، البر الطيب ، عامة العام ، وربما اقتات في فصل الشتاء الضعفة والبوادى والفعلة في الفلاحة ، الذرة العذبة ، أمثل أصناف القطاني الطيبة.

وفواكههم اليابسة عامة العام ، متعددة ؛ يدخرون العنب سليما من الفساد ، إلى شطر

العام ؛ إلى غير ذلك من التين ، والزبيب ، والتفاح ، والرمان ، والقسطل ، والبلوط ، والجوز ، واللوز ، إلى غير ذلك مما لا ينفد ، ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يزهد في استعماله.

وصرفهم فضة خالصة ، وذهب إبريز طيب محفوظ ، ودرهم مربع الشكل ، من وزن المهدي القائم بدولة المُوحدين ، في الأوقية منه سبعون درهما ، يختلف الكتب فيه. فعلى عهدنا ، في شق ، «لا إله إلا اله ، محمد رسول الله» ؛ وفي شق آخر ، «لا غالب إلا الله ، غرناطة». ونصفه وهو القيراط ، في شق ، «الحمد لله ربِّ العالمين» ؛ وفي شق ، «وما النصر إلا من عند الله». ونصفه وهو الربُع ، في شق ، «هدى الله هو الهدى» ؛ وفي شق ، «العاقبة للتقوى».

وديناهم في الأوقية منه ، ستة دنانير وثلثا دينار ؛ وفي الدينار الواحد ثمن أوقية وخمس ثمن أوقية. وفي شق منه ، «قل اللهم مالك الملك بيدك الخير» ، ويستدير به قوله تعالى «إلهكم إله واحدٌ ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم». وفي شق ، «الأمير عبد الله يوسف ، بن أمير المسلمين أبى الحجَّاج ، بن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن نصر ، أيَّد الله أمره». ويستدير به ، شعاع هؤلاء الأمراء ، «لا غالب إلا الله». ولتاريخ تمام هذا الكتاب ، في وجه، «ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون». ويستدير به ، «لا غالب إلا الله». وفي وجه ، «الأمير عبد الله الغنى بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر ، أيدّه الله وأعانه». ويستدير بربع ، «بمدينة غرناطة حرسها الله».

وعادة أهل المدينة ، الانتقال إلى حلال العصير أوان إدراكه ، بما تشتمل عليه دورهم ، والبروز إلى الفحوص بأولادهم ، مُعَوِّلين في ذلك على شهامتهم وأسلحتهم ، وعلى كثب دورهم ، واتصال أمصارهم بحدوة أرضه. وحليهم في القلائد ، والدمالج ، والشنوف ، والخلاخل الذهب الخالص ، إلى هذا العهد ، في أولى الجدة ، واللجين في كثير من آلات الرجلين ، فيمن عداهم ؛ والأحجار النفسية من الياقوت ، والزبرجد والزمرد ونفيس الجوهر ،

كثير ممن ترتفع طبقاتهم المستندة إلى ظل دولة ، أو أصالة معروفة موفرة.

وحريمهم ، حريم جميل ، موصوف بالسحر ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام وحسن المحاورة ، إلا أن الطول يندرفيهن. وقد بلغن من التفنن في الزينة لهذا العهد ، والمظاهرة بين المصبغات ، والتنافس بالذهبيات والديباجيات ، والتماجن في أشكال الحلي ، إلى غاية نسأل الله أن يغض عنهن فيها ، عين الدهر ويكفكف الخطب ، ولا يجعلها من قبيل الابتلاء والفتنة ، وأن يعامل جميع من بها بستره ، ولا يسلبهم خفى لطفه ، بعزته وقدرته.

(الخبر عن منازلة الطاغية الجزيرة ، ثم تغلبه عليها بعد أن غلب على القلعة من ثغور ابن احمر) (1)

لما رجع الطاغية من طريف استأسد على المسلمين بالاندلس ، وطمع في التهامهم ، وجمع عساكر النصرانية ، ونازل قلعة بني سعيد ثغر غرناطة. وعلى مرحلة منها وجمع الآلات والأيدي على حصارها ، واشتد مخنقها وأصابهم الجهد من العطش ، فنزلوا على حكمه سنة إثنتين وأربعين وسبعمائة وأدال الله الطيب منها بالخبيث ، وانصرف إلى بلده. وكان السلطان أبو الحسن لما أجاز إلى سبتة أخذ نفسه بالعودة إلى الجهاد لرجع الكرة وبعث في الأمصار للاستنفار ، وأخرج قواده إلى سواحل البحر لتجهيز الأساطيل حتى اكتمل له منها عدد. ثم ارتحل إلى سبتة لمشارفتها ، وقدم عساكره إلى العدوة مع وزيره عسكر بن تاحضريت. وبعث على الجزيرة محمد بن العباس بن تاحضريت من قرابة الوزير ، وبعث إليها مدداً من العسكر مع موسى بن ابراهيم اليرنياني من المرشحين للوازرة ببابه ، وبلغ الطاغية خبره فجهز أسطوله وأجراه إلى بحر الزقاق لمدافعته. وتلاقت الأساطيل ومحص الله المسلمين واستشهد منهم أعاد وتغلب أسطول الطاغية على بحر الزقاق وملكوه دون المسلمين وأقبل الطاغية من إشبيلية في

عساكر النصرانية حتى أناخ بها على الجزيرة الخضراء مرفا أساطيل المسلمين وفرضه المجاز. وأمل أن ينظمها في مملكته مع جارتها طريف ، وحشد الفعلة والصناع للآلات ، وجمع الأيدي عليها وطاولها الحصار. واتخذ أهل المعسكر بيوتاً من الخشب للمطاولة. وجاء السلطان أبو الحجاج بعساكر الأندلس فنزل قبالة الطاغية بظاهر جبل الفتح في سبيل الممانعة. وأقام السلطان أبو الحسن بمكانه من سبتة ليسرب عليها المدد من الفرسان والمال والزرع في أحايين الفعلة من أساطيلهم ، وتحت جناح الليل ، فلم يغنم ذلك ، واشتد عليهم الحصار وأصابهم الجهد. وأجاز إليه السلطان أبو الحجاج يفاوضه في شأن السلم مع الطاغية ، بعد إذن الطاغية له في الإجازة مكراً به. وترصد له بعض الأساطيل في طريقه فصدقهم المسلمون القتال وخلصوا إلى الساحل بعد غص الريق ، وضاقت أحوال الجزيرة ومن كان بها من عساكر السلطان. وسألوا من الطاغية الأمان على أن ينزلوا على البلد فبذله وخرجوا فوفى لهم. وأجازوا إلى المغرب سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة فأنزلهم السلطان ببلاده على خير نزل ولقاهم من المبرة والكرامة ماأعاضهم مما فاتهم ، وخلع عليهم وحملهم وأجازهم بما تحدث به الناس. وتقبض على وزيره عسكر بن تاحضريت عقوبة على تقصيره في المدافعة ، مع تمكنه منها بما كان لديه من العساكر.وانكفا السلطان إلى حضرته موقنا بظهور أمر الله ، وإنجاز وعده في رجوع الكرة وعلو الدين. والله متم نوره ولو كره الكافرون.

---

(1) تاريخ ابن خلدون 7 / 347

(الخبر عن واقعة طريف وتمحيص المسلمين) (1)

لما ظفر السلمون باسطول النصارى وخضدوا شوكتهم عن ممناعة الجواز ، شرع السلطان في إجازة العساكر الغزاة من المطوعة والمرتزقة ، وانتظمت الأساطيل سلسلة واحدة من العدوة إلى العدوة. ولما استكمل إجازة العساكر أجاز هو في أسطوله مع خاصته وحشمه آخر سنة أربعين وسبعمائة ونزل بساحة طريف وأناخ بعساكره عليها ، واضطرب معسكره بفنائها ، وبدأ بمنازلتها. ووافاه سلطان الأندلس أبو الحجاج ابن السلطان أبي الوليد بعسكر الأندلس من غزاة زناتة وحامية الثغور ورجل البدو ، فعسكروا حذاء معسكره وأحاطوا بطريف نطاقاً واحداً ، وأنزلوا بهم أنواع القتال ، ونصبوا عليها الآلات. وجهز الطاغية أسطولا آخر اعترض به الزقاق لقطع المرافق عن المعسكر ، وطال ثواؤهم بمكانهم من حصار البلد ، ففنيت أزودتهم وافتقدوا العلوفات ، فوهن الظهر واختلت أحوال المعسكر. واحتشد الطاغية أمم النصرانية وظاهره البرتقال صاحب أشبونة ، وغرْب الأندلس ، فجاء معه في قومه. وزحف إليهم لستة أشهر من نزولهم. ولما قرب معسكرهم سرب إلى طريف جيشاً من النصارى أكمنه بها ، فدخلوه ليلاً على حين غفلة من العسس الذي أرصد لهم. وأحسّوا بهم آخر ليلتهم ، فثاروا بهم من مراصدهم وأدركوا أعقابهم قبل دخول البلد ، فقتلوا منهم عدداً ولبسوا على السلطان بأنه لم يدخل البلد سواهم حذراً من سطوته. وزحف الطاغية من الغد في جموعه ، وعبى السلطان مواكب المسلمين صفوفاً ، وتزاحفوا ولما نشب الحرب برز الجيش الكمين من البلد وخالفوهم إلى المعسكر ، وعمدوا إلى فسفاط السلطان ودافعهم عنه الناشبة الذين أعدّوا لحراسته فاستلحموهم. ثم دافعهم النساء عن أنفسهن فقتلوهنّ وخلصوا إلى حظايا السلطان : عائشة بنت عمه أبي يحيى بن يعقوب ، وفاطمة بنت مولانا السلطان أبي يحيى مالك أفريقية ، وغيرهما من حظاياه فقتلوهن واستلبوهنّ. وانتهبوا سائر الفساطيط وأضرموا المعسكر ناراً وأحس المسلمون بما وراءهم في معسكرهم فاختلّ مصادفهم وارتدّوا على أعقابهم بعد أن كان ابن السلطان صمم في طائفة من قومه وذويه حتى خالطهم في صفوفهم ، فأحطوا به وتقبضوا عليه ، وولى

السلطان متحيزاً إلى فئة المسلمين ، واستشهد كثير من الغزاة ووصل الطاغية إلى فسطاط السلطان من المحلة وأنكر قتل النساء والولدان ، ووقف منه لمنتهى أثره ، وانكفأ راجعا إلى بلاده ، ولحق ابن الأحمر بغرناطة ، وخلص السلطان إلى الجزيرة ، ثم إلى الجبل. ثم ركب السفين إلى سبتة في ليله ومحص الله المسلمين وأجزل ثوابهم. وأرجأ لهم الكرة على عدوهم.

(1) عبد الرحمن بن خلدون : (732 - 808 / 1332 - 406) تاريخ ابن خلدون ، المسمى ديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الاكبر ، تح ذ خليل شحاذة ، 8 ج ، بيروت 1981 ، انظر الجزء السابع ص 346

الاحداث في عهد ابي عبد الله محمد ثالث ملوك بني نصر (1)

في عام ثلاثة وسبعمائة ، نقم على قريبه الرئيس أبي الحجاج بن نصر الوالي بمدينة وادي آش. أمراً أوجب عزله عنها ، وكان مقيما بحضرته فاتخذ [الليل] جملا وكان أملك بأمرها ، وذاع الخبر. فاستركب الجيش ، وقد حدماينزل في استصلابه ، وجدد الصكوك بولايته خوفاً من اشتغال الفتنة ، وقد أخذ على يديه ، وأغرى أهل المدينة بحربه ، فتداعوا لحين شعورهم باستعداده وأحاطوا به ، فدهموم وعاجلوه ، فتغلبوا عليه ، وقيد إلى بابه أسيراً مصفداً ، فأمر أحد أبناء عمه فقتله صَبْراً ، وتملا فتحاً كبيراً ، وأمن فتنة عظيمة. وفي شهر شوال من عام خمسة وسبعمائة قرع الأسماع النبأ العظيم ، الغريب ، من تملك سبتة وحصولها في قبضته ، وانتزاعها من يد رئيسها أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم ، الرئيس الفقيه ، ابن الإمام المحدث أبي العباس العزفي حسبما يتقرر في اسم الرئيس الفقيه أبي طالب إن بلغنا الله ذلك ، واستأصل ماكان لأهلها من الذخائر والأموال ، ونقل رؤساءها ، وهم عدة ، إلى حضرته غرناطة في غرة المحرم من العام ، فدخلوا عليه ، وقد احتفل بالملك ، واستركب في الأبهة الجند ، فلثموا أطرافه ، واستعطفه شعراؤهم بالمنظوم من القول ، وخطباؤهم بالمنثور منه ، فطمأن روعهم وسكن جأشهم ، وأسكنهم في جواره ، وأجرى عليهم الأرزاق الهلالية و وتفقدهم في الفصول إلى أن كان من أمرهم ما هو معلوم.

اختلاعـــه

في يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة أحيط بهذا السلطان ، وأتت الحيلة عليه ، وهو مصاب بعينيه ، مقعد في كنه ، فداخلت طائفة من وجوه الدولة أخاه ، وفتكت بوزيره الفقيه أبي عبد الله بن الحكيم ، ونصبت للناس الأمير أبا الجيوش نصراً أخاه ، وكبست منزل السلطان ، فأحيط به ، وجعل الحرس [عليه] ؛ وتسومع بالكائنة فكان البهت ، وسال من الغوغاء البحر ، فتعلقوا بالحمراء ، يسألون عن الحادثة ، فشغلوا بانتهاب دار الوزير ، وبها من مال الله مايفوت الوصف. وكان الفجع في إضاعته على المسلمين ، وإطلاق الأيدي الخبيثة عليه عظيما ؛ وفي آخر اليوم عند الفراغ من الأمر ، دخل على السطان المخلوع ، الشهداء عليه بخلعه ، بعد نقله من دار ملكه إلى دار أخرى ، فأملى رحمه الله ، زعموا ، وثيقة خلعه ، مع شغب الفكر ، وعظم الداهية ، وانتقل رحمه الله بعد ، إلى القصر المنسوب إلى السيد بخارج الحضرة ، أقام به يسيرا ، ثم نقل إلى مدينة المنكب ، وكان من أمره مايذكر إن شاء الله.

ومما يؤثر من ظرفه ؛ حدث من كان منوطا به من خاصته ، مدة أيام إقامته بقصر نجد ، قبل خلعه قال : أرسل الله الأغربة على سقف القصر ، وكان شديد التطير والقلق لذلك حسبما تقدم من الإشارة إلى ذلك بحديث العشر وكان من جملتها غراب ، شديد الإلحاح ، حاد النعيب والصياح ، فأغرى به الرماة من مماليكه بأنواع القسي ؛ فأبادوا من الغربان أمة ؛ وتخطأ الحتف ذلك الغراب الخبيث [العبقان] فلما انتقل إلى سكنى الحمراء ؛ ظهر ذلك الغراب على سقفه ؛ ثم لما أهبط مخلوعاً إلى قصر شنيل تبعه ، وقام في بعض السقف أمامه ، فقال يخاطبه رحمه الله : يامشئوم ، يامحروم بين الغربان ، قد خلصت أمرنا ، ولم يبق لك علينا طلب ، ولا بيننا وبينك كلام إرجع إلى هؤلاء المحارم فاشتغل بهم ؛ قال ، فأضحكنا على حال الكآبة بعذوبة منطقه ، وخفة روحه.

الاحاطة 1 / 551

قال ابن عاصم عن اسباب سقوط غرناطة : (1)

«من استقرأ التواريخ المنصوصة ، وأخبار الملوك المقصوصة ، علم أن النصارى - دمرهم الله - لم يدركوا في المسلمين ثارا ، ولم يرحضوا عن أنفسهم عارا ، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا ، ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وأمصارا ، إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف ، واجتهادهم في وقوع الافتراق ، بين المسلمين والاختلاف ؛ وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيره ؛ وتحريشهم بالكيد والخلابة بين حماتها في الفتن المبيره ؛ ومهما كانت الكلمة مؤتلفه ، والأهواء لا مفترقة ولا مختلفه ، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى الله مزدلفه ؛ فالحرب إذ ذاك سجال ، ولله في إقامة الجهاد في سبيله رجال ، وللممناعة في غرض المدافعة ميدان رحب ومجال ، ورويّة وارتجال.

وتطاولت الأيام مابين مهادنة ومقاطعه ، ومضاربة ومقارعه ، ومنازلة ومنازعه ، وموافقه وممانعة ، ومحاربة ومموادعه ؛ ولا أمل للطاغية إلا في التمرس بالإسلام والمسلمين ، وإعمال الحيلة على المؤمنين ، وإضمار المكيدة للموحدين ، واستبطال الخديعة للمجاهدين ؛ وهو يظهر أنه ساع للوطن في العاقبة الحسنى ، وأنه منطو لأهله على المقصد الأسنى ؛ وأنه مهتم بمراعاة أمورهم ، وناظر بنظر المصلحة لخاصتهم وجمهورهم ؛ وهو يُسِرُّ حَسْواً في آرتغائه ، ويعمل الحيلة في التماس هلك الوطن وآبتغائه. فتبا لعقول تقبل مثل هذا المحال ، وتصدّق هذا الكذب بوجه أو بحال ؛ وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكر في نفسه ، وعرض هذا المسموعَ على مدركات حسه ، وراجع أوليات عقله وتجريبات حدسه ، وقاس عدوه الذي لا ترجى مودته على أبناء جنسه ؛ فأنا أناشده الله ، هل بات قط بمصالح النصارى وسلطانهم مهتما ، وأصبح من خطب طرقهم مغتما ؛ ونظر لهم نظر المفكر في العاقبة الحسنة ، أو قصد لهم قصد المدبر في العيشه المستحسنة ؛ أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القربة أربابهم وصلبانهم ، أو

1) جنة الرضى لوحة 123

عمر ضميره من تمكين عزهم بما ترضاه أحبارهم ورهبانهم ؛ فإن لم يكن ممن يدين بدينهم الخبيث ، ولم يُشْرَب قلبه حب التثليث ؛ ويكون صادق اللهجة ، منصفا عند قيام الحجة ؛ فسيعترف أن ذلك لم يخطر له قط على خاطر ولا مَرَّ له ببال ، وأن عكس ذلك هو الذي كان به ذا آغتباط وبفعله ذا آهتبال ، وإن نسب لذلك المعنى ، فهو عليه أثقل من الجبال ، وأشد على قلبه من وقع النبال ؛ هذا وعقده التوحيد ، وصلاته التحميد ؛ وملته الغراء ، وشريعته البيضاء ؛ ودينه الحنيف القويم ، ونبيه الرؤوف الرحيم ، وكتابه القرآن الحكيم ، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم ؛ فكيف نعتقد هذه المزية الكبرى ، والمنقبة الشُّهرى ؛ لمن عقده التثليث ، ودينه المليث ؛ ومعبوده الصليب ، وتسميته التصليب ؛ وملته المنسوخة ، وقضيته المفسوخة ؛ وختانه التغطيس ، وغافر ذنبه القسِّيس ؛ وربه عيسى المسيح ، ونظره ليس البين ولا الصحيح ، وأن ذلك الرب قد ضرج بالدماء ، وسقي الخل عوضَ الماء ؛ وأن اليهود قد قتلته مصلوبا ، وأدركته مطلوبا ، وقهرته مغلوبا ؛ وأنه جزع من الموت وخاف ، إلى سوى ذلك مما يناسب هذه الأقاويل السخاف ؛ فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة من الخير مثقال الذرة ، أو يطمع منهم في جلب المنفعة أو دفع المضرة ؛ اللهم احفظ علينا العقل والدين ، واسلك بنا سبيل المهتدين»

رسالة من السلطان النصري أبي الحجاج إلى السلطان المريني أبي عنان بقلم ابن الخطيب (1)

... أما بعد حمد الله ذي العظمة والجلال ، والإحسان والإفضال ، الذي لا يقصد إلا وجهه بالمقاصد الزاكية والأعمال ، ولا يؤمل إلا فضله في جميع الأحوال. والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله خاتم الأنبياء وخيرة الإسال ، الملجأ المنيع عند اشتداد الأزمات والأهوال .. والرضا عمن له من القرابة والصَّحابة والآل ، بدور ملته التي لا يفارقها صفات الكمال ، وأعلامها الذين سرت بهم مكارمهم مسرى الأمثال . والدعاء لمقام أخوتكم الأصيل الجلال ، سلالة الملك الطاهر الخلال، والمجد الفسيح المجال ، بالتوفيق ، الذي يظفر من الله

بالآمان ، ويحصل به من مرضاته على الفخر البعيد المنال. فإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم من الأعمال الصالحة أوفرها وأوفاها ، وحملكم من رضوانه على أقوم المسالك وأهداها. من حمراء غرناطة حرسها الله ، ولا زايد بفضل الله سبحانه ، ثم بما عندنا من المعرفة بمجدكم الذي أقل الملك بنيانه ورفع شأنه ، إلا مايرجى من عوائد الله الجميلة وصنائعه الكفيلة ، وسننه الجزيلة ، وجانب أخوتكم موفى حقه من التعظيم الذي يجب لمجده العالي وحسبه الصميم ، وأصالته المعضود حديثها بالقديم ، المتناسق فخرها تناسق العقد النظيم. وإلى هذا أنجح الله في مرضاته أعمالكم ، وعرفكم من عوارف رضوانه ، مايتكفل بنيل الحسنى لكم. فموجبه إليكم أن هذه الجزيرة الأندلسية ، من لدن أذن الله في افتتاحها بسيوف هذه الأمة الكريمة ورماحها ، وأطلع في آفاق القصية لهذه الأمة المحمدية ، نور صباحها ، حتى تبوأها الإسلام داراً ، وحمد فيها استقراراً ، وملأ هضابها ووهادها أنواراً ، وأوسع فيها من دعا مع الله آلها آخر هواناً وصغارا ، لم تزل أيدى من بها المسلمين ، بإخوانهم من أهل تلك العدوة حرسها الله معقودة ، وأكفهم إلى التماس إعانتهم ممدودة وآمالهم إلى مصارختهم مصروفة ، وعلى إمدادهم موقوفة.

فهي تستروح من تلقائهم نسيم الفرج عند الشدائد ، وتلتمس منهم جميل العوائد وملوك الإسلام بتلك العدوة ، قدس الله أسرارهم ، وضاعف أنوارهم ، تنافس في نصرها هممهم ، وتطمح إلى إحراز الفخر بإعانتها شيمهم ، ويتراهن في ميدانها بأسهم وكرمهم ، حتى دونوا فيها المفاخر الباقية ، والأعمال الراقية ، والصنائع الشهيرة ، والوقائع الكبيرة ، يتوارث ذلك الآتي عن الذاهب ، ويقوم منها الحاضر بحق الغائب ، غضباً للدين الحنيف ، وحمية للملك الأصيل والحسب المنيف ، وغيرةً على الحريم ، وأنفة للخلق الكريم ، وامتعاضا لكلمة التوحيد وشفقة للقطر الغريب الوحيد ، بين البحار الزاخرة ، والأمم الكافرة والمرام البعيد . ولما صير الله ملك العدوة إلى سلفكم الأرضى ، وجدد الله عليهم ملابس رضوانه وقبوله ، وجزاهم بما أسلفوه من مرضاته ومرضاة رسوله ، أنسبوا بعزائمهم الراضية [ذكر الملوك الماضية] وعمروا بمكارمهم العالية مفاخر الأمم الخالية ، وصار إلى نظرهم جملة من بلادها مثل الجبل

ورندة ومربلة وما إلى ذلك ، حرسها الله ، ليكون محط رحال المدد ، ومستقر مايجيزونه من الفرسان والعدد. فقر جنابها ، وقويت أسبابها ، وأعدّوا لغزوهم ركاباً ، ولجاهدهم الأرضى باباً ، وعاملوا الله فيها على الصفقة الرابحة والأعمال الباقية الصالحة فكان من عزم السلطان المجاهد الأرضى ، جدكم الأعلى ، ماهو معلوم ، وفي صحف الفخر مرسوم ، من اقتحامه لجج البحار الطامية ، وثبج الأمواج المترامية ، وجهاد الأمم الباغية ، وفل الجيوش الطاغية ، حتى عز الإسلام بمضا حسامه ، وسعدت الملة المحمدية بسعادة أيامه. ثم سلك ولده جدكم السلطان المعظم أبو سعيد رحمه الله سبيله ، وآتبع دليله ، فجهز إلى نصرها جيوشه المنصورة وأساطيله ، وسرب إليها ماله الجم وقبيله حتى علم أعداؤها أن لها ناصراً عزيز الأنصار ، وملجأ منيع الجوار. ثم تلاه والدكم محل أبينا السلطان المعظم أبو الحسن ، فجاهد عدو الله فيها حق جهاده ، وشهد البر والبحر بصدق جلاده ، وسمح فيها بنفسه النفسية وأمواله العظيمة وأولاده ، وعامل الله على الصفقة الرابحة التي يجدها في معاده ، ولم يضل التمحيص فيها عزمه الأمضى ، ولا كفّ جهداه الارضى ، فاستولى على غايات الفخر وآماده ، بما هو معلوم بين عباده الله وبلاده ، وبينما نحن ننتظرمن مقامكم الذي هو سلالة ذلك المجد الصراح ولباب ذلك الحسب الوضاح ، وفرع ذلك الفضل المتألق تألق الصباح ، ماعود أسلافكم من الإصراخ والإسجاح ، والأعمال الكريمة الاختتام والافتتاح ، وأن تسلكوا مسلكهم في نصرها وإمداد وحماية بلادها ، وتثابروا على تخليد الفخر وإحراز مرضاة الله التي هي أنفع الذخر ، حتى ينشرح بكم صدر الإسلام ، وتربى أيامكم فيها على غيرها من الأيام ، فمثلكم من يجرى على أعراقه الكريمة جرى الجياد العتاق ، وينافس في الأعمال التي تتكفل بالثناء الخالد والعز الباق ، إذ تعرفنا أن ملك قشتالة ، قد طمع في تلك البلاد المذكورة وكلب عليها ، وحشد قومه إليها ، وأعلق بها أطماعه ، وحرك لها أشياعه وأتباعه وإن آماله بها حائمة ، والحركة إليها في أرضه قائمة ، فإن من بها من الحماة وذوي المرتبات قد اختلت أحولهم ، بسبب ما تأخر من واجبتهم وتعذر في هذه المدة الطويلة من مرتباتهم ، فتبدد الكثير من عددهم ، وضاع ماتوفر على الأيام من أسلحتهم ، وعددهم ، واشتد الإشفاق على تلك

البلاد المسلمة أن يعالجها هذا العدد بانتهاز فرصة ، ويجرع العباد والبلاد بالله أفظع غصة ، ويهتبل الغرة في بعض معاقلها المنيعة ، ومصانعها التي اعتمدتها أسلافكم بحسن الصنيعة ، ويطغى نور الله في آفاقها ، ويستبيح حماها ، واستمساكها بذلك الملك واعتلاقها. فخاطبناكم بهذا الكتاب ، نشرح لكم أحوالها ، ونطلب من نظركم لها من يمهد خلالها ، وييسير آمالها ، وإن ظهر لكم أن تبادروا بشيء من المال ، الذي غناؤه فيها في الوقت كبير ، وقليل مايرد في تلك الجهة كثير تبقون به حركة العدو إليها ، وتقدّمونه مدداً بين يديها ، فذلك ما لا ينكر على حسبكم الرفيع الأصالة ، الشهير الجلالة ، فلم تدّخر الأموال لأهم من هذا الغرض ، ولا وضعت في أولى من هذا الواجب المفترض. وإذا تعرف العدو أن غايتكم بها موصولة ، ومكارمكم فيها مبذولة ، كذبت مساعيه ، وخاب بحول الله أمله الذي يرتجيه. وهذه البلاد الأندلسية عصمها الله ووقاها ، وحفظ بها كلمة الإسلام وأبقاها ، هي عدة لأسلافكم الكرام إلى معادهم ، ومتجر حسناتهم وركاب جهادهم ، وصحيفة أعمالهم الزكية ، ومنصّة آثارهم الملوكية ، لم يزل بعزائمهم استعدادها ، ومن مكارمهم استمدادها ، وأنتم صميم ذلك المجد الذي تعودت إعانته ونصره ، وعرفت من عوارفه ، مالا يطاق حصره ، وأولى من يحقق ظنونها ، ويشرح صدورها ، ويقر عيونها. وقد وجهنا إلى جبل الفتح مدداً من الرماة ، وشرعنا في اتباعهم بجملة من الرجال الرامحة الحماة ، يقيمون لنظر من به بخلال ماتنبلج الاخبار. ويظهر مايبرزه الليل والنهار ، وعرضنا عليكم هذا القصد ، الذي مازال سلفكم رضي الله عنه ، عليه يثابرون ، وبمزيته على الملوك يفتخرون ، ومرضاة الله سبحانه ، بمبادرته يبتدرون ، وأنتم تعملون في ذلك إن شاء الله ما يليق ، بمجدكم الأصيل ، وحسبكم الأثيل ، حملكم الله على مايكون لكم فيه الذكر الحميد ، والقصد السديد ، والعناية الإلهية التي لا تبيد. وهو سبحانه [يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم] ، والسلام الكريم عليكم ورحمة الله وبركاته. وكتب في الثالث عشر لمحرم من عام خمسين وسبعمائة.

1) ابن الخطيب : ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ج 1 ص 359

قال ابن عاصم في خاتمة الصورة الثالثة من كتابه : (1)

كانت خزانة هذه الدار النصرية ، مشتملة على كل نفيسة من الياقوت ، ويتيمة من الجوهر ، وفريدة من الزمرد ، وثمينة من الفيروزج ، وعلى كل واق من الدُّروع ، وحامٍ من العدة ، وماض من الأسلحة ، وفاخر من الآلة ، ونادر من الأمتعة ، فمن عقود فذة ، وسلوك جمة ، وأقراط تفضل على قرطى مارية ، نفاسة فائقة ، وحسناً رائقاً ، ومن سيوف شواذٌ في الإبداع، غرائب في الإعجاب ، منسوبات الصفائح في الطبع ، خالصة الحلي من التبر ؛ ومن دورع مقدرة السرد ، متلاحمة النسيج ، واقية للبأس في يوم الحرب ، مشهورة النِّسبة إلى داود نبي الله ؛ ومن جواشن سابغة اللُّبسة ، ذهبيَّة الحلية هندية الضَّرب ، ديباجيَّة الثوب ؛ ومن بيضات عسجدية الطوف ، جوهرية التنضيد ، زبرجدية التقسيم ، ياقوتية المركز ؛ ومن مناطق لجينية الصوغ ، عريضة الشكل ، مزججة الصُّنع ؛ ومن درق لمطية ، مصمته المسام ، لينة المجسة ، معروفة المنعة ، صافية الأديم ؛ ومن قسى ناصعة الصِّبغة ، هلالية الخلقة ، منعطفة الجوانب ، زارية بالحواجب ، إلا آلات فاخرة ، من أتوار نحاسية ، ومناور بلورية ، وطيافير دمشقية وسبحات زجاجية ، وصحاف صينية ، وأكواب عراقية ، وأقداح طباشيريه ، وسوى ذلك مما لايحيط به الوصف ، ولا يستوفيه العد ؛ وكل ذلك ألهبه شواظ الفتنة ، والتقمه تيار الخلاف والفرقة ؛ فرزئت الدار منه بما يتعذر إتيان الدهور بمثله ، وتقصر ديار الملوك المؤثلة النعمة عن بعضه فضلا عن كله.

جنة الرضى في التسليم لما قدر الله وقضى لوحة 124

حـالـة غرنـاطـة

في عهد السلطان أبي سعيد البرميخو المغتصب (1)

وبلغت الأندلس لهذا العهد من خمول الأمر واختلال السيرة وتشغيب الحامية التي لافوقها ، فحضر مدعى وليمة الدائل بها لأول ولايته ، رجل الدِّبا ، فالتهم الخلا والكلا ، وأعدم بإعدام الغلة أسباب الرخا ، وفتح أبواب البلا ، ومَوه لأول أمره ببث النَّهى عن المنكر الذي هو جرثومته العظمى ، وتصاريفه غايته القصوى ، وسمح ببعض المكوس فأعطى قليلا ثم أكدى ، ولم تمر الأيام إلا وقد عاد في قيئه وأضاف الرعايا بشؤمه وكلفهم ارتباط الأفراس بعد اغرامهم أرزاق جنده ، وإنزال دورهم بغرباء ديوانه ، وانحط في مهاوى الشمات برتبة الأمر ، وأنقض من منصب الملك فقعد للعرض وقد حشر الناس ضحى في موقف أجلس معه بسريره بعض السوق عاري الرأس ، مثلة من مثل الخلق ، غير مقصر في مخاطبة من مر به عن غاية الإفحاش والتبجح بمعرفة الهنات ، فلقد حدث صاحب شرطته ، وهو لا بأس به ، قال أطرَيته باجتناب الناس الخمر في أيامه ، وتحت استداده ، وطهارة بلده من قاذوراتها ، فقال لي في الملأ المشهود ، والحشيش كيف حالها ؟ قلت ماعثرت على شيء منه. فقال هيهات ، انزل إلى بيت فلان وفلان وفلان ، وعدَّ كثيرا من الساسة والأوغاد والصفاعين ، رسم مكامنهم وينسبهم نسبة الأصمعي أفخاذ العرب وبطونها ، ويصف الناصح والغاش منهم بصفته ، وربما دعا بعض مشيختهم بالعمومة. قال وانصرف إلى ماذكر فو الله ماأخطأت شيئا مما رسمه ، ولا فقدت شيئا مما ذكره لغشيانه بيوتهم وانخراطه في جملة منتابهم ، يقول فهو والله أستاذى في الشرطة ! وساءت محاولته طاغية الروم فتمرس به وآثر الحران في معتاد أغراضه لفساد مابينه وبين عدو برشلونه وأعطاه الضمة. فعند فراغه من صلاح ذات بينهما ، فغر عليه فاه ، وشمر لمطالبته. وخَشُنَ ما بينه وبين الملك المريني فئة الإسلام التي إليها تحيز لاغتراره بمن في اعتقاله من قرابته المغرى بهم لسان الإرجاف. فرجعت الرسل من قبله خيب اللبانات من بابه ، مودعةً من نجوى المسلمين واستعداد الصالحين ما يوجب الاهتزاز ويحرك الامتعاض ، ناقلة من غريب شكله في كثرة التفاته ، وجفاف ريقه ، وعرى رأسه ، وتشمير ذراعه ، وسخافة عقله ، غرائب

تُؤنّسُ بها الأسمار وتُوَشّحُ الفكاهات.

وألحّ سلطان قشتالة في تسليم السلطان أبي عبد الله إليه ليتولى شد أزره ويجتهد في جبر حاله ، وألقيت إليه المعاذير فنبا عنها سمعه ، ورقّق ـ عن غرضه ـ في رفع السلم عند إخفاق مطلبه ، ولم يقبل العوض من ضروب ملاطفته ، فترجح الرأي على توجيهه إلى الأندلس.

وقد كان الاسطول تألف بفرضة المجاز من سبتة موريا بجهاد من ظهر به من عدو برشلونة. ووصلت أساطيل الروم المسخرة في غرض إجازته قد أركبها ملك النصارى وجوه خدامه ، فقعد السلطان أمير المسلمين بالمغرب في قبة العرض المتخذة بجنة المصارةُ ، ووقع البريح ببروز الناس إلى الفضاء الأفيح ، واستُحْضِرَتُ البنود والطبول وأوعية المال صبيحة يوم السبت السابع عشر من شهر شوال من عام التاريخ.

واستحضر السلطان فصعد إلى القبة ثم نزل وقد ألبس خلعة الملك ، وقيدت له فرس شقراء مطهّمَة ، حليها ذهب بحت ، ونشرت حوله الأولية ، وقرعت الطبول وركب السلطان مشَيِّعا إياه غلوة ، ثم انصرف عنه وقد التف عليه كلُّ من جلى عن الأندلس من لدن الكائنة الواقعة بها في جملة كثيفة ، وبلى من رقة الناس وإجهاشهم وعُلو أصواتهم بالدعاء ماقدم به العهد ، إذ كان مظنة ذلك سكونا وعفافا وقربا قد ظلله الله برواق الرحمة ، وعطف عليه وشائج المحبة إلى كونه مظلوم العهد منتزع الحق ، فتبعته الخواطر ، وحميت له الأنفاس والله يعرفه عوارف عنايته ، ويلحظه بعين رحمته. واستدعى عقب انصرافه الأمير المعين شجاً في نحر عدو الدولة المرينية على هذا العهد أبو زيان محمد بن عثمان بن عبيد الرحمان بن يحيى بن يغمرا سن ابن زيان ، فأجرى على الرسم من البنود والطبول والخلع وأتبع من بالباب السلطاني من قبيله ، فاضطرب المحلة بخولان من وشط وادي سبو ، ورفل الملك المريني في هذا اليوم الأغر في حلة عز تندى جدّةً وفخراً مذخورا ليومه طار شهرة ، والله المسئول في تمام النعم وتحسين العواقب لا إله إلا هو.

---

1) ابن الخطيب : نفاضة الجراب 2 / 183

احتفال الغني بالله بالـمولد النبوي (1)

لعام 764 هـ / 1363 م

وفي شهر ربيع الأول من عام أربعة وستين وسبعمائة استدعى السلطان الناس إلى بنيته الضخمة ، سمر الركاب ، وحديث الرفاق ، وحجة الهمة ، وفذلكة الحسن ، التي ابتدعها لحين ولايته الثانية ، هذه المنقذه من البأساء ، الفاتحة بالقبول أبواب السماء، واتخذها مجلسا عاما ، وإيوانا للمشورة جامعا ، فأغرى بها نفس الملك، وخاطر التهمم وأطاع داعي التوسع ، وتجاوز الغايات ، إذ عمد إلى المشور القديم أثر سلفه ، فصيره دكًا ، واستضاف إليه ما جاوره تبحرا ، فأقام بشرفه مجلس القعود ومنتصب سرير الإمارة ، ومفترس أريكة الملك والتحية على سرير الإمارة ، أعباء الأحوال التي تطمح إليها قدر الخلفاء جفاء ورحبا وزليجا وعمدا ونقشا وزخرفا ، ورفع مكانها عن أرض الإيوان فوق القامة ، تطل عليه منها القسى المزخرفة ، قائمة فوق عمد المرمر المخروط طولا يعيى الخطو، ويتعب الذرع ، تحته أدراج ثلاثة ، قد غطى كل ذلك اللبن المغشي بالزجاج الملون بين قائم وقعيد ، ومشترك ومفصول وأقلت سقف القبة العليا عمد أربع كأنما فردن من أديم الصباح ، أخذها على بدانتها الخرط ، فترك بها من الأسورة والتحازيز ما يبهت العين ويذهل الفكر ، قامت على أربعها قبة سامية على سائر المسقف ، قد منطقها بحر الزجاج ، عديم الفياصل ، "عبرة لأولي الأبصار" ودارت به المسقفات أخذة نهاية الاحتفال خشبها ، بالغة أقصى المبالغ سموكها ، تناظر منها مسقفان ضخمان قبلة وجوفا ، قد برزا في الشكل المخمس وتفننت فيهما الصنائع ، وتعددت الأشكال والفحوص ، ولطفت النقوش ، وتناسبت الأصباغ ، وماج بحر الزليج في جيمع حيطانها ، يعلو محصور خواتمه طرة نقش بها منظوم يجمع فصول السياسة قد علت حروفه ورق الذهب الإبريز ، وتراكم خلالها سحيق اللازورد وغشيت الأبواب المفضية إلى دهليز القصر والدويرة المنسوبة لخزانة الطيب ومدخل القبة المعينة للجمهور وقبة خزانة العطاء على ضخامة الألواح وعراضة المصاريع بالصفح المصقول المخطوط ، صنائع يفصل بين حدودها قضيب الشبه المموه بالنضار ومسماره ،

وامتد بين يدي هذه القبة منخفضا تلثي القامة الدار القوراء المخصوصة بإسم المشور الخاص ، إيوان فخم تساير فيه العين ، حيث البساطة والسذاجة ، والانفساح والضياء ، يقابل مدخلها القبة الموصوفة مفضيا إلى المشور الثاني ، وقد حف بهذا الإيوان المسقف الطويل المذكور بلاط أبي الوليد القائم على عمد المرمر المخروط ، مائلة كأعناق الغيد ، تقل من تيجان القسي كل بديع ، وفي المسقف عن يسار الداخل البهو المطل على البلد ، المحدق إلى ماوراءه من مراصد البيات وحدود الثغور ، المصغي سمع محتله إلى أهزاز المياه المنحدرة عن فيوض برك القلعة ، ولغط الخلق كدوي الدبر في بيوتهم دويها ، وبهذا البهو كان مثول السلطان يوم الكائنة ، فاختص هذا المكان بمزية الظهور ، وخصوصية الطائلة ، وأفرغ عليه لقب النصر ، ومثل بوسط هذا القصر الفسح الأقطار الصهريج الغريب الشكل ، المقدرة أضلاعه قطعا من دوائر ، تصب فيه ميازيب الخصص الرحيبة ، المربية أقطارها على القامة الإنسانية ، وأسود النحاس من المموهة الموهمة إحكاما وأجراما أشبال الحيوان تناسب عن العباب المتدراك ، ويفضي المدخل إلى المشور الثاني المنحط عن شكل الأول وذرعه ، المشتمل على السقائف والميضات ، ومقاعد الكتبة وقبة العرض ، واستجلاء الرقاع ، ومباشرة المتظلمين ، والمثول لتحية العامة ، المفضي بابه إلى الطريق المجاور إلى المسجد العتيق ، خلف الزخرف أثر السلطان أبي الوليد رحمه الله عليه.

فأقام ليلتئذ بهذا المصنع ، المنقطع القرين في معمور الأرض على حياله من توسط الإحكام إياه بنية المولد الكريم ولما يكمل أوله فضلا عن تاليه ، فرفع وسطه بالهندام الهائل ، المسخر في مهرة الملاحين ورؤساء البحريين ، متناء الأصل عن الذؤابة ، بعيد مهوى الورقة الساقطة ، ممتازا بحسن الشكل ، ساميا في الجو كالصعدة إملاسا واستقامة ، ولم يرض بعده في الهواء حتى أضيف إليه مثله لاءم بينهما الإحكام شدا ودسراً ، ورفع بأعلاه السقف المرفوع و"الظل المدود" ، الخباء الشهير المنسوب اتخاذه لهمم السلف من هذا البيت ، يسع كنه ، وتعم طنبه الجمع المشهود ، واللفيف المحشود ، والبيض والسود ، المحملة أجزاؤه الظهور الغزيرة من

دواب البحر ، المؤلف بعضها إلى البعض بعرى الحديد التي لا تنتهي القدر البشرية إلى ماوراءه ، الجامع من الرقوم والأوراق والأصباغ ما لا تتعاطاه البطاح إذا حلت أوكيتها السحاب الدكن ، وحنت عليها الغمائم الوطف ، ولا الرياض حلاها الحزن ودبجها المزن ، ومن الجدل الفارة ثعابينها إلى أقاصي المطارح وغايات المراسي والمساحب كل قوي متين ، وثعبان مبين ، ومن الجلود المخروزة بخيوط الحرير واللجين على الأشكال المتعددات ، الطاعن في نحر الجو بالجامور الهائل والتاج الفخم ، المتعدد القسي والتفافيح والتفاريع ، المرسل الهيدب ، الفلكي النطاق ، الأفعي الذيل ، المتناسب الأكر ، المغير ذوائب المآذن الشهيرة ، وصوارى المراكب مدن البحار الزاخرة ، فعلت أذياله سماء الإيوان على تباعد أقطاره ، فجاء عبرة الأبصار ، وخبرا باقيا على الأعصار ، وعم أرض القبة العليا بالفرش الرفيعة ، قد علتها أريكة الملك ، لابسة زي التجلة ، موثرة شعار الوقار بياضا وخصوصية ، وجللت أرض المشور جمعاء الحصر النظيفة والأنظار العجيبة ، ولزقت بحيطانه منها الأستار البديعة اللطيفة ، ودارت بالبركة الصخرية من حسك البلور والشبه ما تقصر عنه ديار الملك وخزائن الخلائف ، وتخللت الساحة العريضة أجرام المنار الرحيبة الأقطار السامية العمد ، الفيلية الأرجل ، المتعددة الأقراط ، أشجار عادية ، وأجرام نحاسية عكف الصناع على إيلاف أعضائها أياما ، فجاءت موثرة للبهت ، مبلدة للفكر ، وأجرام من الحسك بين الشكل الأقور والمخروط ، مقاعد للشمع ومنابر لجذوع الموم ، إلا مالا يحصى من الأنوار والمشاكي وأوعية المشاعل وجلال الشمع وخشاشه ، بحسب الأماكن والشوكات والتفاريع ، وانطلقت على تلك العمد الشمعية وجذوع بناء النخل أيدي سدنة بيوت الله عند غروب القرص ، فأشعلت ذوائبها بالنار ، فأزهر الدوح الأشب ، وراق المرأى المعجب.

ولما اجتمع الناس ، وماج من دون الأبواب البحر ، وكاد يرديهم على انفساح المدى الضغط ، برز السلطان في خاصته فاقتعد أريكة الملك مغريا بتلك الأوضاع حسن نظره ، ومتخير ترتيبه ، ثم أذن للناس على طبقاتهم ، فاستقروا عن تزاحم وتدافع وعلاج أنساهم

مضضه التعجب من هول ما أفضوا إليه ، يغشون كرسي الملك مطرين ومحيين ، فيسعهم بشره ، ويشملهم بالجميل وحسن المقارضة رده ، ويبهت أبصارهم شكله، ويبهرهم رواؤه لمكان تاج العمة التي أصار إليها زي الملك بالأندلس ، وكان غفلا منها قبله ، ونباهة الجلسة التي عينتها همته ثم أقيمت الصلاة جامعة ، وعند الفراغ أحكم الخدمة والعرفاء ونبهاء المماليك ترتيب الناس ، فكان بمحل الغرفة من مجلس السلطان شيوخ القبائل ، والأشراف بنو الفواطم ، ونسباء الملوك ، وأهل العلم ، وبين يديه الصوفية والفقراء فيما انخفض بين يدي جلسته من المشور الخاص وهم لهذا العهد كثير عددهم من المتسببه والمتجردين ، وأرباب الخرق المسافرين ، والأعجام الواريدن ، ويتلوهم التجار وقد جمع هذا العهد منهم المئين فيهم العدد من المشارقة والتونسيين وغص المشهد الرحب بسائر الطبقات ، وعيون الرعية قد ألبسوا أثواب الزينة ، واختالوا في فاخر الكسوة ، ثم كان الرسم من الشروع في ذكر الله ، والإنصاب أعشار القرآن وبالغ الوعظ ، ثم اندفاع الأغاني وزفير اليراع الأجوف ، وطاف على الناس النبهاء من وجوه الخدام والمماليك الروقة قد تمنطقوا فوق الأقبية الديباجية ، وبرزوا في زي الانشمار ، على رؤوسهم أفلاك الموائد الخشبية الفسيحة الأقطار ، المتلاعبة بالأفكار ، في مجال الاعتبار ، بما تنتهي إليه أجرام الأشجار ، مائلة في حلل الرقوم البديعة ، والنقوش الغربية ، بعد تعميم الناس بالوضوء في الأواني الكريمة السنح المهاة الصقل ، الموهمة سحانها مرأى الذهب البحت ، قد أقلت جواريها المنشآت وأجواؤها الخرقة من أصناف الطعام ماشكت جوره مسارح البهم وبيادر الدواجن ودنان الدهن وقناني المرى وأوعية الخل ومخازز العبير والتابل وكور النحل ، قد تفنن فيها العلاج شيا وقلوا وتكبيبا وحشوا في مصران الحوايا وتحميصا وتريبيا باللبوب والبزور ، وحلوى وجوارشات ، ودارت فوقها من قرص خبز الحوارى بدور لم يشنها المحاق ، وطرق تتهاداها الرفاق ، تعد ذلك حتى ذلك إذا أعيا العد وحير الفكر ، وأوجب البهت بذي العلية المستاثرة بالدنو من الأريكة فثملوا من نخب ذلك المطعوم ، ثم تلاهم التجار والغرباء تحفيا وسروا وإيثارا واعراقا في نسب المروة ، ثم استتبع جميع الأصناف ، ثم نقر عن الزوايا والليات والمنعرجات والدهاليز والمراصد والأبواب ، فعم البر ، وشمل الرزق ، ولم يكد

المدى يبعد حتى أطل ركاب تال يحمل من موائد اللطف والفواكه الليبسة المزاج عجمها ونواها وأعالي قشورها والكعك البديع والتفاح الحلو في أوعية وأطباق خشبية رومية ، مما يطرف بها تجار "جنوة" وما يصاقبها من الجزائر الروميات ، ملبسة بالورق الذهبية ، مرصعة بالزجاج المرسوم فيه صور الحيوان والأشجار ، عبرة للأبصار ، قد تراكم بها الفانذ الرفيع الذي قصر عنه قريع الطبرزدين محشو باللباب ، وموحى إليه بقوى الأفاوية الهندية ، والهاضومات الطبية. وعند انصرام الظلام والفراغ من الصلاة طلعت مع الصباح هوادج الجفان الجوف أخدان التذهيب والتمويه ، مشتملة على البحر من طعام الثرد وغذاء الريق ، فكان الحال في طعام هذا المدعى وأوانيه منقطعة على المثل ، مغربة في بعد الشأو.

وتقدم السلطان بثقوب فهمه ، ولطف حسه ، وأصيل إدراكه ، وصحة خياله ، إلى اتخاذ آلة تخبر بمضى ساعات الليل ، فأنشىء ليلتئذ بإشارته مكنان غريب خشبي أجوف ، في مثل القامة ، صير منه شكل الاستدارة إلى ذي جهات اثنتي عشر ، في أعلى كل جهة منها محراب ، قد شمل الجميع الصبغ والتزيين واستقل برأس الشكل شمعة موقدة ، قسم جرمها أجزاء بانقسام ساعات الليل ، وأخرج من عند كل خط يقسم جسدها ، ويعين الساعة فيها سبب من الكتان يتصل برأس غلق المحراب الظاهر فيمنعه من الهوى والنزول ، وفوق محدب المحراب خرت محكم يفضي إلى شكل سدى يعترض مجراه قائم من الحديد مثبت في رأس الغلق الذي يسد المحراب ، وخلفة كرة من النحاس بندقية الشكل ، يمنعها ذلك القائم المعترض للمجرى من الإنحدار ، وخلف الغلق شكل يهدي رقعة منظومة تعرف بمضي الجزء من الليل ، فإذا استولت النار على الشمعة ، وبلغت إلى حد الساعة ، أحرقت السبب المتصل بما ذكر فانحدر الغلق ، وزال المانع عن سقوط الكرة فهوت واستقرت في بعض الصحون النحاسية المصونة ، المغراة بالشهرة ، وبرزت الرقعة فأوصلها القيم على ذاك المسمع فأنشدها.

أغرى التجريب بهذه الآلة ، على ماتقتضيه طبيعة نارها وفتيلها والهواء المحصورة في تجويفها ، فصح عملها ، واطرد صرقها ، وخفي قصدها ، وخف نقلها ، فكانت أخرى

حصياتها موقعة على نظم النداء بإذان الصبح ، من غير إخلاف وعد ، ولا إخلال بوقت ، فجاءت طرازا على حلة الصنيع الفخم. وأتي ذكر ما أنشد بجرائها من المنظوم عند ذكر الإنشاد ـ بحول الله ..

وعند انقضاء ذلك عظم لجب الذكر ، وتجاوبت به الجهات ، وأداه صدى البناء الحديثة ، وساوق فيه المهرة اللفيف ، وحصل في النفوس الانفعال ، فابتذرت حيالها الخشوع والتصدع من خشية الله إلى أن غلبت المواجد ، ثم كانت الإفاقة ، واغمامت عند ذلك السماء بدخان العنبر الشحري ، فظللتهم غمامة ، ثم سكب ماء الورد شأب غصون الأنس ، حتى قطرت السبال ، واستنقعت الأذيال ، واندفع المزمزم كما تم الترتيب ، وهو المخصوص بالمداعى الملكية ، المتميز عهدئذ بمزية الإعراب وقراءة القريض المعروف بالحميني ، موصلي أهل جلدته بكل مطرب من الغناء ، وكلما مر بمعنى مشير للوجد لبته الصوفية والفقراء ، بين واجد ومتواجد ، يحدوهم مشيختهم فيحمى الوطيس ، ويتدارك الرقص ، ويغلب الوجد ، ويعلو الصراخ ، والمسمع يواصل القصائد المنظومة في مدح رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والإشادة بميلاده ، وذكر معجزاته ، ثم التخلص إلى مدح السلطان وذكر خلاله ، وإطراء تحفيه بهذه الدعوة ، جمه العد ليلتئذ ما يناهز ربع المئة مما يدل على عراقة هذا الصنع في العروبة ، ومحله من اللسان ، وكمون البلاغة بين أطلاله ، منهم المجيد ، والمتصف بما دون ذلك شأن أولي الصنائع ومعاطي المدركات .

1) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ج 3 ص 275 - 279

سقوط غرناطة (1)

وفي ثاني عشري جمادي الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدوّ بمحلاته إلى مرج غرناطة ، وأفسد الزرع ، ودوخ الأرض ، وهدم القرى ، وأمر ببناء موضع بالسور والحفير ، وأحكم بناءه ، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف فإذا به صرف الهمة إلى الحصار والإقامة

وصار يضيق على غرناطة كل يوم ، ودام القتال سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين ، غير أن النصارى على بعد ، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير ، إلى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وقطع الجالب ، وقل الطعام ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، واستولى العدوّ على أكثر الأماكن خارج البلد ، ومنع المسلمين من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال ، وعظم الخطب ، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات. ثم اشتد الأمر في شهر من السنة ، وقل الطعام ، ثم تفاقم الخطب ، فاجتمع ناس مع من يشار إليه من أهل العلم ، وقالوا انظروا في أنفسكم وتكلموا مع سلطانكم ، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا في هذا المعنى ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ، ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يقلع عنا في فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبنى وأسس ، وأقام ، وقرب منا ، فانظروا لأنفسكم وأولادكم ، فاتفق الرأي على ارتكاب أخف الضررين ، وشاع أن الكلام وقع بين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفاً على نفوسهم وعلى الناس ، ثم عددوا مطالب وشروطاً أرادوها ، وزادوا أشياء على ماكان في صلح وادي آش : منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون ، ويحلف على عادة النصارى في العهود ، وتكلم الناس في ذلك ، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتنّ عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر ، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة ، فانقدوا إليها ، ووافقوا عليها ، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة ، فقبلها منهم ، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء.

وفي ثاني ربيع الأول من السنة ـ أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة ـ استولى النصارى على الحمراء، ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهناً خوف الغدر ، وكانت الشروط سبعة وستين منها : تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم ، ومنهم إقامة شريعتهم على ماكانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك ، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحداً ، وأن لا يولى على المسلمين إلاّ مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم قبل ، وأن يفتكّ جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا ، وخصوصاً أعياناً نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه ، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه ، ومَنْ أراد الجواز للعدوة لا يمنع ، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم الا الكراء ، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء ، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياماً حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى ، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ماأراد ، ولا يعاتب على مَنْ قتل نصرانياً أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة ، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ولا يسفر لجهة من الجهات. ولا يزيدون على المغرم المعتاد ، وترفع عنهم المظالم والمغرم المحدثة ، ولا يطلع نصراني للسور ، ولا يتطلع على دور المسلمين. ولا يدخل مسجداً من مساجدهم. ويسير المسلم في بلاد النصارى آمناً في نفسه وماله ، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن ، ولايمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه ، ومن ضحك منه يعاقب ، ويتركون من المغارم سنين معلومة ، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده ، وأمثال هذا مما تركنا ذكره.

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائداً بالحمراء وحكاماً ومقدمين بالبلد ، ولما علم ذلك أهل البشرات دخلوا في هذا الصلح ، وشملهم حكمه على هذه الشروط ، ثم أمر العدو الكافر ببناء مايحتاج إليه في الحمراء وتحصينها ، وتجديد بناء

قصورها وإصلاح سورها ، وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهاراً ويبيت بمحلته ليلاً إلى أن اطمأن من خوف الغدر ، فدخل المدينة ، وتطوّف بها. وأحاط خبراً بما يرومه ، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرات وأنها تكون له وسكناه بأندرش ، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها ، ثم احتال في ارتحاله لبر العدوة ، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور ، فكتب لصاحب المرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من بر العدوة ، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له. فصرف في الحين بنص هذا الكتاب ، وركب البحر ، ونزل بمليلة ، واستوطن فاساً ، وكان قبل طلّب الجواز لناحية مراكش ، فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبر العدوة لقي شدة وغلاء ووباء.

ثم إن النصارى نكثوا العهد. ونقضوا الشروط عروة عروة ، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة ، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا : إن القسيسين كَتَبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهراً للكفر ، ففعلوا ذلك ، وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة. ثم تعدوا إلى أمر آخر. وهو أن يقولوا للرجل المسلم : إن جدك كان نصرانياً فأسلم فترجع نصرانياً. ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر ، قالوا : لأن الحكم خرج من السلطان أن مَنْ قام على الحاكم فليس إلا الموت إلاّ أن يتنصر فينجو من الموت. وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحاضرة. وامتنع قوم من التنصر. واعتزلوا الناس ، فلم ينفعهم ذلك. وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما ، فجمع لهم العدو الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبياً. إلا ما كان من جبل بللنقة فإن الله تعالى أعانهم على عدوهم ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة ، وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من مالهم دون الذخائر، ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث ، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً ولم يقيض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام

سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس ، وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومَنْ لا يخشى الله تعالى في الطرقات ، ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليلُ من هذه المعرة ، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها ، وكذلك بتطاوين وسلا ومتيجة الجزائر. ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً وسكنوا سلا كان منهم من الجهاد في البحر ماهو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والدور والحمامات وهم الآن بهذا الحال ، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام ، وهم لهذا العهد على ما وصف ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة هو أبو عبد الله محمد الذي انقرضت بدولته مملكته الإسلام بالأندلس ، ومحيت رسومها ، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغنى بالله ، واسطة عقدهم ، ومشيد مبانيهم الأنيقة ، وسلطان دولتهم على الحقيقة ، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس ، العائد منها لملكه في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس ، وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب ، وقد ذكرنا جملة من أخباره في غير هذا الموضع ، ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطره بمرج غرناطة ابن فرج [ابن إسماعيل] بن يوسف بن نصر بن قيس ، الأنصاري ، الخزرجي ، رحمهم الله تعالى جميعاً.

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى فاس بأهله وأولاده معتذراً عما أسلفه ، متلهفاً على ماخلفه ، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس ، رأيتها وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة ، ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة وخلّف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد وعقب هذا السلطان بفاس إلى الآن ، وعهدي بذريته بفاس سنة 1027 ، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين ، ويعدون جملة الشحاذين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

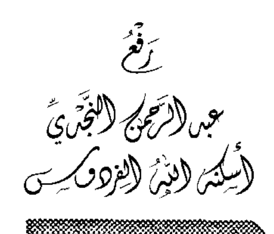
---

1) المقري : نفخ الطيب 4 / 524

القسم السادس

❀ ❀ ❀ ❀ ❀

العصر الموريسكي
إلى غاية الهجرة الكبرى



العصر الموريسكي

يتناول هذا القسم من النصوص الفترة الحاسمة من تاريخ الاندلس الاسلامية :

ـ ظروف وملابسات سقوط غرناطة.

ـ الهجرة الاندلسية إلى اقطار المغرب العربي وماترتب عن هذه الهجرة.

وهكذا اعطينا كنماذج الاطار النظري للهجرة من خلال ماأورده أحمد الونشريسي ، ومختلف المبررات التي يعطيها لوجوب الهجرة.

وفي القسم الثاني شهادة لاحد الاندلسيين الذين عاينوا سقوط غرناطة ، وكيف صور هذه النكسة.

وفي قسم آخر خصصناه لاقوال المورسكيين الذين هاجروا إلى المغرب ، حيث يصورون مأساتهم ومالقوه بأرض العدوة.

كما أوردنا مارواه ابن ابي دينار حول هذه الهجرة ، وكذا نماذج لما أحدثته هذه الهجرة من آثار اقتصادية واجتماعية.

نص رقم : 1

(أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر)

وكتب إليَّ الشيخ الفقيه المعظم الخطيب الفاضل القدوة الصالح البقية ، والجملة الفاضلة النقية ، العدل الأرضى أبو عبد الله بن قطية ، أدام الله سموه ورقيه ، بما نصه :

الحمد لله وحده. جوابكم ياسيدي رضي الله عنكم ومتع المسلمين بحياتكم في نازلة ، وهي أن قوماً من هؤلاء الأندلسيين الذين هاجروا من الأندلس وتركوا هناك الدور والأرضين والجنات والكرمات وغير ذلك من أنواع الأصول وبذلوا على ذلك زيادة كثيرة من ناض المال ، وخرجوا من تحت حكم الملة الكافرة وزعموا أنهم فروا الى الله سبحانه بأديانهم وأنفسهم وأهليهم وذرياتهم ومابقي بأيديهم أو أيدي بعضهم من الأموال ، واستقروا بحمد الله سبحانه بدار الاسلام تحت طاعة الله ورسوله وحكم الذمة المسلمة ندموا على الهجرة بعد حصولهم بدار الاسلام وسخطوا وزعموا أنهم وجدوا الحال عليهم ضيقة وأنهم لم يجدوا بدار الاسلام التي هي دار المغرب هذه صانها الله وحرس أوطانها ونصر سلطانها بالنسبة الى التسبب في طلب أنواع المعاش على الجملة رفقاً ولا يسراً ولا مرتفقاً ، ولا الى التصرف في الأقطار أمناً لائقاً ، وصرحوا في هذا المعنى بأنواع من قبيح الكلام الدال على ضعف دينهم وعدم صحة يقينهم في معتقدهم ، وأن هجرتهم لم تكن لله ورسوله كما زعموا ، وإنما كانت لدنيا يصيبونها عاجلا عند وصولهم جارية على وفق أهوائهم ،فلما لم يجدوها وفق أغراضهم صرحوا بذم دار الاسلام وشأنه ، وشتم الذي كان السبب لهم في هذه الهجرة وسبه ، وبمدح دار الكفر وأهله والندم على مفارقته ، وربما حفظ عن بعضهم أنه قال على جهة الانكار للهجرة الى دار الاسلام التي هي هذا الوطن صانه الله : إلى هاهنا يهاجر من هناك ، بل من هاهنا يجب الهجرة إلى هناك ! وعن آخر منهم أيضاً أنه قال : إن جاء صاحب قشتاله الى هذه النواحي نسير اليه فنطلب منه أن يردنا الى هناك يعني الى دار الكفر ، وعن بعضهم أيضاً أنهم يرومون إعمال الحيلة في الرجوع الى دار الكفر معاودة للدخول تحت الذمة الكافرة كيف أمكنهم ، فما الذي يلحقهم في ذلك

من الاثم ونقص رتبة الدين والجرحة ؟ وهل هم به مرتكبون المعصية التي كانوا فروا منها ان تمادوا على ذلك ولم يتوبوا ولم يرجعوا الى الله سبحانه منه ؟ وكيف من رجع منهم بعد الحصول في دار الاسلام الى دار الكفر والعياذ بالله ؟ هل يجب على من قامت عليه منهم بالتصريح بذلك أو بمعناه شهادة أدب ؟ أو لا حتى يتقدم اليهم فيه بالوعظ والانذار ؟ فمن تاب الى الله سبحانه ، ترك ورجي له قبول التوبة ، ومن تمادى عليه أدب ، أو يعرض عنهم ويترك كل واحد منهم وما اختاره ؟ فمن ثبته الله في دار الاسلام راضياً فله نيته وأجره على الله سبحانه ، ومن اختار الرجوع الى دار الكفر ومعاودة الذمة الكافرة فهو يذهب الى سخط الله ، ومن ذم دار الاسلام منهم تصريحاً أو معنى ترك وما عول عليه ؟ بينوا لنا حكم الله تعالى في ذلك كله ، وهل من شرط الهجرة ان لا يهاجر أحد الى دنيا مضمونة يصيبها عاجلا عند وصوله جارية على وفق غرضه حيث حل بلداً من نواحي الاسلام ؟ أوليس ذلك بشرط ؟ بل يجب عليهم الهجرة الى دار الكفر الى دار الاسلام ، الى حلو أو مر أو وسع أو ضيق أو عسر أو يسر بالنسبة الى أحوال الدنيا ، وإنما القصد بها سلامة الدين والأهل والولد مثلا ، والخروج من حكم الملة الكافرة الى حكم الملة المسلمة الى ما شاء الله من حلو أو مر أو ضيق عيش أو سعته ونحو ذلك من الأحوال الدنياوية ، بياناً شافيا ، مجردا مشروحا كافياً ، يأجركم سبحانه ، والسلام الكريم يعتمد مقامكم العلي ورحمة الله تعالى وبركاته.

فأجبته بما هذا نصه :

الحمد لله تعالى وحده ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد بعده.

الجواب عما سألتم عنه ، والله سبحانه ولي التوفيق بفضله ، أن الهجرة من أرض الكفر الى أرض الاسلام فريضة الى يوم القيامة ، وكذلك الهجرة من أرض الحرام والباطل بظلم أوفتنة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ. أخرجه البخاري والموطأ وأبو داوود والنسائي. وقد روى أشهب عن مالك : لا يقيم أحد في موضع يعمل فيه بغير الحق. قال في العارضة :

فإن قيل فإذا لم يوجد بلد إلا كذلك ؟ قلنا يختار المرء أقلها إثما ، مثل أن يكون بلد فيه كبر وبلد فيه جور خير منه ، أو بلد فيه عدل وحرام وبلد فيه جور وحلال خير منه للمقام ، أو بلد فيه معاص في حقوق الله فهو أولى من بلد فيه معاص في مظالم العباد. وهذا الأنموذج دليل على ما رواه. وقد قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فلان بالمدينة وفلان بمكة وفلان باليمن وفلان باليمن وفلان بالعراق وفلان بالشام امتلأت الأرض والله جوراً وظلماً انتهى. ولا يسقط هذه الهجرة الواجبة على هؤلاء الذين استولى الطاغية لعنه الله على معاقلهم وبلادهم الا تصور العجز عنها بكل وجه وحال ، لا الوطن والمال ، فإن ذلك كله ملغى في نظر الشرع قال الله تعالى : إلا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَالوِلْدانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً ولا يَهْتَدُونَ سَبِيلا فَأولَئِكَ عَسَى الله أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكانَ الله عَفُواً غَفُوراً. فهذا الاستضعاف المعفو عمن اتصف به غير الاستضعاف المعتذر به في أول الآية وصدرها وهو قول الظالمي أنفسهم كنّا مُسْتَضْعَفِينَ في الأرض ، فان الله تعالى لم يقبل قولهم في الاعتذار به ، فدل على أنهم كانوا قادرين على الهجرة من وجه ما ، وعفا عن الاستضعاف الذي لا يستطاع معه حيلة ولا يهتدى به سبيل بقوله فأولَئِكَ عسى الله أن يعفوا عنهم ، وعسى من الله واجبة. فالمستضعف المعاقب في صدر الآية هو القادر من وجه. والمستضعف المعفو عنه عجزها هو العاجز من كل وجه ، فإذا عجز المبتلى بهذه الاقامة عن الفرار بدينه ولم يستطع سبيلا اليه ولا ظهرت له حيلة ولا قدر عليها بوجه ولا حال ، أو كان بمثابة المقعد أو المأسور أو كان مريضاً جداً أو ضعيفاً جداً فحينئذ يرجى له العفو ويصير بمثابة المكره على التلفظ بالكفر ، ومع هذا لابد أن تكون له نية قائمة أنه لو قدر وتمكن لَهَاجر وعزم صادق مستصحب أنه ظفر بمكنة وقتاً مافيها هاجَرَ. وأما المستطيع بأي وجه كان وبأي حيلة تمكنت فهو غير معذور وظالم لنفسه إن أقام حسبما تضمنته الآيات والأحاديث الواردة قال الله تعالى : يَا أَيُّهَا الذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بالمَوَدَّةِ وقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِ الى قوله وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

وقال الله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البغضاء مِنْ أَفْوَاهِهِم وما تُخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الايَات إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. وَقال تعالى : لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكَافِرِين أولياء مِنْ دُون الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الله فِي شيء إلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاه وَيُحَذِّرُكُمْ الله نَفْسَهُ وَإِلَى الله الْمَصِير. وَقال تعالى : وَلا تَرْكَنُوا إِلى الذين ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّار وما لَكُمْ مِنْ دُوْنِ الله مِنْ أولياء ثُمَّ لَا تُنْصَرُوْنَ. وقال تعالى : بَشِّر الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً الَّذِين يَتَّخِذُون الكَافِرِين أَوْلِيَاء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ايبْتَغُونَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةَ فَإِن الْعِزَّةَ لله جَمِيعاً. الى قوله وَلَنْ يَجْعَلِ الله لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا. وقال تعالى : يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِين أَوْلِياء مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِين أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لله عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً.

وقال تعالى : ياأَيُّها الَّذين آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اليَهُودَ وَالنَّصَارى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْض وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ الله لا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِين. قال تعالى : يَاأَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ واتَّقُوا الله إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاة اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ. وقال تعالى : إِنَّمَا وَلِيُّكُمْ الله وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِين يُقِيمُونَ الصَّلَاة ويُوتُونَ الزَّكَاة وهُمْ راكعون وَمَنْ يَتَوَ لَّ الله وَالَّذِينَ آمَنُوا فإِنَ حِزْبَ الله هُمُ الغَالِبُونَ.

وقال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيهمُ المَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ في الأَرْض قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعَة فَتُهَاجِرُوا فيها فَأُولئِكَ مَأْوَيهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً إِلَّا الْمُسْتَضْعفِيْنَ مِنَ الرجَال وَالنسَاء وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً فَأُولَئِكَ عَسَى الله أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً. وقال تعالى : تَرى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الذين كَفَرُوا لَبِئْسَ مَاقَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ الله عَلَيهِمْ وفي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤمِنُونَ بالله والنبيء ومَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مااتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ. والظالمون أنفسهم في هذه الآية السابقة إنما هم تاركون للهجرة مع القدرة عليها حسبما تضمنه

قوله تعالى ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. فظلمهم أنفسهم إنما كان بتركها وهي الاقامة مع الكفار وتكثير سوادهم وقوله توفاهم الملائكة فيه التنبيه على أن الموبخ على ذلك والمعاقب عليه انما هو من مات مصراً على هذه الاقامة ، وأما من تاب عن ذلك وهاجر وأدركه الموت ولو بالطريق فتوفاه الملك خارجا عنهم فيرجى قبول توبة وان لا يموت ظالماً لنفسه ، ويدل على ذلك أيضا قول الله تعالى ومَنْ يَخرُجْ مِنَ بَيْتِهِ مُهَاجِراً الى الله وَرَسُوله الى قوله وكان الله غفوراً رحيماً .

فهذه الآيات القرآنية كلها أو أكثرها ماسوى قوله ترى كثيراً منهم الى آخرها نصوص في تحريم المولاة الكفرناية. وأما قوله تعالى : يَاأَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا لَا تَتَّخذوا اليهُود والنصَّارى أولِياء بَعْضُهُم أولِياء بعض ومَنْ يَتوَلّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنهُمْ إنَّ الله لا يهْدي القَوْمَ الظّالمِين ، فما أبقت متعلقاً الى التطرق لهذا التحريم. وكذا قوله تعالى : ياأيُّها الذين آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الّذين اتَخَذُوا دينَكُم هُزُؤاً ولَعِباً مِنَ الذين أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ والكُفارَ أوْلِيَاء واتقُوا الله إنْ كُنْتُم مُؤْمنين.

وتكرار الآيات في هذا المعنى وجريها على نسق وتيرة واحدة مؤكد للتحريم ورافع للاحتمال المتطرق اليه ، فإن المعنى اذا نص عليه وأكد بالتكرار فقد ارتفع الاحتمال لاشك ، فتتعاضد هذه النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والاجماعات القطعية على هذا النهي ، فلا تجد في تحريم هذه الاقامة وهذه الموالاة الكفرانية مخالفا من أهل القبلة المتمسكين بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، فهو تحريم مقطوع به من الدين كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وقتل النفس بغير حق وأخواته من الكليات الخمس التي أطبق أرباب الملل والأديان على تحريمها ، ومن خالف الآن في ذلك أورام الخلاف من المقيمين معهم والراكنين اليهم فجوز هذه الاقامة واستخف أمرها واستسهل حكمها فهو مارق من الدين ومفارق لجماعة المسلمين ومحجوج بما لا مدفع فيه لمسلم ومسبوق بالاجماع الذي لا سبيل الى مخالفته وخرق سبيله.

احمد بن يحيى الونشريسي ، المعيار المعرب ، 2 : 119 - 124

توقف المدد عن أهل غرناطة والكلام في الصلح

ومازال حال البلد يضعف ويقل من الطعام والرجال إلى أن دخل شهر المحرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة. ودخل فصل الشتاء والثلج نازل بالجبل ، وقطع الطريق من البشرة فقل الطعام عند ذلك في أسواق غرناطة ، واشتد الغلاء ، وأدرك الجوع كثيراً من الناس ، وكثر السؤال ، والعدو ساكن في بلده ومحلته ، وقد منع الفحص كله ، ومنع المسلمين من الحرث والزراعة ، وقطع الحرب في هذه المدة بين الفريقين ، فلما دخل شهر صفر من عام التاريخ اشتد الحال على الناس بالجوع وقلة الطعام وأدرك الجوع كثيراً من الناس الموسرين ، فاجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والأمناء والأشياخ والعرفاء ومن بقي من أنجاد الفرسان ومن له نظر بغرناطة وساروا الى أميرهم محمد بن علي فأعلموه بحال الناس وما هم عليه من ضعف وشدة الجوع وقلة الطعام ، وان بلدهم بلد كبير لا يقوم به طعام مجلوب ، فكيف ولم يجلب اليه شيء ، وان الطريق الذي كان يأتيهم عليه الطعام والفواكه من البشرة انقطع ، وان أنجاد فرسانهم هلكوا وفنوا ، ومن بقي أثخن بالجراحات ، وقد امتنع عنهم الطعام والزرع والحرث ، وان رجالهم هلكوا في تلك الملاحم ، واخواننا المسلمون من أهل عدوة الغرب لم يأتنا أحد منهم ، ولا عرج على نصرتنا واغاثتنا ، وعدونا قد بنى علينا وسكن معنا ، وهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفاً ، والمدد يأتيه من بلاده ، ونحن لا مدد لنا ، وهذا فصل الشتاء قد دخل ، ومحلة عدونا قد تفرقت وضعفت ، وهو قد قطع عنا الحرب ، وان تكلمنا معه الآن قبل منا وأعطانا كل مانطلب منه ، وان بقينا حتى يدخل فصل الربيع تجتمع عليه جيوشه مع مايلحقنا نحن من الضعف ، والقلة فلن يقبل منا مانطلبه منه ، ولا نأمن نحن على أنفسنا من الغلبة ، ولا على بلدنا فإنه هرب من بلدنا ناس كثير يدلونه على عوارتنا ، ويستعين بهم علينا. فقال الأمير محمد انظروا ما يظهر لكم وما تتفقون عليه من الرأي الذي فيه صلاحكم ،

فاتفق رأي الجميع من خاصة وعامة أن يبعثوا لملك الروم من يتكلم معه في أمرهم وأمر بلادهم ، وزعم كثير من الناس أن أمير غرناطة ووزيره وقواده كان تقدم وبين ملك الروم النازل عليهم الكلام في إعطاء البلد ، الا أنهم خافوا من العامة ، وكانوا يحتالون عليهم يلاطفونهم فحين أتوهم بما أضمروا عليه عفوهم من حينهم ، ولأجل ذلك قطع الحرب بينهم في تلك المدة المذكورة حتى وجدوا لذلك الكلام مسلكاً مع العامة ، فلما بعثوا لملك الروم بذلك وجدوه راغباً فيه ، فأنعم لهم بجميع ماطلبوا منه وما شرطوا عليه.

شروط الصلح

ومن جملة الشروط التي شرط أهل غرناطة على ملك الروم : يؤمنهم في أنفسهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم وجناتهم ومحارثهم وجميع ما بأيديهم ولا يغرمون الا الزكاة والعشر لمن أراد الاقامة ببلدة غرناطة ، ومن أراد الخروج منها يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من النصارى والمسلمين من غير غبن ، ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالغرب يبيع أصله ويحمل أمتعته ويحمله في مراكبه إلى أي أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شيء يلزمه لمدة من ثلاث سنين ، ومن أراد الاقامة من المسلمين بغرناطة فله الأمان على نحو ماذكر. وكتب لهم بذلك كتاباً وأخذوا عليه عهوداً ومواثيق في دينه مغلظة على أن يوفى بجميع ماشرطوه عليه.

صاحب قشتالة يدخل غرناطة

فلما تمت هذه العقود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة ، فلما سمعوا ما فيها اطمأنوا اليها وانقادوا لطاعته ، وكتبوا بيعتهم وأرسلوها لملك الروم صاحب قشتالة وسمحوا له في الدخول إلى مدينة الحمراء والى غرناطة ، فعند ذلك أمر أمير غرناطة محمد بن علي باخلاء مدينة الحمراء فأخليت دورها وقصورها ومنازهها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى ، لقبضها فلما كان اليوم الثاني لربيع الأول عام سبعة و تسعين وثمانمائة أقبل ملك الروم بجيوشه حتى

قرب من البلد ، وبعث جناحاً من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وأقام ببقية الجيوش خارج البلد لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد حين وقع بينهم الاتفاق على ماذكر رهوناً من أهل البلد ليطمئن بذلك ، فأعطوا خمسمائة رجل منهم وأقعدهم بمحلته ، فحينئذ قدم كما ذكرنا فلما اطمأن من أهل البلد ولم ير منهم غدراً ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير ، وبقي هو خارج البلد واشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك فيها قائداً من قواده ، وانصرف راجعاً الى محلته وبقي حينئذ يختلف بالدقيق والعارفات وأنواع الطعام والعدة وما يحتاج اليه ، وقدم في البلد قواداً وحكاماً وبوابين ، ومايحتاج البلد اليه من الأمور وصار المسلمون يختلفون الى المحلة للبيع والنصارى كذلك ، ولما سمع أهل البشرة أن أهل غرناطة دخلت تحت ذمة النصارى أرسلوا بيعتهم الى ملك النصارى ودخلوا في ذمته ولم يبق للمسلمين موضع بالأندلس فإنا لله وإنا اليه راجعون.

ثم أن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ومؤمنين في أموالهم وأنفسهم مكرمين ، وأقبل في جيوشه حين اطمأن فدخل مدينة الحمراء في بعض خواصه وبقي الجند خارج البلد ، وبقي يتنزه في الحمراء في القصور والمنازه المشيدة الى آخر النهار ، ثم خرج بجنوده وصار الى محلته فمن غد أخذ في بناء الحمراء وتشييدها وتحصينها واصلاح شأنها وفتح طرقها ، وهو مع ذلك يتردد الى الحمراء بالنهار ويرجع بالليل لمحلته فلم يزل كذلك الى أن اطمأنت نفسه من غدر المسلمين ، فحينئذ دخل البلد ودار فيه ، في نصر من قومه وحشمه ، فلما اطمأن في البلد سرح لهم الجواز وأتاهم بالمراكب إلى الساحل ، فصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره فكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة الواسعة المعتبرة بالثمن القليل ، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه وفدانه بأقل من ثمن الغلة التي كانت فيه ، فمنهم من اشتراه منه المسلمون الذين عزموا على الدجن ، ومنهم من اشتراه منه النصارى ، وكذلك جميع الحوائج والأمتعة ، وأمرهم بالمسير الى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى في البحر محترمين مكرمين مؤمنين.

وكان ملك الروم قد أظهر للمسلمين في هذه المدة العناية والاحترام حتى كان النصارى يغيرون منهم ويقولون لهم أنتم الآن عند ملكنا أعز وأكرم منا ، ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيداً ليقرهم بذلك وليثبطهم عن الجواز ، فوقع الطمع الكثير من الناس وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالاً رخيصة وأمتعة وعزموا على الجلوس مع النصارى.

الأمير أبي عبد الله في اندرش ثم جوازه الى العدوة

ثم إن ملك الروم أمر الأمير محمد بن علي بالانصراف من غرناطة الى قرية اندرش من قرى البشرة فارتحل الأمير محمد بعياله وحشمه وأمواله واتباعه ، فنزل قرية اندرش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ثم أن الطاغية ظهر له أن يصرف الأمير محمداً إلى العدوة ، فأمره بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة ، واجتمع معه خلق كثير ممن أراد الجواز ، فركب الأمير محمد ومن معه في تلك المراكب في عزة واحترام وكرامة مع النصارى وساروا في البحر حتى نزلوا مدينة مليلة من عدوة الغرب ، ثم ارتحل الى مدينة فاس حرسها الله ، وكان من قدر الله تعالى لما جاز الأمير محمد بن علي وصار بمدينة فاس أصاب الناس شدة عظيمة وغلاء وجوع وطاعون، واشتد الأمر بفاس حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر ، ورجع بعض ناس من الذين جازوا الى الأندلس ، فأخبروا بتلك الشدة فقصر الناس عن الجواز عند ذلك وعزموا على الاقامة والدجن ، ولم يجوز النصارى أحداً بعد ذلك الا بالكراء والمغرم وعشر المال.

اكراه المسلمين على التنصر

فلما رأى ملك الروم أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط التي شرطوا عليه أول مرة ، ولم يزل ينقضها فصلاً فصلاً الى أن نقض جميعها وزالت حرمة المسلمين وأدركهم الهوان والذلة ، واستطال عليهم النصارى ، وفرضت عليهم الفروضات ، وثقلت عليهم المغارم ، وقطع لهم الآذن من الصوامع ، وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة الى الأرباض والقرى ، فخرجوا أذلة صاغرين ، ثم بعد ذلك دعاهم

الى التنصر وأكرههم عليه ، وذلك سنة أربع وتسعمائة فدخلوا في دينهم كرهاً وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق فيها من يقول «لاإله إلا الله محمد رسول الله» الا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس ، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الاذان ، وفي مساجدها الصور والصلبان ، بعد ذكر الله وتلاوة القرآن ، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين ، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين ، ولم يقدروا على الهجرة واللحوق بإخوانهم المسلمين ، قلوبهم ناراً ، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً ، وينظرون أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان ، ويسجدون للأوثان ، ويأكلون الخنزير والميتات ، ويشربون الخمر التي هي أتم الخبائث والمنكرات ، فلا يقدرون على منعهم ، ولا على نهيهم ولا على زجرهم ، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب ، وعذب بأشد العذاب ، فيالها من فجعة ماأمرها ، ومصيبة ماأعظمها ، وطامة ما أكبرها ، عسى الله أن يجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً انه على كل شيء قدير.

ثورة المدجنين

وقد كان بعض أهل الأندلس امتنعوا من التنصر وأرادوا أن يدافعوا عن أنفسهم كأهل قرية ونجر والبشرة وأندرش وبلفيق فجميع عليهم ملك الروم جموعه وأحاط بهم من كل مكان حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم وأموالهم ، ونصرهم واستعبدهم ، الا أن ناساً في غربية الاندلس امتنعوا من التنصر وانحازوا إلى جبل وعر منيع فاجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه فجمع عليهم ملك الروم جموعه وطمع في الوصول اليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده على عقبه ونصرهم عليه فقتلوا من جنده خلقاً كثيراً من رجال وفرسان وأقناد.

فلما رأى أنه لايقدر عليهم طلب منهم أن يعطيهم الأمان ويجوزهم لعدوة الغرب مؤمنين فأنعموا له ذلك الا أنه لا يسرح لهم شيئاً من أموالهم غير الثياب التي كانت عليهم وجوزهم لعدوة الغرب كما شرطوا عليه ، ولم يطمح أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الاسلام ، وعم الكفر جميع القرى والبلدان ؛ وانطفى من الاندلس الاسلام والايمان ، فعلى هذا فليبك الباكون

وينتحب المنتحبون ، فإنا لله وانا اليه راجعون ، كان ذلك في الكتاب مسطوراً ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، لا راد لأمره ، ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين.

(مؤلف مجهول ، اخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ص 125 - 131)

نص رقم : 3 (تشدد الونشريسي في إلزام الأندلسيين بالهجرة بعد سقوط غرناطة)

وكتب إلي الفقيه أبو عبد الله المذكور أيضا بما نصه :

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله. جوابكم ياسيدي رضي الله عنكم ومتع المسلمين بحياتكم في نازلة ، وهي رجل من أهل مربلة معروف بالفضل والدين تخلف عن الهجرة مع أهل بلده ليبحث عن أخ له فقد قبل في قتال العدو بأرض الحرب ، فبحث عن خبره إلى الآن فلم يجده وأيس منه ، فأراد أن يهاجر فعرض له سبب آخر أنه لسان وعون للمسلمين الذميين حيث سكناه ولمن جاورهم أيضاً من أمثالهم بغربية الاندلس يتكلم عنهم مع حكام النصارى فيما يعرض لهم معهم من نوائب الدهر ويخاصم عنهم ويخلص كثيراً منهم من ورطات عظيمة بحيث إنه يعجز عن تعاطي ذلك عنهم أكثرهم ، بل قل مايجدون مثله في ذلك الفن إن هاجر ، وبحيث إنه يلحقهم في فقده ضرر كبير إن فقدوه. فهل يرخص له في الإقامة معهم تحت حكم الملة الكافرة لما في إقامته هناك من المصلحة لأولئك المساكين الذميين مع أنه قادر على الهجرة متى شاء ؟ أولا يرخص له إذ لا رخصة لهم أيضا في إقامتهم هناك تجرى عليهم أحكام الكفر ، لاسيما وقد سمح لهم في الهجرة مع أن أكثرهم قادرون عليها متى أحبوا ؟ وعلى تقدير أن لو رخص له في ذلك فهل يرخص له أيضاً في الصلاة بثيابه حسب استطاعته ؟ إذ لا تخلو في الغالب عن نجاسة لكثرة مخالطته للنصارى وتصرفه بينهم ورقاده وقيامه في ديارهم في خدمة المسلمين الذميين حسبما ذكر ؟ بينوا لنا حكم الله في ذلك مأجورين مشكورين إن شاء الله تعالى والسلام الكثير يعتمد مقامكم العلي ورحمة الله تعالى وبركاته.

فأجبته بما نصه :

الحمد لله تعالى وحده. الجواب والله تعالى ولي التوفيق بفضله ، أن إلهنا الواحد القهار ، قد جعل الخزية والصغار ، في أعناق ملاعين الكفار ، سلاسل وأغلال يطوفون بها في الاقطار،وفي أمهات المدائن والأمصار ، إظهار لعزة الاسلام وشرف نبيه المختار. فمن حاول من المسلمين عصمهم الله ووفرهم انقلاب تلك السلاسل والأغلال في عنقه فقد حادَّ ورسوله وعرض بنفسه إلى سخط العزيز الجبار ، وحقيق أن يكبكبه الله معهم في النار ، كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أنَا وَرُسُلِي إنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ فالواجب على كل مؤمن يؤمن بالله واليوم الآخر السعي في حفظ رأس الايمان ، بالبعد والفرار عن مساكنة اعداء حبيب الرحمان ، والاعتلال لاقامة الفاضل المذكور بما عرض من غرض الترجمة بين الطاغية وأهل ذمته من الدجن العصاة لا يخلص من واجب الهجرة ولا يتوهم معارضة ماسطر في السؤال من الاوصاف الطردية لحكمها بالواجب إلاَّ متجاهل أو جاهل معكوس الفطرة ، ليس معه من مدارك الشرع خبرة ، لأن مساكنة الكفار ، من غير أهل الذمة والصغار ، لا تجوز ولا تباح ساعة من نهار ، لما تنتجه من الأدناس والاوضار ، والمفاسد الدينية والدنيوية طول الأعمار.

منها أن غرض الشرع أن تكون كلمة الاسلام وشهادة الحق قائمة على ظهورها عالية على غيرها منزهة عن الازدراء بها ومن ظهور شعار الكفر عليها. ومساكنتهم تحت الذل والصغار تقتضي ولابد أن تكون هذه الكلمة الشريفة العالية المنيفة سافلة لا عالية ومزدرى بها لا منزهة ، وحسبك بهذه المخالفة للقواعد الشرعية والاصول وبمن يتحملها ويصبر عليها مدة عمره من غير ضرورة ولا أكراه.

ومنها أن كمال الصلاة التي تتلو الشهادتين في الفضل والتعظيم والاعلان والظهور لا يكون ولا يتصور الى بكمال الظهور والعلو والنزاهة من الازدراء والاحتقار. وفي مساكنة الكفار ، وملابسه الفجار ، تعريضها للاضاعة والازدراء والهزء واللعب. قال الله تعالى وَإذَا نَادَيْتُمْ إلَى الصَّلاة اتَّخَذُوهاَ هُزُؤاً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ ، وحسبك بهذه المخالفة ايضاً.

ومنها ايتاء الزكاة. ولا يخفى على ذي بصيرة ، وسريرة مستنيرة ، أن إخراج الزكاة للامام ، من أركان الاسلام ، وشعائر الانام ، وحيث لا إمام فلا إخراج لعدم شرطها ، فلا زكاة لفقد مستحقها. فهذا ركن من أركان الاسلام منهد بهذه الموالاة الكفرية ، وأما إخراجها لمن يستعين بها على المسلمين فلا يخفى أيضاً مافيه من المناقضة للمتعبدات الشرعية كلها. منها صيام رمضان ، ولا يخفى أنه فرض على الأعيان ، وزكاة الابدان. وهو مشروط برؤية الهلال ابتداء وانقضاء ، وفي اكثر الأحوال إنما تثبت الرؤية بالشهادة ، والشهادة لاتؤدي الاعند الايمة وخلفائهم ، وحيث لا إمام لا خليفة فلا شهادة الشهر إذ ذاك مشكوك الأول والآخر في العمل الشرعي.

ومنها حج البيت ، والحج وإن كان ساقطاً عنهم لعدم الاستطاعة لأنها موكولة اليهم ، فالجهاد لإعلاء كلمة الحق ومحو الكفر من قواعد الاعمال الاسلامية ، وهو فرض على الكفاية وعند مسيس الحاجة ، ولا سيما بمواضع هذه الاقامة المسئول عنها وما يجاورها ، ثم هم إما ضرورة مانعة منه على الاطلاق كالعازم على تركه من غير ضرورة ، والعازم على الترك من غير ضرورة كالتارك قصداً مختاراً ، وإما مقتحمون نقيضه بمعاونة أوليائهم على المسلمين إما بالنفوس وإما بالاموال فيصيرون حينئذ حربيين مع المشركين ، وحسبك بهذه مناقضة وضلالة.

وقد اتضح بهذا التقرير نقض صلاتهم وصيامهم وزكاتهم وجهادهم وإخلالهم باعلاء كلمة الله وشهادة الحق وإهمالهم لإجلالها ، وتعظيمها وتنزيهها عن ازدراء الكفار ، وتلاعب الفجار. فكيف يتوقف متشرع أو يشك متورع في تحريم هذه الإقامة مع استصحابها لمخالفة جميع هذه القواعد الاسلامية الشريفة الجليلة ، معماينضم اليها ويقترن بهذه المساكنة المقهورة مما لاينفك عنها غالباً من التنقيص الدنياوي وتحمل الذلة والمهانة ، وهو مع ذلك مخالف لمعهود عزة المسلمين ورفعة أقدارهم وداع إلى احتقار الدين ، واهتضامه ، وهو أمور أيضاً تصطك منها المسامع.

منها الإذلال والاحتقار والاهانة ، وقد قال عليه السلام : لَا يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ ، وقال : اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى.

ومنها الازدراء والاستهزاء ولا يتحملهما ذو مروءة فاضلة من غير ضرورة.

ومنها السبب والاذاية في العرض ، وربما كانت في البدن والمال. ولايخفى مافيه من جهة السنة والمروءة.

ومنها الاستغراق في مشاهدة المنكرات ، والتعرض لملابسة النجاسات ، وأكل المحرمات والمتشابهات.

[نهي عمر بن عبد العزيز عن الإقامة بالأندلس]

ومنها ما يتوقع مخوفا في هذه الاقامة ، وهو أمور أيضاً : منها نقض العهد من الملك والتسلط على النفس والاهل والولد والمال.

وقد رُوي أن عمر بن عبد العزيز نهي عن الاقامة بجزيرة الأندلس مع أنها كانت في ذلك الوقت رباطاً لا يجهل فضله ، ومع ماكان المسلمون عليه من القوة والظهور ووفور العدد ، لكن مع ذلك نهى خليفة الوقت المتفق على فضله ودينه وصلاحه ونصيحته لرعيته خوف التغرير ، فكيف بمن ألقى نفسه وأهله وأولاده بأيديهم عند قوتهم وظهورهم وكثرة عددهم ووفور عُدَدِهِم اعتماداً على وفائهم بعهدهم في شريعتهم ، ونحن لا نقبل شهادتهم بالاضافة اليهم فضلاً عن قبولها بالاضافة الينا ، وكيف نعتمد على زعمهم بالوفاء مع وقع من هذا التوقع ومع مايشهد له من الوقائع عند من بحث واستقرأ الأخبار في معمور الاقطار.

ومنها الخوف على النفس والاهل والولد والمال أيضاً من شرارهم وسفائهم ومغتاليهم ، هذا على فرض وفاء دهاقينهم وملكهم. وهذا أيضاً تشهد له العادة ويقر بها الوقوع.

ومنها الخوف من الفتنة في الدين. وهب أن الكبار العقلاء قد يامنونها ، فمن يؤمن

الصغار والسفهاء وضعفة النساء إذا انتدب إليهم دهاقين الأعداء وشياطينهم.

ومنها الخوف من الفتنة على الأبضاع والفروج. ومتى يأمن ذو زوجة أو ابنة أو قريبة وضيئة أن يعثر عليها وضيء من كلاب الأعداء ، وخنازيرهم البعداء ، فيغرها في نفسها ويغترها في دينها ويستولى عليها وتطاوعه ويحال بينها وبين وليها بالارتداد والفتنة في الدين ، كما عرض لكنة المعتمد بن عباد ، ومن لها من الأولاد. أعاذنا الله من البلاء ، وشماتةالأعداء.

ومنها الخوف من سريان سيرهم ولسانهم ولباسهم وعوائدهم المذمومة إلى المقيمين معهم بطول السنين ، كما عرض لأهل آبلة وغيرهم ، وفقدوا اللسان العربي جملة. وإذا فقد اللسان العربي جملة فقدت متعبداته. وناهيك من فوات المتعبدات اللفظية مع كثرتها وكثرة فضلها.

ومنها الخوف من التسلط على المال بإحداث الوظائف الثقيلة والمغارم المجحفة المؤدية إلى استغراق المال واحاطة الضرائب الكفرية به في دفعة واحدة في صورة ضرورة وقتية أو في دفع. إما استناد إلى تلفيق من العذر والتأويل لاتستطاع مراجعتهم فيه ولا مناظرتهم عليه ، وان كان في غاية من الضعف ووضوح الوهن والفساد ، فلا يقدم على ذلك خوفاً من أن يكون سبباً لتحريك دواعي الحقد وداعية لنقض العهد والتسلط على النفس والأهل والولد ، وهذا يشهد له الوقوع عند من بحث بل ربما وقع في موضع النازلة المسئول عنها وفي غيره غير مرة. فقد ثبت بهذه المفاسد الواقعة والمتوقعة تحريم هذه الاقامة ، وحظر هذه المساكنة المنحرفة عن الاستقامة ، من جهات مختلفة متعاضدة مؤدية إلى معنى واحد ، بل قد نقل الأيمة حكم هذا الأصل إلى غيره لقوته وظهوره في التحريم ، فقال امام دار الهجرة أبو عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه : إن آية الهجرة تعطي أن كل مسلم ينبغي أن يخرج من البلاد التي تغير فيها السنن ويعمل فيها بغير الحق فضلاً عن الخروج والفرار من بلاد الكفرة وبقاع الفجرة. ومعاذ الله ان تركن لأهل التثليث أمة فاضلة توحده ، وترضى بالمقام بين أظهر الانجاس الأرجاس وهي تعظمه وتمجه ، فلا فسحة للفاضل المذكور في اقامته بالموضع المذكور للغرض المذكور ، ولا

رخصة له ولا لأصحابه فيما يصيب ثيابهم وأبدانهم من النجسات والأخباث ، إذ العفو عنها مشروط بعسر التوقي والتحرز ، ولاعسر مع اختيارهم للاقامة ، والعمل على غير استقامة. والله سبحانه أعلم ، وبه التوفيق ، وكتب مسلماً على من يقف عليه من أهل لاإله إلا الله العبد المستغفر الفقير الحقير الراغب في بركة من يقف عليه وينتهي إليه عبيد الله أحمد بن يحيى ين محمد بن علي الونشريسي وفقه الله.

احمد بن يحيى الونشريسي ، المعيار المعرب ، 2 : 137 - 141

نص رقم : 3 في قدومنا الى بلاد المسلمين ومااتفق لنا عند خروجنا من النصارى

اعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن البلاد التي على حاشية البحر من بلاد الأندلس ، وأيضا فيما لهم في بلاد المسلمين ، أن النصارى فيها من الحرص والبحث في من يرد عليها من الغربا شيئا كثيراً. كل ذلك لئلا يذهب أحد أو يجوز عليهم الى بلاد المسلمين ، وهمنى كثيرا في كيفية الخروج من بينهم ، وركبت البحر في بلد يسمى شنت مريا ، وكان لي صاحب من بلدي من أهل الخير والدين ومشى معي مهاجرا الى الله وبلاد الاسلام وسبل نفسه وأهل القارب لا يشكون فينا بأننا منهم ، فقطعنا البحر في يومين ونزلنا في بلد يسمى بالبريجة هو للنصارى وليس بينه وبين مدينة مراكش الا نحو الثلاثة أيام للماشي المتوسط ، وتعجب من المنع الذي في بيان سورها ، هو أساسه على حجر صلد ، وسقفه ثلاثة عشر ذراعا ولا يبالي بكور المدافع من اتقانه وغلظه ، حتى شاهدت ثلاثة من الفرسان بخيلهم يدفعون خيلهم جملة على السور ولا يخافون الوقوع منه ، ولما أن دخلنا سألنا القبطان : ماسبب قدومكم ؟ قلت له : وقع لنا شيء من التغيير مع أناس ببلا الاندلس وجئنا الى حرمتكم ، قال : مرحبا بكم ، قلت أحب منك أن تأذن لنا في رجوعنا الى بلادنا مهما أردنا ، قال : أذنت لكما ونزلنا عندهم واشتريت حصانا من أحسن الخيل ، وصرت من فرسانهم ، وكنت أحب اشتري آخر لصاحبي ولم يتيسر. وتلك البريجة في ركن من الأرض والبحر دايربها من الجانبين ، ولايخرج أحد من البلد حتى تتقدم الفرسان ، ويقتسمون ، ويجوزون من البحر الى البحر من الجانب الآخر البساتين مع البريجة ، وليس لاحد من النصارى أن يجوز الحد الذي تكون فيه الفرسان بحساب النوبة للحرس ولما رأيت ذلك قلنا نخرج من البريجة ونجلس بين البساتين ونستخفى فيه الى الليل ، ونذهب الي مدينة أزمور ـ هي للمسلمين ـ على ثلاثة فراسخ من البريجة ، وقلت لصاحبي اذا قدر الله علينا أن النصارى يتصلون بنا فواحد منا يستعمل نفسه أن الجن أصرعه ويخرج من فمه بحديد شيئا من الدم لعلنا ننجو ـ ان شاء الله ـ بذلك الكيد.

فخرجنا الى بين البساتين واختفينا هناك ثم ان صاحبي مشى إلى بستان قريب من الموضع الذي كنا فيه ويقي هنالك إلى قبل غروب الشمس بقليل ، وأنا في أشد تغيير ، والفرسان تأتي إلى البلد ، ثم جاء صاحبي ، قلت له : ما السبب حتى قعدت الى هذه الساعة؟ قال : كنت أتكلم مع صاحب بستان حتى عزم على الخروج منه ، جئت من عنده ، فبينما كنت بالغيظ أدبر كيف العمل اذ سمعت البواب يَزْمُورُ مِزْماراً له ينادي الناس قبل سد الباب ، فاشتغلت اقرا سورة (يس) و (الزمر) في زيادة. قلت لصاحبي : هذا الزُمْرُ هو علينا ، قال لي: اعمل حيلة الأصراع ، لان الناس جاءت الينا قلت له : لاأعمل ذلك مما كان عندي من الغيظ والتغيير عليه ، قال : أنا أعمل ، قلت : أفعل وأنا أتكلم عليك معهم. فأخرج شيئاً من الدم ، ورمى بنفسه في الأرض ، فخرجت الى جهت الرجال وأنا أشير اليهم أن يأتوا إلي ، فلما وصلوا قالوا " ماالسبب في جلوسكم الى هذه الساعة والبواب ينادي عليكم ، أما تخاف من المسلمين أن يأخذوكم أسارى ؟ قلت في نفسي : ما نفتش الاهم ، قلت لهم : بعثت صاحبي يشتري خيارا ، ولما تعطل جئت في طلبه حتى وجدته في هذه الحالة ، ما استطعت حمله وحدي لانه يضطرب في الارض ، فوصلوا الى ناحيته ورأوه بالدم في وجهه وعنقه وهو يضطرب بيديه ، قالوا : هذا يموت وكان من الذين جاءوا صاحب البستان الذي كان معه صاحبي في الكلام ، ووصل الخبر للقبطان بأمرنا ، وظنوا وقالوا : اننا هاربون الى المسلمين ، وأمر أن ينظروا هل الحصان في الدار ؟ قالوا : هو فيه وحوائجهم أيضا ، قال : لو كان يهربان لم يتركا الحصان ، وهذا أمر نزل بهما ، والتمت جميع الناس بحضرة القبطان ، والرجال الذين كانوا عندنا قالوا : ان هذا يموت ، واتفقوا أن يمشي واحد منهم ينادي القسيس ليثبته ويستقرره من الذنوب يمشي مغفورا منه الى الجنة ، فمشى واحد وأعلم القبطان بالامر ، فجاء القسيس وهو على بعد منه يثبته ، قلت للقسيس : أظن أنه مصروع من الجن فاقرا عليه أول ما ذكر يوحنا في الانجيل ليذهب عنه الجن ، فقرا عليه من الانجيل ، وذهب الجن والشيطان ، وظهرت للقراءة البركة والبرهان ، وشهرت هنالك ولاية القسيس ، وضحك منه الجن مع ابليس ، وبرا المريض في الحين ، واخذه اثنان منهم كل واحد من تحت ابطه ، وصار يمشي معهم حتى صعد على

حايط نار وهما معه ، فأطرح نفسه على واحد منهما عند هبوطه منه حتى كاد أن يوقعه.

ودخلنا البلد وجميع الناس مع القبطان وحكو له كل ماطرا ، وأن المريض بعد أن كان يموت برا ببركة ما قرا عليه القسيس ، ومشينا الى الدار وجاء من أكابرهم ينصحونني أن لا نتركه يركب الحصان ، ولا يطلع على السور لئلا يصرعه الجن ، ثم جاء الطبيب وكانت له صنايع غير الطب كثيرة ، فكان يصقل السكاكين ، ويركب الرماح ، وأظنه يحلق ، ويبطار الخيل ، فقال الحكيم : ماهذا الذي أصابه فحكينا له ، وبقي متحيرا ماذا يأمرنا به من العمل للعليل ، فقال : اجعل عليه حوايج لعله يعرق ، فشكرته على حكمته ووضعنا الحوايج عليه ، فلما أن ذهبوا جميعا ولم يسمع المريض أحد أخرج راسه من تحت الحوائج وقال : كيف حالنا ياسيدي ؟ قلت له غط رأسك ما عندما الا الخير ـ ان شاء الله ـ ، وذهب النوم عنا في الليلة كلها ويوم أخر تبين لنا أن الله تعالى لطف بنا ، وبقي المريض سالما ونحن ندبر كيف العمل لنقضي الغرض حتى نخرج من بين الكفار. قلنا : لو كان واحد منا وحده كان يمكن الهروب والخروج بأن يخفي ويهرب والحال الاثنين صعب ، وكانت سفينة عازمة على الرجوع الى بلاد الاندلس ، قلنا نرمى القرعة من يرجع منا في السفينة ، فرميناها وجات في ، وكانت الناس تتكلم بنا تقول : اني كنا نريد الهروب الى بلاد المسلمين. فمشيت الى القبطان وقلت له أحب أرجع الى بلاد الاندلس في هذه السفينة ، واذا استغرضت شيئا من تلك البلاد فاعطني زماما به ابعثه اليك ، قال : وصاحبك يمشي معك : قلت له : أراد القعود هنا وأنت ترد بالك عليه ، لانه غريب. فخرجت عشية وأوجدت مايحتاج من الطعام في السفر ، فوجدت بقرب باب قاربا صغيرا ، فقال : أركب ، فاعطيته الطعام والحوايج وقلت له إذا خرج التاجر الذي كان يمشي من البريجة نركب القارب الصغير ليبلغنا إلى السفينة الكبيرة ، فجلسنا هنالك ندعو الله تعالى أن يتعطل التاجر حتى ينسد الباب ، ثم قالوا لصاحبي : ادخل عند سد الباب قلت لهم : دعوه معي حتى يخرج التاجر ، قالوا : نعم ، يقعد ، فأظلم الليل الى أن صلينا العشاء الآخرة ، ثم دعونا الله ان يرشدنا ويسترنا من أعدائنا. قلنا : هذا وقت الخير فنذهب ـ ان شاء الله ـ الى

أزمور ، قلت لصاحبي : ماظهر لك أن نصنع في ذهابنا ، قال : كيف ماظهر لك ، قلت له : ياصاحبي ، الطريق القريب هو من هنا إلى ازمور ، قلت : ومن الممكن أنا اذا شرعنا في الطريق ربما يخرج التاجر الذي هو يمشي في السفينة ، واذا طلبوا علينا لم يجدونا ، ويتبعونا كما هي من عادتهم ويدركوننا بالخيل ، قال : كيف العمل ؟ قلت : هذا طريق أزمور هو هذا الشمالي على حاشية البحر ، قال : نعم ، قلت : نمشوا على حاشية البحر اليمنى الى غد - ان شاء الله تعالى - نمشوا الى ازمور على بركة الله فمشينا ، وبعد ساعة أو اقل سمعنا مكحلة لعلي نفيق من النوم ان كنا نائمين ، فمشينا الليل كله في بلاد الاسد الى انشقاق الفجر أخلوا المدفع الكبير وهي علامة عندهم اذا ادخلوا ذلك أنه لا يتخلف أحد عن الخروج من البلاد. وعلمنا أنهم ماخرجوا الا في طلبنا ، فاتفق أن ندخلا في وسط شجرة كبيرة ونجلس هنالك الى الليل وكنا نسمع حس البارود الكثير ثم يئسوا منا وولوا خائبين ، وسبب رجوعهم أن قائد أزمور لما سمع حس المدفع الكبير عند الصبح علم أن أحدا من النصارى هرب من عندهم فأمر في الحين الفكاك أن يمشي الى البريجة ليتكلم مع القبطان في شأن أسير كان عنده ، ويأتي بالخبر ، فلما مشى التقى بالنصارى في الفحص. وسأله ترجمان القبطان عن نصرانيين هل رآهما ؟ قال له نعم ، هما عندنا من الصبح. فلما بلغ الخبر للقبطان وهو مع جنده ، فكان يقبض بيده شعر لحيته ، وينتفها ويرمى في الارض ، والفكاك قال لهم ذلك ليبأسوا ويرجعوا فقنطوا ، وولوا خائبين. ونحن جلسنا بين الاشجار إلى الليل وكان الحر الشديد ، ونحن بالعطش سائرين فوجدنا عينا من ماء عذب فشربنا ، وبتنا الى الصبح ، وكنا سرنا في الليل كثيرا قبل وجود الماء. وبعد ذلك بزمن التقينا بمراكش برجل من أولاد الولي سيدي على بن أبي القاسم ، وسألنا عن حالنا وهروبنا من البريجة الى جهة طيط - هو بلد خال كان للمسلمين - وذكرنا له عين الماء الذي وجدناه في الليل ، فقال للناس الحاضرين : تلك البلاد نعرفها كلها وليس فيها ماء على وجه الارض الا في الآبار الغارقة. وبعد أن تنعمنا بالماء وصلينا الصبح مشينا في طلب أزمور وبسبب الصحب لم نر الشمس حتى كانت في وسط السماء ، ثم سرنا نطلب على الما ونجد آبار غارقة يابسة ، ثم استظلينا بشجرة كبيرة بعد العصر ، وسمعنا حس

البحر ، ولينا اليه لعلنا نجد ماء فلم نجد شيئا في حاشية البحر للشرب. ثم مشينا على طريق وكنت أظن أنه ماشي الى أزمور. فبعد نصف الليل بلغنا الى بساتين البريجة ، ثم جزنا وتركناهما من ورائنا ، وسرنا من البريجة ، ثم صعدنا على جبل ورأينا المسلمين يحصدون الزرع ولما قربنا منهم جاءوا الينا بأسلحتهم وخيلهم ، فلما وصلوا الينا قلنا لهم : نحن مسلمون ، فامسكوا عن الحرب ، وفرحوا بنا فرحا عظيما ، وأعطونا الخبز والطعام الذي لم نره من يوم الجمعة قبل الزوال الى يوم الاثنين عند الضحى . ثم بلغنا ال أزمور فأقبل علينا قائدها وبحثنا كثيرا في أمور دين المسلمين ، وقال لي : اتكتب بالعربية في هذه الورقة ؟ قلت له : ماأكتب ؟ قال : الذي تحب ، فكتبت مالهمني الله تعالى ، وشكرته على قضاء الحاجة وخلاصنا من الكفار ودعوت بالخير للقائد محمد بن ابراهيم السفياني على ماأحسن الينا ، وقبض الورقة ، وأظن أنه بعثها للسلطان مولاي أحمد ـ رحمه الله ـ ، وكتب له أمره أن يمشي بحضرته في عيد الاضحى ، وأن يحملنا معه ، فلما أن بلغنا في دكالة الى سوق كبير أمر القائد بخديمه أن يركب معي الى السوق ، فلما أن دخلنا فيه جاء المسلمون يسألون الخديم عني ، قال لهم ، هو مسلم ، فجاءوني من كل جانب وهم يقولولن لي : شهد ! شهد ! وأنا ساكت حتى ألحوا علي وكثروا في ذلك ، قلت : اشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. قالوا : والله أنه قالها خير منا ، ثم مشوا وأتوني بتمر وغير ذلك مما كانوا يبيعونه وفضة دراهم. قلت لهم : لاأطلب منكم شيئا من ذلك ، فلما ولينا عند القايد قال لي : ماظهرلك ؟ قلت : الحمد لله اذ لم ترعدوا في هذه الناس ، لان في بلاد النصارى لم نر فيها في الاسواق الا أعداء لنا يمنعونا من الشهادتين جهرا ، والمسلمون يحرضونني عليها وفرحوا جميعا حين سمعوا مني ذلك. وقد شبهت مااصابنا من خوف النصارى ومارأينا من التعب في الطريق الى أهوال يوم القيامة ، ووصولنا الى المسلمين للدخول في الجنة ـ نسأل الله العظيم أن لا يحرمنا منها وجميع المسلمين أجمعين ببركة سيدنا محمد أفضل الصلاة والتسليم ـ

(احمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 37 - 41)

نص رقم : 5

في بلوغنا الى مدينة مراكش
وما كان السبب حتى مشيت الى بلاد الفرنج

ولما أن بلغنا الى محلة السلطان مولانا أحمد ابن مولاي محمد الشيخ الشريف الحسني وكان يقرب المدينة بنحو الستت أميال بسبب الوباء العظيم الذي نزل بتلك البلاد ، وكان عيد الأضحى في اليوم الآتي من بلوغنا ، وخرج السلطان في جنود ـ لم نظن ذلك ـ وعجبني حال الرماة فحزامهم هو أفضل وأحسن وأزين من حزام النصارى بكثير. وأما العرب الذين جاءوا وحضروا مع قوادهم فكانوا تسعا وعشرون ألف فارس وكذا مائة ماعدا السبيحية ، وفرسان المدينة والفرادة ، والجند كثير. وبعد ذلك دخلنا مراكش ، هي مدينة كبيرة ، وفواكهها كثيرة ، وعنبها ليس في الدنيا مثله. عرضها احدى ثلاثون درجة ونصف. وطولها تسع دراج ، لانها قريبة من الجزر الخالدات المسمات الآن بقنارية ، ومنها ابتدأ الطول وبعد أن دخل السلطان من المحلة وكان ذلك عام سبع وألف ، وانعم علينا ، واذن لنا في الدخول الى حضرته في يوم الديوان ، ولما ابتدأت بالكلام الذي اخترته أن أقول بحضرته العلية بصوت جهير سكت جميع الناس الحاضرون كأنها خطبة. ففرح السلطان وقال كيف يكون ببلاد الاندلس من يقول بالعربية مثل هذا الكلام ، لانه كلام الفقهاء ، وفرح بذلك كافة الاندلس القدما ، ورأينا العافية والرخا في تلك البلاد الى أن مات مولاي أحمد ـ رحمه الله ـ في مولد النبي صلى الله عليه وسلم ـ من سنة اثنتي عشر وألف. وقامت القوام والهرج في المغرب كله ، ثم ثبت في المملكة مولانا زيدان ابن السلطان مولاي أحمد ـ رحمهما الله تعالى ـ وفي أيامه أمر السلطان النصراني ببلاد اشبانية ـ اعني بلاد الاندلس المسمى بفلب الثالث ـ من اسمه ـ باخراج جميع المسلمين من بلاده ، وابتداء ذلك كان لسنة ثمان عشرة وألف. وآخر من خرج منهم كان عام عشرين وألف. وكان الأندلس يقطعون البحر في سفن النصارى بالكراء ، ودخل كثير منهم في سفن الفرنج ونهبوهم في البحر. وجاء الى مراكش أندلس منهوبون من الفرنج من أربع سفن. وبعث رجل أندلسي من بلاد فرنجة يطلب منهم وكالة ليطلب الشرع عنهم ببلاد الفرنج واتفق نظرهم أنهم يبعثون خمسة رجالا من المنهوبين ويمشى بهم واحد من الأندلس الذين سبقوهم بالخروج ، واتفقوا انني نمشي بهم وأعطاني السلطان كتابه ، وركبنا البحر المحيط بمدينة أسف.

(احمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 43 - 44)

نص رقم 6 : في قدومنا الى بلاد الفرنج

ولما ان دخلنا البحر سافرنا الى أن تركنا بلاد المغرب عن يميننا ، ثم عبرنا في البحر المحيط إلى جهة القطب الشمالي ، وتركنا أيضا بلاد الأندلس عن يميننا ، وبلغنا الى بلاد الفرنج الى مرسى هبردي غرسي ـ معنى ذلك الاسم مرسى البركة ـ بعد ثلاثين يوما من خروجنا ، وبتنا في السفينة بنية الخروج في البر في غد ، وتلك الليلة على طولها نرى في النوم اني كنت نتلو سورة (الاخلاص) ، وبعد أن نزلنا في البربان لي أن قراة (قل هو الله أحد) كان لي تثبيتا على التوحيد ، والأمر من الله تعالى به اذ كنا نازلين ببلاد الشرك ، ثم مشينا الى مدينة روان ، وجاء الينا تاجر كنت عرفته في مراكش اسمه فرط ، ولطول مكثه ببلاد المسلمين كان يعرف العربية غاية ، وبدا يتكلم في دين المسلمين ، ويشكر دينه. وقال : المسلمون في دينهم مباح الزنا والسرقة قلت : هذا باطل ، قال : بل صحيح لأني سمعت علماءكم يقولون ان بعضا سأل نبيكم ، قال : المومن يزني ؟ قال له : يزني ، قال : والمومن يسرق ؟ قال : يسرق ، قال أيضا : المومن يكذب ؟ قال له : المومن مايكذب. قلت له : المون الذي مايكذب فلا يسرق ولايزني ، وكيف تقول ذلك وعندنا أن من سرق مايساوي ربع دينار تقطع يده شرعا ، واذا زنا المحصن يرجم الى أن يموت. ثم زاد في مدح دينه الى أن قال : سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ كان ابن الله ، وابن انسان ، وانه مات ليخلص الذنب الأول عن سيدنا ءادآم ـ عليه السلام ـ ، قلت : أقول لك في الجواب شعرا نسبه بعض للقاض عياض ، وهو هذا :

عجبا للنصارى في نبيهم	*	والى أي والــــد نـسبوه
أسلموه الى اليهود وقالوا	*	انهم بعـد صلـبه قتلوه
فـان كـان مايقـولون حقا	*	فاسألوهم أين كان أبـوه ؟
فـان كان راضيا لاذاهـم	*	فاشكروهم لاجل ماعذبوه
وان كان ساخطا لاذاهـم	*	فاعـبدوهم لانهم غلبـوه

فبهت التاجر ولم يعرف مايقوله.

وكان قد ذكر لي رجل من علماء النصارى في مدينة مراكش ، وكان راهبا ثم أسلم ، وسمي برمضان ، ثم مشى الى بلاد السودان ، ومات بها ـ والله أعلم ـ وقال لي : ان السلطان مولاي أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ أمر باحضاره بين يديه بعد أن علم أنه من علماء النصارى ، فقال له ماذا تقولون في سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ ؟ قا : إنه أحد الثلاثة في الالوهية أو كما قال : وانه مات ليخلص العالم من الذنب الأول الذي عمله أبونا آدام. قال له السلطان : أنا اضرب لك مثلا حتى ترى الغلط الذي أنتم عليه ، فقدر أنني أمرت أن من يدخل في هذا البستان الذي بدارنا السعيدة نقتله ، واتفق أن واحدا ممن علم بالمنع دخل البستان وعصاني ، فلما صح ذلك عندي أمرت الخدام أن يأتوني بابني ، فلما أحضروه قلت لهم : اقتوله لأجل دخول فلان في الجنان الذي نهيت عن الدخول فيه ، قال للراهب : هذه مسألتكم على زعمكم أن عيسى ابن الله وقتل ، وهل يقول بمثل هذا ... من الراهب ، وبهت ولم يجد مايجاوب به ... هذا الكلام لم يبق لكم ماتقولون ، قال لي الراهب : بقي لي جواب ، قلت له : ماذا هو ، قال لي ... فما بعد الحق الا الضلال. وقد وقع لي كلام في مدينة روان مع قاضي القضاة بعد أن زرته ، وكان يعرف اللسان العجمي الأندلسي ، فسألني عن مسألة في ديننا لأنهم كانوا مختلفون (كذا) فيها أعني أصحاب الباب وكان القاضي على مذهبه وبين النصارى الذين يكفرون به ، وبكل ما يقول ماعدا التثليث ، لأنهم متفقون فيه. وذلك أنه قال لي : اذا مات المرء هل تصل اليه حسنة من عند غيره ؟ فقلت له : قال نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اذا مات المرء انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به الناس ، أو ولد صالح يدعو له » ففرح وانشرح لانه موافق لاعتقادهم ، والذين يكفرون بالباب من النصارى يقولون : انه لا يصل للميت دعا ولا صدقة ولاشيء من الدنيا بعد موته. ثم قال القاضي : أنتم التركيون تصنعون فعلا قبيحا بقتلكم جميع أولاد السلاطين إلا واحد أو اثنين ، قلت ذلك لصلاح المسلمين ، لأن كل من هو ابن سلطان يحب مملكة أبيه ، فإذا أصاب ... والمملكة

عظيمة ومنيعة ، فيقوم معه كثير وتكون بسبب ذلك تفريق الكلمة ، وتكون الفتنة ، وقد يشاهد في النحل أمر عجيب ، وهو أنه اذا افرخ وكثر فتخرج من الجبح ، وتدخل في جبح آخر فارغا ، وعندهم فيها بين النحل سلالة سلاطين ليكون سلطانها ، وتقتل جميع من هو من ذلك الجنس ، وهذا مشاهد يعلم ذلك كل من يخالط النحل ، وهذا الهام رباني.

ففرح القاضي وأظهر صحبة ومودة ، ونفعني نفعا جيدا في الأحكام.

(احمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 45 - 47)

نص رقم 7 **(اخراج الاندلسيين من اسبانيا)**

وأما ما ذكرته في هذا الباب مما جوبت به للامير في شأن الاسباب التي حملت لسلطان النصارى على اخراج الاندلس من بلاده ، فنذكر هنا شيئا ، ولم نذكر في النسخ التي سبقت لهذا المختصر.

اعلم ان سلطان البلاد المسمى بفلب الثاني ، من اسمه ، اعني ممن سمي من السلاطين بفلب. وبينت هذا لاني طالعت بعض كتب التواريخ للمسلمين فيما وقع لهم من الحروب مع سلطان البلاد المسمى بالْفُنْشُ ، ولم يبنوا ايهم كان ، لان ببلاد الاندلس كان فيها اكثر من اثنا عشر سلطانا من سمي بالفنش ، إلا أنهم يذكرون كل واحد بحسابه من الاسم ، مثل أن يقولوا الفنش الرابع ، أو الثامن أو العاشر. والمؤرخون المسلمون لايذكرون درجة للاسم. وهذا فلب الثاني امر في بلاده كلها قبل خروجي منها أن يُزَمِّمُوا جميع الاندلس صغاراً وكبارا ، حتى التي في رحم النساء بظهور الحمل. ولا علم احد السر في ذلك.

ثم بعد ذلك بنحو السبع عشر سنة عملوا زماما آخر مثل الاول ـ كما اعلموني بمراكش ـ ولم يدر احد السر في ذلك حقيقة. ولاكن قال لسان الحال انهم ارادوا يعلموا هل كانوا في زيادة أم لا ؟ ولما وجدوا زيادة كثيرة امروا بقرب ذلك بإخراجهم. وكتب السلطان فلب الثالث ـ من اسمه ـ كتابا لقريبه ، وخليفته بمدينة بلنسية يامره ان يشرع في اخراج الاندلس وترجمت نسخة من البراءة للسلطان مولاي زيدان ابن السلطان مولاي احمد بمراكش. وكان تاريخ الكتاب ـ والله اعلم ـ في أول عام ثمان عشر والف من الهجرة.

قال فيه :

«مَرِكُشْ ذَا قَرَسِنَا ، قريبنا ، وخليفتنا في سلطنتنا ببلنسيه. سلام.

قد علمت ماصنع ، وعمل مع النصارى الجدود الاندلس أهل تلك السلطنة ، وقشتالة على طول السنين الكثيرة الماضية من التحريض ، والارشاد لاثباتهم في ديننا المجيد وايماننا. ولانفع معهم قليلا ولا كثيرا لانه لم يجد فيهم واحد من هو نصراني حقيقة. والغرر والشر الذي يمكن أن يحدث بسبب ما تعامينا عليهم ، قد ذكره الينا رجال وصلحاء ، وانه لزمنا اصلاح ذلك الامر ، لنرضي به الله ، ونزل غضبه من أجل هذه الامة ، وافتوا فيهم انه يجوز لنا من غير شك أن نعاقبهم في انفسهم واموالهم ، لان الاستمرار على سوء افعالهم ختم وحكم عليهم انهم منافقون ، واعداء للمقام الالهي والانساني. وهب اننا قادر على أن نُجَزيهم ونعاقبهم بما أوجب سوء فعلهم ولوْمَتِهِمْ. فمع ذلك اخترت معاملتهم على طروق الحلم واللين ، وترك المواخذة. وبسبب ذلك امرنا باجتماع المحفل الذي حضرت فيه مع العلماء والاكابر في تلك المدينة لعلي نجد سبيلا لترك اخراجهم من مملكتنا. ونحن في هذا تحققنا ، وصح من وجوه ، انهم بعثوا للتركي الكبير باصطنبول ، ومولاي زيدان بمراكش رسلهم يطلبون منهم أن ينجدوهم ، وأنهم عندهم مائة وخمسون الف رجلا مسلمون مثل الدين ببلاد المغرب الافريقية. وايضا بعثوا لاعدائنا البحرية بالجهة الشمالية التي تحت القطب ، وأنعموا انهم يعينُهُمْ بسفونهم. وأما سلطان اصطنبول قد اصطلح مع سلطان الفرس ، لأنه كان يشغله ، وأما سلطان مراكش فقد عزم على تدويخ البلاد وتسكينها. وإذا اتفقوا جميعا مع هؤلاء نروْ نفوسنا في الامر الذي لا يخفى. وللقيام بما لزمنا من حفظ مملكتنا ، ودفع مايعرض لها اتفق نظرنا ـ بعد أن دعوت الله وامرت بالدعا طامعا ، ومتوكلا في تأييده ونصره لما يجب لمجده وفضله ـ على اخراج جميع الاندلس الذين هم في تلك السلطنة لانهم اقراب للغرر وللانجاز بذلك امرنا بإشهار هذا الامر وينادى به.

فأولا يعرف منه أن جميع الاندلس التي في تلك المملكة رجالا ونساء ، بأولادهم في ثلاثة أيام من شهرة هذا الامر بالبلاد التي هم ساكنون ، أن يخرجوا ويمشوا ليركبوا البحر في الموضع الذي يؤمر به ، وأن يحملوا من العروض والاثاث مايستطيعون عليه ، ليركبوا في

السفن والاغربة التي هي موجودة لحملهم الى بلاد المغرب ، وينزلونهم من غير مضرة لاحد في النفوس والاموال ، ويعطونهم ما يحتاجون اليه من الطعام ماداموا فيها. ومن اراد أن يحمل لنفسه مايقدر عليه فليفعل. ومن يتعدى عن هذا الأمر فليقتل في الحين.

وأن كل من يوجد بعد ثلاثة أيام التي ينادى بالامر خارجا عن بلده ، يجوز لكل من لقيه ان ينهب ماعنده ، ويسلمه للحكام وان امتنع يجوز له قتله.

وأن كل من سمع الندا لايخرج من بلده الى غيره حتى يمشي مع من يقودهم الى ركوب البحر.

وأن كل من يدفن شيئا من امتعته ان لم يستطع الرُفود معه ، أو يحرق شيئاً من الزرع أو الأشجار ، أن يقتل على ذلك ، وامرنا جيرانه بتنفيذ الحكم فيهم.

ولما يصلح بالبلاد في معاصر السكر ، والروز ، وسقي البلاد ، ليعلموا السكان الجدود امرنا بقعود ستت من الاندلس بأولادهم الذين لم يتزوجوا في كل بلد يكون من مائة دار ، والامر في ذلك لسيدهم ، فهو لمول كل بلد ، ويكون من الفلّحينَ القدماء الذين ظهر عليهم القرب والميل لديننا ، ويرجى فيهم الثبات عليه.

وإن الرماة والنصارى القدما لايأخذون شيئا من أموالهم ، ولايقربوا الى نسائهم وأولادهم ، ولا يكتم منهم احدا في داره ، ومن يفعل ذلك يجعل في مقذف الاغربة ست سنين ويزداد على ذلك مايظهر لنا.

وليعلموا أن السلطان مامراده إلا اخراجهم من بلاده الى بلاد المغرب ، فلا يضرهم احد بوجه من الوجوه ، وانه ينفق عليهم ، ويحملهم في سفنه ، وإذا بلغوا ، فليرجعوا عشر منهم ليعلموا لغيرهم. وكبراء الاغربة والسفن فليعملوا بهذا الأمر.

وإن الصبيان الذين يكونون أولاد نصارى لايخرجوا ، ولا لامهاتهم معهم ، وإن كانت

أندلسية. وان كان أبوهم اندلسي وامهم نصرانية فَتَقْعُدُ المرأة بأولادها التي من ستت فأقل ، وهو يذهب ويخرج.

وشهر هذا الامر ونودي به في الثاني والعشرين من شهر شتنبر من عام تسع وست مائة وألف من ميلاد سيدنا عيسى - عليه السلام - انتهى.

وبعد أن خرجوا أهل سلطنة بلنسية ، فأمر بالخروج للذين كانوا بالاندلسية وغيرها من البلاد القريبة إليها أن يخرجوا. وبعد أن اكتروا السفن - وهم في واد اشبيلية - بعث السلطان أمرا عكس الاول ، وقال : أن كل من اكترى سفينة يمشي لبلاد المسلمين أن يأخذوا لهم كل من كان من اقل من سبع سنين من الاولاد والبنات ، واخرجوا كل من كان في عشرين سفينة. واخذوا لاهل الحجر الاحمر نحو الف من الاولاد. وكل من جاز على طنجة ، وسبتة ، فأخذوا لهم أولادهم مثل الآخرين. والله تعالى قادر على اخذ الحق منهم في الدنيا على يدي من فضله الله واختاره من سلاطين المسلمين.

آحمد الشهاب الحجري ، ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 110 - 113 .

نص رقم 8 (الهجرة الاندلسية لأقطار المغرب العربي)

وأما الخاتمة التي وعدت بها بعد الفصول الثمانية ، فأقول والله ـ سبحانه ـ ! المأمول :

قد كثر الإنكار علينا ، معشر أشراف الأندلس ، من كثيرين من إخواننا في الله بهذه الديار الإفريقية من التونسيين وغيرهم ، حفظهم الله تعالى ! ـ بقولهم : من أين لهم الشرف ، وقد كانوا ببلد الكفار ـ دمرهم الله ـ تعالى ! ـ ولهم مؤن من السنين كذا وكذا ، ولم يبق فيهم من يعرف ذلك من مدة الإسلام ، وقد اختلطوا مع النصارى ، أبعدهم الله ـ تعالى ! ... إلى غير ذلك من الكلام الذي لانطيل به ولا أذكره هنا صونا لعرضهم وحبي فيهم .

فأقول ، وبالله ـ تعالى ـ ! ـ التوفيق ، والهادي إلى أقوم طريق : مع أني صغير السن ، حين دخولنا هذه الديار ، عمّرها الله ـ تعالى ! ـ بالإسلام وأهله بجاه النبي المختار ـ صلى الله عليه وسلم ! ، فقد أطلعني الله ـ تعالى ! ـ على دين الإسلام بواسطة والدى ـ رحمة الله ـ تعالى ! ـ عليه ، وأنا ابن ستة أعوام وأقل مع أني كنت اذ ذاك أروح إلى مكتب النصارى لأقرأ دينهم ، ثم أرجع إلى بيتي ، فيعلمني والدي دين الإسلام ، فكنت أتعلم فيهما معا ، وسني حين حُملت الى مكتبهم أربعة أعوام.

فأخذ والدي لوحا من عود الجوز كأني أنظر الآن إليه مملسا من غير طفال ولا غيره ، فكتب لي فيه حروف الهجاء وهو يسألني ، حرفا حرفا ، عن حروف النصارى تدريبا وتقريبا ، فإذا سميت له حرفا أعجميا ، يكتب لي حرفا عربيا فيقول لي حينئذ : «هكذا حروفنا !» حتى استوفى لي جميع حروف الهجاء في كرتين ، فلما فرغ من الكرة الأولى ، أوصاني أن أكتم ذلك حتى عن والدتي وعمي وأخي وجيمع قرابتنا ، وأمرني أن لا أخبر من الخلق ، ثم شدد علي الوصية ، وصار يرسل والدتي إلي ، فتسألني وتقول : «مالذي يعلمك والدك؟» فأقول لها : «لا شيء!» فتقول : أخبرني بذلك ولا تخف ، لأني عند الخبر بما يعلمك !» فأقول لها :

« أبدا ! ماهو يعلمني شيئا » ، وكذلك كان يفعل عمي وأنا أنكر أشد الإنكار ، ثم أروح إلى مكتب النصاري وآتي الدار ، فيُعلّمني إلى أن مضت مدة ، فأرسل إلي من إخوانه في الله الأصدقاء ويسألونني ، فلم أقر لأحد قط بشيء مع أنه ـ رحمه الله ـ تعالى ! ـ قد ألقى نفسه للهلاك لإمكان أن أخبر بذلك عنه ، فيحرق لامحالة ؛ لكن أيده الله ـ سبحانه وتعالى ! بتأييده وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بين أظهر أعداء الدين.

وقد كان والدي ـ رحمه الله ـ تعالى ـ ! ـ ، يلقّني حينئذ ماكنت أقوله عند رؤيتي للأصنام ، وذلك أنه قال لي : إذا أتيت إلى كنائسهم ورأيت الأصنام ، فاقرأ في نفسك سراً قوله تعالى : «ياأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. » و « قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ » وغير ذلك من الآيات الكريمة ، قوله ـ تعالى ! ـ : « وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَما قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِن الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّه عَزِيزاً حَكِيماً. »

فلما تحقق والدي ـ رحمه الله ـ تعالى ! ـ أنّي أكتم أمور دين الإسلام عن الأقارب فضلا عن الأجانب ، أمرني أن أتكلّم بإفشائه لوالدتي وعمي وبعض أصحابه الأصدقاء فقط ، وكانوا يأتون إلى بيتنا فيتحدثون في أمر الدّين وأنا أسمع.

فلمّا رأى حزمي مع صغر سني ، فرح كثيرا غاية الفرح وعرفني بأصدقائه وأحبابه وإخوانه في دين الإسلام ؛ فاجتمعت بهم واحدا واحدا وسافرت الأسفار لأجتمع بالمسلمين الأخيار من جيّان مدينة ابن مالك إلى غرناطة وإلى قرطبة وإشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الجزيرة الخضراء ، أعادها الله ـ تعالى ! ـ للاسلام ، فتلخص لي من معرفتهم أنّي ميزت منهم سبعة رجال كانوا كلهم يحدّثونني بأمور غرناطة ، وما كان بها في الإسلام حينئذ وبما أقوله بعد وقلته قبل ؛ فسندى عال لمكون ماثم إلا واسطة واحدة بيني وبين أيام الإسلام بها ؛

فباجتماعي بهم ، حصل لي خير كثير ولله المنّة ! وقد قرؤوا كلهم ـ رحمهم الله ! ـ على شيخ من مشايخ غرناطة ـ أعادها الله للاسلام! ـ يقال له الفقيه الأوطوري رحمه الله ـ تعالى! ـ ونفعنا به ، فإنه كان رجلا صالحا وليا لله فاضلا زاهدا ورعا عارفا سالكا ذا مناقب ظاهرة مشهورة وكرامات زاهدة مأثورة ، قد قرأ القرآن في الكريم في مكتب الإسلام بغرناطة ، قبل استيلاء أعداء الدين عليها وهو ابن ثمانية أعوام ، وقرأ الفقه وغيره على مشايخ أجلّاء ، حسب الإمكان ، لأن الوقت ضاق في السر والإعلان لشدة القتال والحصر الذي كان عليهم ، مع صغر سنه.

ثم بعد مدة يسيرة انتزعت غرناطة من أيدي المسلمين أجدادنا ، وقد أذن العدو في ركوب البحر والخروج منها لمن أراده وبيع ماعنده وإتيانه لهذه الدّيار الإسلامية ، أبقاها الله ـ تعالى ! ـ عامرة بالإسلام إلى يوم الدين وذلك في مدّة ثلاثة أعوام ، ومن أراد أن يقيم على دينه وماله فليفعل ، بعد شروط اشترطوها وإلزامات كتبها عدوّ الدّين على أهل الإسلام.

فلمّا تحرك لذلك أجدادنا وعزموا على ترك ديارهم وأموالهم ومفارقة أوطانهم للخروج من بينهم ، وجاز إلى هذه الدّيار التونسيّة والحضرة الخضراء بغتة من جاء إليها حينئذ ودخلوا في زقاق الأندلس المعروف الآن بهذا الإسم وذلك سنة اثنتين وتسعمائة ، وكذلك للجزائر وتطوان وفاس ومراكش وغيرها ، ورأى العدوّ العزم منهم لذلك ، نقض العهد فردّهم رغم أنوفهم من سواحل البحر إلى ديارهم ومنعهم قهرا عن الخروج واللحوق بإخوانهم وقرابتهم لديار الإسلام ؛ وقد كان العدوّ يظهر شيئا ويفعل بهم آخر ، مع أن المسلمين أجدادنا استنجدوا مرارا ملوك الإسلام حينئذ كملك فاس ومصر ، فلم يقع من أحدهما ولا من غيرهما إلا بعض مراسلات ، ليقضي الله أمراً كان مفعولا !

ثم بقي العدوّ يحتال بالكفر عليهم غضبا ، فابتدأ يزيل لهم اللباس الإسلامي والجماعات والحمامات والمعاملات الإسلامية شيئا فشيئا مع شدّة امتناعهم والقيام عليه مرارا وقتالهم إيّاه ، إلى أن قضى الله ـ سبحانه ! ـ ما قد سبق في عمله ؛ فبقينا بين أظهرهم وعدوّ

الدّين يحرق بالنار من لاحت عليه إمارة الإسلام ويعذّ به بأنواع العذاب ؛ فكم أحرقوا وكم عذّبوا وكم نفوا من بلادهم وضيعوا من مسلم ! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون !

حتى جاء النصر والفرج من عند الله ـ سبحانه ! ـ وحرك القلوب للهروب ، وكان ذلك سنة ثلاث عشرة وألف لهجرته ـ صلى الله عليه وسلّم ! ـ فخرج منّا بعض للمغرب وبعض للمشرق خفية مظهرا دين الكفار ـ أبعدهم الله ! ـ فذهب بعض إخواننا إلى مدينة بلغراد من عمالة القسطنطينية العظمى فاجتمع بالوزير المعظم المرحوم مراد باشا أحد وزراء حضرة السلطان الأعظم والخاقان الأفخم المرحوم برحمة الله ـ تعالى ! ـ السلطان أحمد خان نجل آل عثمان ، نصرهم الله ـ تعالى ! ـ وأيدهم ورحم سلفهم الصالح ! آمين !. وأخبره بما حلّ بإخواننا الأندلس من الشدّة والضيق بفرائضه وغيرها.

فكتب الوزير المشار إليه ـ رحمة الله ـ تعالى! ـ عليه ، لصاحب فرانصة ، دمّرها الله ـ تعالى! ـ بإذن من السلطان ، نصره الله ـ تعالى! ـ وهو يأمره بأن يخرج من كان عنده من المسلمين الأندلس وخدام آل عثمان ـ نصره الله ـ تعالى! ـ محمولين في أغربته ويوجّههم إلى بلاد الإسلام في سفن من عنده بما يحتاجون إليه.

فلما قرىء الأمر السلطاني في ديوان الفرنصيص بيريس دار مملكته وسمعه من كان عنده مرسلا من قِبَل صاحب الجزيرة الخضراء ، وهو اللعين فليبو الثالث أرسل الى سيده وهو يخبره بالواقع بأن السلطان أحمد نجل آل عثمان أرسل أمره إلى فرانصه وأمر صاحبها بأن يخرج من كان عنه من الأندلس وغيرهم ، فقبل كلامه وأمر بإخراج المسلمين وأذن لمن من الأندلس بأن لا بأس عليهم وأن يركبوا عنده في سواحله مراكبه فيبلغهم الى حيث شاؤوا من بلاد الإسلام العزيز المنصور.

فلما أحس بهذا الأمر عدوّ الله فليبُو صاحب الجزيرة الخضراء ويقال لها اسبانيا ، دخله الرعب والخوف الشديد ، فأمر حينئذ ، فجمع أكابر القسّيسين والرهبان والبطارقة وطلب منهم

الرأي ومايكون عليه العمل في شأن المسلمين الذين هم ببلاده كافة ؛ فبدأ الشأن في أهل بلنسية ، فأخذوا الرأي وأجمعوا كلّهم على إخراج المسلمين كافة من مملكته وأعطاهم السفن وكتب أوامر وشروطا في شأنهم وكيفية إخراجهم ، وشدد على عماله بالوصيّة والإستحفاظ على كافة المسلمين من الأندلس .

فهذا لطف عظيم ورحمة من المولى الكريم حيث قلب قلب العدوّ ؛ وعلى هذا الإستحفاظ الكبير فضل منه ، سبحانه وتعالى !.

نعم ! أريد أن أذكر لك نبذة يسيرة اختصرتها وترجمتها من جملة أسباب ذكرها الملك الكافر ـ أبعده الله ـ تعالى! ـ في أوامره التي كتبها في شأن اخواننا الأندلس حين أراد إخراجهم من الجزيرة الخضراء لتكون على بصيرة من أمرهم وتعلم بعض الأسباب التي أخرجوا لأجلها على التحقيق ، لاكما يزعم بعض الحاسدين ، وليؤيّد ماقدّمناه آنفا من أمر السلطان أحمد المنصور بالله ، نجل آل عثمان ، نصرهم الله ـ تعالى! ـ آمين وتكلم الفائدة ولئلا يساء الظن بنا معشر الأندلس فأقول وبالله التوفيق!

قال الملك الكافر ، أبعده الله ـ تعالى! ـ وزلزله ! ـ آمين ! ـ في أوامره : «لما كانت السياسة السلطانية الحسنة الجيّدة موجبة لإخراج من «يكدر المعاش على كافة الرّعيّة النصرانية في مملكتها التي تعيش عيشا رغدا صالحا ، والتجربة أظهرت لنا عيانا أن الأندلس الذين هم مولدون من الذين كدّروا مملكتنا فيما مضى بقيامهم علينا مرارا وقتلهم أكابر مملكتنا والقسيسين والرهبان الذين كانوا بين أظهرهم وقطعهم لحومهم وتمزيقهم أعضاءهم وتعذيبهم إياهم بأنواع العذاب الذي لم يسمع فيما تقدم مثله مع عدم توبتهم مما فعلوه وعدم رجوعهم رجوعا صالحا من قلوبهم لدين النصرانية وأنه لم ينفع فيهم وصايانا ولا وصايا أجدادنا الملوك ولا من سلف منا ، ورأينا عيانا أنّ كثيرا منهم أحرقناهم بالنار لإستمرارهم على دين المسلمين ، وظهر منهم العناد بعيشهم فيه بصفة دائمة واستنجادهم كذلك عون السلطان العثماني لينصرهم علينا ، وظهر لي أن بينهم وبينه مراسلات اسلامية ومعاملات دينية ، وقد تيقنيت

ذلك من إخبارات صادقة وصلت إليّ ، ومع هذا أنّ أحدا منهم لم يأت إلينا ليخبرنا بما هم يدبّرونه في هذه المدّة بينهم وفيما سبق من السنين ، بل كتموه بينهم ، علمت ، بذلك ، يقينا أنّ كلّهم قد اتفقوا على رأي واحد ودين واحد ونيتّهم واحدة ، وظهر لي أيضا ولأرباب العقول والمتدينين الصالحين من القسيّسين والرهبان والبطارقة الذين جمعتهم لهذا الأمر واستشرت معهم أن من إبقائهم بيننا ينشأ فساد كبير وهول شديد بسلطتنا وأنّ بإخراجهم من بيننا يصلح الفساد الناشيء من إبقائهم بمملكتي ، أردت إخراجهم من سلطتنا جملة ليزول بذلك الكدر الواقع والمتوقع للنّصارى الذين هم رعيتنا ، طائعين لأوامرنا وديننا ، ورميهم إلى بلاد المسلمين أمثالهم لكونهم مسليمن».

انتهى المراد بأكثر لفظه ، ولم أتعرض لذكر شروط كتبها ودقتها ؛ فانظر ـ رحمك الله ! ـ كيف شهد عدو الدّين الملك الكافر بأنهم مسلمون ، واعترف أنه لم يقدر على إزالة دينهم من قلوبهم ، وأنهم متمسكون كلّهم به ، مع أنّه كان يحرق منهم من ظهر عليه الدين ، ثم وصفهم بالعناد لرؤيته فيهم لوايح المسلمين وإماراتهم وملازمة القيام بدين الله مئين من السنين.

فأي علامة أكبر من صبرهم على النّار لأجل دين الحقّ ، ومن استنجادهم ملك دين الإسلام المؤيّد لحماية الدين ، أمير المؤمنين ، حضرة السلطان أحمد نجل آل عثمان ، نصرهم الله ـ تعالى ! ؛ فهذا غلبة الخير والعزّ والبركة لهذه الطائفة الطاهرة الأندلسية التي قال فيها شيخنا الأستاذ القطب الغوث سيدي أبو القشاش ـ نفعنا الله ـ تعالى! ـ به دينا وأخرى ، في بعض مكاتبه التي كان يكاتبني بها في بعض شأنهم ، حين قدومهم الى هذه الدّيار ، أدامها الله للاسلام ! ؛ فقال لي : «وسلّم لي على هؤلاء الأنصار الأطهار الأخيار ، فإنّه لا يحبّكم إلا مؤمن ولا يبغضكم إلا منافق» انتهى بلفظه.

ويؤيّد كلام الأستاذ ـ رحمه الله ! ـ الأحاديث الشريفة السابقة في أول هذا الكتاب في الفصل الأول منه كحديث سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ! ـ ، وحديث علي ، رضي الله ـ تعالى! ـ عنه ، وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم! ـ : «لاَ يَبْغَضُ الْعَرَبَ إلاَّ مُنَافِقٌ» وغيرهما !

وكما جاء في شأن قريش لثبوت نسب أكثرهم منهم ومن الأنصار الخزرج والأوس وغيرهما ، تغليبا ، فضلا عمّن هو منهم من الأشراف من ذرية الحسن والحسين والعبّاس وغيرهم ـ رضي الله عنهم! ـ من بني هاشم ، كما سيأتي ذكرهم ـ إن شاء الله ـ تعالى ! ـ مع ماتقدم ؛ والله ـ سبحانه ! ـ أعلم ، وبه التوفيق !

فخرجوا كلهم سنة سبع عشرة وألف ؛ ووجد في دفاتر السلطان الكافرة ـ أبعده الله ـ تعالى ! ـ آمين ! ـ أنّ جملة من أخرج من أهل الأندلس كافة ، نيف وستماية ألف نسمة كبيرا وصغيرا ؛ فكانت هذه الواقعة إحدى معجزات النبي ـ صلى الله عليه وسلم! ـ ومنقبة عظيمة وفضيلة عجيبة لجماعتنا الأندلس ، زادهم الله شرفا بمنه ! ؛ وأمر أيضا الملك الكافر بإخراج من كان مسجونا في مملكته ، وكلٌ من أمر أيضا بإحراقه ، فأخرجه وعفا عنه وزوّده وأرسله الى بلاد الإسلام سالما.

ولا يخفى أنّ هذا أمر عظيم ومحال عادة ، لمّا كنا فيه معه من الشدة والضيق في الدين والنفس والمال ؛ فسبحان ربّ السماوات ورب الأرض الذي إذا أراد أمرا قال له كن ! فكان ! فيا لها من أعجوبة ما أعظمها ومن فضيلة ما أشرفها ومن كرامة ماأجملها ومن نعمة ما أكبرها! فما سُمِع من زؤل الدنيا إلى آخرها مثل هذه الواقعة ؛ ولاريب أن هذا من كرامة النبيِّ ـ صلى الله عليه وسلّم ! ـ الذي أكرمه الله ربنا سبحانه ! ـ بمثل ماأكرم به كافة الرّسل والأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ! وماأحسن قول الإمام البصيري ـ رحمه الله ـ تعالى! ـ في همزيته : .

تَتَبَاهَى بِكَ العُصُورُ وتَسْمُو * بِكَ عَلْيَاءُ بَعْدَهَا عَلْيَاءُ

فلا شك أن جملة أعصار الدنيا من أولها إلى آخرها تتباهى به ـ صلى الله عليه وسلّم ! ـ وبأمته وتتنوّر به وتعلو ، ولانور للأنبياء والرّسل ـ عليهم الصلاة والسلام ! ـ دون نوره ولا باب لكافة الخلق دون بابه ؛ فهو باب الله الأعظم وسرّ وجود جميع الموجدات ؛ فلا يعرفه أحد من المخلوقات ، ونهاية العقول عن معرفته ؛ وما أحسن قوله (البصيري) أيضا ، رحمه الله ـ تعالى ! ـ

فَمَبْلَغُ العِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ * وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمِ

وكُلُّ آيٍ أَتَى الرُّسْلُ الكِرَامُ بِهَا * فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمِ

والحاصل أنه ـ صلّى الله عليه وسلّم ! ـ هو عين الوجود والسبب في كل موجود ولولاه لم تخرج الدنيا من العدم.

نعم ! سقت هذا الكلام السابق استطرادا ، لأحتج به وبالذي يأتي على الذين أنكروا على من ظهر شرفه منا ، معشر الأندلس السابق تعيين بعض من جاء إلى المغرب من الأشراف ، وكذلك من جاز إلى الجزيرة الخضراء أيام الفتح وبعده ، مسترسلا في مئين من السنين ، مع أنه لا يحتاج إلى دليل على ذلك.

وقد وقع الفتح لجزيرة الأندلس الخضراء ـ وهكذا سماها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ! ـ في بعض الأحاديث الشريفة ، وسمعت بعضها من شيخنا الأستاذ رحمه الله ـ تعالى ! ـ وبشرنا به وصنع لنا ضيافة كبيرة عظيمة بأنواع الأطعمة النفيسة وجمعنا عليها قرب قدومنا إلى هذه الدّيار العليّة ، ثم بعد الأكل ، قال ـ رحمه الله ـ تعالى ! ـ : « أتعرفون يامعشر إخواننا من الأندلس لماذا فعلت بكم مارأيتم اليوم من الإطعام والفرح ؟ » قالوا : «لا !» فقال : «فعلت هذا سرورا وفرحا لكم ، لأنه بلغني أن النبي ـ صلى اله عليه وسلم ! ـ توجه بوجهه الكريم نحو الجزيرة الخضراء فسلم عليكم صلى الله عليه وسلّم ! ـ وأنتم في أصلاب أجدادكم وأخبر ـ صلى الله عليه وسلم ! ـ بالجزيرة الخضراء وبما كان فيها من الجهاد والفتح والإسلام ؛ فهنيئا لكم ! هنيئا لكم ! هنيئا لكم ! ثلاث مرّات. »

ولنرجع إلى ما كنا بصدده فأقول : ـ وقع الفتح الأول سنة تسعين من هجرته ـ صلى الله عليه ماذكره صاحب الاكتفاء

خاتمة كتاب الانوار النبوية ، في آباد خير البرية لمحمد بن عبد الرفيع الاندلسي.

نص رقم 9 (الهجرة الاندلسية الى المغرب العربي)

« وبعد يقول العبد الفقير الرّاجي عفو اللّه وغفرانه وحلمه وعافيته ورحمته في دينه وآخرته إبراهيم الشهير بالعجم بالمرباش ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي من نولش من اقليم غرناطة ؛ ثم انتقل منها بعد القيامة الى قرب مدينة غرناطة ؛ وفيها كان انتشائي ومسكني ، الا أن أمر سلطان النصارى جميع الأندلس الذين تأخروا عن الخروج الأول بالإ[ر]تحال إلى بعض البلاد من بلاده الخارجة عن سلطنته غرناطة ، وذلك قبل التاريخ هذا بنحو الثمان[ي] و[ال]أربعين سنة ؛ وسكنا بمدينة إشبيلية ، وتولعت بالسفر في البحر المحيط ؛ فسافرت فيه مرارا ، ثم سافرت في السفن الكبار المسماة بالقيلونية بالأعجمية ، التي تأتي بالفضة من الهنود المغربية البعيدة ؛ فكانت تمشي عمارةً كما هي من عادتهم ، وفيها جيش ورجال عارفون بآلات الحرب البارودية ؛ وكانوا يجتمعون مع أكابر القوم للكلام في تلك الصناعة وتارة يأتو[ن] بالكتب المؤلفة في ذلك الفن وهي كثيرة ، لأن العارفين بالعلم المباشرين للعمل وغيرهم لّما رأوا أن ملوكهم يعظمون أهل ذلك الفن ومن يؤلف فيه اعتنوا به.

وكنت أجالسهم وأحفظ مايتفقون عليه وأشتغل بيدي في المدافع ، وجميعهم لا يظنون أنني أندلسي ؛ وفي الزمن الذي أمر (فيه) سلطان النصارى بإخراج جميع الأندلس ، من بلاده ، كنت مسجونا من أجل ماوقع لي مع بعض النصارى على أمور راجعة الى دعوى النفس بالشجاعة ؛ وكان لي من أكابرهم من يعتني [بي] ويصاحبني ، حتى خلصني الله من السجن ؛ فأردت الخروج من تلك البلاد إلى بلاد المسلمين مع جملة الأندلس ومنعوني من ذلك ؛ فعملت بينة بأنني من الأندلس لأخرج معهم ؛ ولم ينفعني شيء من ذلك ؛ ثم أنفقت دراهم في الرشوات وخرجت من بينهم وجئت إلى مدينة تونس ـ حرسها الله ! ـ.

فوجدت فيها كثيرا من الأصحاب والأحباب والأندلس ؛ وأقبل علي أمير المدينة عثمان داي ـ رحمة الله ! ـ وقدّمني على مايتي رجل من الأندلس وأعطاني خمسماية سلطانية ومايتي

مكحلة ومايتي سكينا وغير ذلك مما يحتاج إليه في سفر البحر ؛ وركبنا بأصحابنا في سفينة لم تجر إلا نحو الستة [ال]أشهر ؛ ومات ، رحمه الله ! ؛ وبعد موته بقليل ، ولينا إلى تونس بغنيمة قليلة وأنا مجروح من حرب الأعداء ، حتى أشرفت على الهلاك ؛ وبعد أن برئت ، ركبنا البحر وسافرنا فيه في طلب الكفار وأموالهم ونحن بقرب مدينة مالقة ، وهي على حاشية هذا البحر الصغير ؛ والتقينا بأحد عشر غرابا ، وذلك في نصف شهر أغشت ، والبحر ساكن ولا شيء من الريح ، ووقع[ـت] الحرب الشديد[ة] ومات من الجانبين خلق كثير ، ودام الطراد الكبير ، حتى لم يبق منا إلا القليل وأسرونا ؛ وصح أن من الكفار أعدائنا مات في ذلك اليوم أكثر من ستماية رجل ؛ وكان فيهم أكثر من عشرين من أكابرهم ، وأنا مثقل بالجراح ، ثم فرج الله علي من الأسر بعد السبع [الـ]سنين.

ثم وليت إلى تونس ، والأمير يوسف داي أمرني بالقعود في حصن حلق الواد[ي] ، ونحن من أهل الجيش في المراتب ؛ وفيها كمّلت معرفة آلات المدافع بالإشتغال بيدي فيها وبالقراءة في كتب الفن ؛ ولما رأيت الطائفة المسماة بالمدافعين المرتّبين لا معرفة لهم بالعمل وأنهم لا يعمّرون ولا يرمون بما يقتضيه العمل ، عزمت على تصنيف هذا الكتاب ، لأن كل مدفع له قيمة مال [وتلقى] تعبا في إيجاده ، ثم يوكل على تسخيره والرمي به من يكسره ويفنيه في الرمية الأول أو الثانية ، والموكل عليه الذي يعمره قريب من الهلاك ، فحملني على تصنيفه النصح له ولمن وكله عليه.

أسأل الله أن يقبل النية ، إنها أبلغ من العمل ، وأن ييسّر لي من يعربه من الكلام الاسبنيول ، وهو الكلام العجمي المتعرف الأندلسي ؛ وما قصدت به نفعا دنياويا بل الإخلاص لله لنكتب منه نسخا ونبعثها - إن شاء الله ! - لبعض المواضع من بلاد المسلمين ، ونذكر فيه مايحصل النفع من وجوه ، للمدافعين القائمين بما وجب عليهم من الحقوق فيما تصدّروا وتكلّفوا من خدمة أمراء المسلمين ؛ ويُجِلُّ لهم الأجر عند الله - سبحانه ! - بتفريج المسلمين بإتقان أعمالهم وتخويف أعدائهم الكافرين».

مقدمة كتاب العز والمنافع للمجاهدين بالمدافع. وقد ترجمه من الاسبانية إلى العربية احمد الشهاب الحجري.

نص رقم 10 (الهجرة الأندلسية الأخيرة الى المغرب العربي)

الفصل الثـاني :

في فعله (أبي الغيث القشاش) مع الأندلس وماخالقهم به ـ رضى الله ـ تعالى ! ـ عنه ! .

« قال العبد الفقير الى الله المنتصر : لما جاء الأندلسيون الى تونس ، كنت أنا بتونس برسم الزيادة ، وكنت ذات يوم خارجا من باب بئر بشرقي جامع الزيتونة ، فلقيت كبراء الأندلس ومشايخهم ؛ وفي أيديهم ورقة كاغظ وهم يفتشون على من يقروؤها لهم ، فصادفوني ؛ فقال : « أنت تقرأ خط الشيخ سيدي أبي الغيث ؟ » فقلت لهم : «نعم !» ، فأطلعوني على ورقة مكتوبة بالأخضر فيها مكتوب :

الحمد لله ! والصلاة والسلام على رسول الله !

إلى ساداتنا الأندلسية خصوصا منهم سيدي فلان وسيدي فلان (إلى أن سمى من أكابرهم عشرة رجال) .

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

أما بعد ! فلا مزيد ـ بحمد الله ـ تعالى ! ـ إلاّ خيرا وما يسركم ! وأنا داعي لكم بخير ! وماذكرتم لنا على أني استخير الله ـ تعالى ! ـ لكم ، فاستخرت لكم أولا عند والدي ، والثاني ليلة عند استاذي سيدي محمد حذيفة ، صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ! ـ والثالث ليلة عند والدي ، فرأيت لكم خيرا ؛ والمهدية مشتقة من الهدي ! وأنتم كما قال الشاعر :

تَحْيَا بِكُمْ كُلُّ أَرْضٍ تَنْزِلُونَ بِهَا ! * كَأَنَّكُمْ بِبِقَاعِ الأَرْضِ أَمْــطَــارُ !

وَتَنْظُرُ النَّــاسُ مِنْكُمْ مَنْظَرًا حَسَنَا * كَأَنَّكُمْ فِي رُؤُوسِ النَّاسِ أَبْصَــارُ !

وَإِنْ جَــاءَ رَكْبٌ حَلَّ أَرْضَكُــمُ * كَأَنَّمَا فِي رِحَــالِ القَوْمِ عَـطَّــارُ !

لاَ أَوْحَشَ اللَّهُ عَيْنِي مِنَ جَمَالِكُمُ * يَـامَنْ بِهِ فِي الحَشَا والقَلْبِ تِذْكَارُ !

والسلام عليكم ورحمة الله ـ تعالى ! ـ وبركاته.

من العبد الفقير أبي الغيث»

ثم أخذوا الورقة من يدي ، وساروا فرحين مستبشرين بكلام الشيخ رضي الله ـ عنه ! ـ

ولما أن جاء الأندلس إلى تونس ، ضاقت بهم المحاجج والطرقات والأسواق والمساجد والديار والمخازن والحوانيت وصاروا يأتون الى الشيخ والى سماطه ؛ وجرى معهم الشيخ ـ رضي الله عنه ! ـ كالريح المرسلة في إطعام الطعام وكسوة العريان ، حتى إني أحصيت مايخرج لمؤنتهم اثني عشر (كذا) ماية خبزة من القمح وقفيزين من الدقيق ، والكسكسو ، شيء يابس مسفوف وشيء مسقي (كذا) وزوج أحمال من الخروب لعلف الدواب بخلاف اللبن واللحم [و] رأسين بقر كل يوم ! هذا على حساب العام كامل (كذا) ضيفهم الشيخ رضي الله عنه !.

ولما كثر الأندلس بتونس ، وعمروا إقليمها ودوائرها وعمروا الجزيرة وكثرت بلدانهم وكثر خيرهم وحرثهم وتأهلوا ، صاروا يأتون من كل بلدانهم لزيارة الشيخ سيدي أبي الغيث القشاش ـ رضي الله عنه ! ـ ويأخذون على يديه العهد من كل بلد حزبا ، وكل حزب يجعل له نقيبا ، والنقيب هو شيخ الفقراء ، ويعطيه علما أخضر ويوصيه بطاعة الله ـ تعالى ! ـ وطاعة النقيب ، وهو المقدّم عليهم ، ويقول لهم : «يافقراء ! الله الله في دينكم ! واجتهدوا في ذكر الله ـ تعالى ! ـ وطاعته ، وفي طاعة مقدمكم ، وكونوا إخوانا على سرر متقابلين».

وكان الأندلسيون ممتثلين لأمر الشيخ ـ رضي الله عنه ! ـ سامعين له مطيعين في كل

أمر ؛ وكان يحسن إليهم - رضي الله عنهم ! - يواسيهم ويكاتبهم ويأخذ بخواطرهم ويقضي حوائجهم في كل مايحتاجون إليه فيه ؛ وكان أقربهم إليه سيدي محمد بن عبد الرفيع الأندلسي - رضي الله عنه ! ».

المنتصر بن ابي الحية القفصي ، نور الارماش في مناقب القشاش ، الفصل الثاني :

نص رقم 11 (الهجرة الأندلسية الأخيرة إلى المغرب العربي)

« وفي هذه السنة (1017 / 1608) والتي تليها ، جاءت الأندلس من بلاد النصارى ، نفاهم صاحب اسبانية ، وكانوا خلقا كثيرا ، فأوسع لهم عثمان داي في البلاد ، وفرق ضعفاءهم على الناس ، وأذن لهم أن يعمروا حيث شاؤوا ، فاشتروا الهناشير ، وبنوا فيها واتسعوا في البلاد ، فعمرت بهم واستوطنوا في عدة أماكن.

ومن بلدانهم المشهورة ، سليمان وبلي ونيانو وقرنبالية وتركي والجديدة وزغوان وطبربة وقريش الواد ومجاز الباب والسلوقية وتستور وهي من أعظم بدانهم وأحضرها ، والعالية والقلعة وغير ذلك بحيث تكون عدتها أزيد من عشرين بلدا.

فصار لهم مدن عظيمة وغرسوا الكروم والزيتون والبساتين ومهدوا الطرقات بالكراريط للمسافرين ، وصاروا يعدون من أهل البلاد ».

(محمد بن أبي دينار ، المؤنس في اخبار افريقية وتونس ، ص 204.

الفهرس

القسم الثالث : عصر الطوائف

القسم الرابع : عصر المرابطين والموحدين

القسم الخامس : عصر بني نصر

القسم السادس : العصر الموريسكي

إلى غاية الهجرة الكبرى

